
في مهبط الوحي
الدكتور
محمد بديع شريف




في مهبط الوحي

Badiʻ Sharīf, Mohammed

الدكتور

محمد بديع شريف

/Fī mahbiṭ al-waḥy/



الطبعة الاولى

١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م

طبع من هذا الكتاب ستة آلاف نسخة في
مطبعة العاني
بغـداد ـ العـراق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا

صدق الله العظيم

مُقَدّمَة المؤُلفِ

كلما قرأت آية من آيات القرآن الكريم أو سمعت تلاوة سورة من سوره أو مرّ بي قبس اقتبسه منه كاتب بليغ فنظمه في ثنايا عباراته أزددت اعجاباً وتعلقاً بهذه المعجزة الكبرى في البيان العربي وجنّحَ بي الخيال الى ذلك الوادى غير ذى الزرع الذى ترعرعت في جنباته الرسالة المحمدية وتمت حتى اكتملت وظهرت للوجود تقدم للانسانية مكارم الاخلاق وتعلن للملأ كرامة الانسان . وكلما رددت تلاوة آيات الله العزيز الحميد في قرآنه المجيد : « هو الّذي أرْسَلَ رَسُولَه بالهُدىٰ وَدِينِ الْحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وكَفَىٰ بِاللهِ شَهيدا . مُحَمّدٌ رَسُولُ اللهِ والّذِينَ مَعَهُ أشدّاءُ عَلَى الكُفّار

رُحَمَاءَ بَينَهُمْ سِيمَاهُمْ في وُجُوهِهِم مِنْ أثَرِ السُّجُودِ ذلْكَ مثلهم في التوراة وَمَثلُهُمْ في الانجْيلِ كَزَرْعٍ اخرج شَطْأه فآزره فاسْتَغْلَظَ فاسْتَوىٰ على سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلوا الصالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً واجراً عَظِيماً » .

كلما رددت تلاوة هذه الآيات الكريمة وامثالها تكشفت لي بوضوح اهداف الرسالة المحمدية وكبر في عيني وجود الانسان وتمثلت لي هذه العقيدة الصافية التي يمشى نور الهداية بين يديها تحمل على جناحها الرحمة والاعمال الصالحة والمودة والاخاء والتعاون وهى ما يبتغيه بنو آدم على وجه هذه الارض .

وكلما أمسكت القرآن بيدي ارتفع بي الخيال الى مشرق الدعوة وعهد النبوة وتمثل لي المجتمع الاسلامي كأنه في مدرسة جامعة تنشىء الرجال والقادة . لقد كانت مدرسة محمد (ص) مصنع الرجال وكانت العناية الالهية تمده بالقوة والحنكة ، وهكذا تخرج في مدرسة النبوة خلفاء يديرون سياسة الامة وأئمة مشرعون يعرفون كيف يمسكون بميزان العدل وقادة فاتحون رمى بهم الاسلام وجه الدهر فقصروا آماده وانشأوا امة مكتملة مرشدة في مدة لا تزيد على ربع قرن .

ثلاث وعشرون سنة مر بها عهد النبوة في تشريع وتهذيب وتكوين حتى اذا اكتمل هذا المجتمع الممتاز

خرج ابناء الوادى غير ذى الزرع الى الهلال الخصيب سيماء الهـداية في وجوههم والرحمة مطـوية عليها جوانحهم يبتغـون فضلاً من الله ورضـوانا ، خرجو ليعلموا الناس كيف يسود العدل وكيف تكون الاخوة والمحبة والمساواة ، خرجوا وهم على مثال الانسانية المكتملة لينشئوا للناس حضارة زاهرة زاهية في ظلال الطمأنينة .

ما رأت البشرية عهداً في عهود النبوات ولا كتب التأريخ صفحة من صفحات المصلحين مثل هذه الفترة التي مر بها عهد النبوة من مشرق الدعوة الى اكتمال العقيدة الاسلامية . لقد اختفى في هذه الفترة سلطان الارض عن رقابة الرعية ومشت احوال المجتمع رخاءً يعرف كل امرىء حقه دون درجـات المحـاكم ودوائر الأمن ومراكز الشـرطة ومعـاقل السجون ، وكانت السماء هى الرقيبة على هذه الامة عقاب المسىء نار موصدة في عمد ممدة وثواب المحسن جنات تجرى من تحتها الانهار . أما عقاب الدنيا فحدود معلومة وضعها الشارع حيث يقرؤها الانسان، ما استعملت الا لِمَا مَا وفي أمـور مُلِحّـة وكانت الشـريعة الاسلامية نَظام المجتمع ينزل الوحى ويبـلغ الرسول ويفهـم الناس فيؤمنون بما انزل ويطيعون وفي هذه الاطاعة تربى ضمير المسلم تربية قوية وبعبارة أوضح تربت النفس اللوامة التى أقسم بها القـرآن الـكريم والتي تلوم صاحبها عند الخطـأ وتعـذبه فاما أن يتوب واما أن يركض الى مقام النبوة يطلب اقامة الحد ، ومثلما تلوم صاحبها على الخطأ تحثه على عمل الخير وتعصمه من

الزلل . وفي ظل هذه التربية نشأ نظام الحكم في عهد النبوة وهو نظام غاية ما يطمح اليه الأنبياء والمصلحون في الأمم ذلك أن يعرف المرء حدود الله فيرتدع عن اتيان ما تحرمه الشريعة ويؤدى ما توجبه عليه وتحله .

حرم الاسلام الخمر فتمزقت الزقاق في اقل من طرفة عين وسالت بها شوارع المدينة وحرّمَ الزنا فازدادت حصانة المحصنات قوة على قوتها وتحصن المحصنون بالايمان والخلق الكريم ، وحرم القتل فاطمأنت النفوس وحرم السرقة فكفت الأيدى عن اموال الناس ، ومنع الربا فَرَبَتْ الاموال دونه ومشت قوافل التجارة في رحلة الشتاء والصيف غدواً ورواحا في المجتمع • ووضع الاسلام الزكاة فامتلأ بيت المال وكفكف الفقر اذياله حتى لقد كان الفقير يُعْطَى من المال ما يرفعه الى مصاف الاغنياء ، لقد قضى الاسلام على الرق بان جعل عتق الرقبة فضيلة من فضائل المؤمن ثوابها الجنة والعتق من النار . قضى على التمييز العنصرى فلا يعرف اسود ولا ابيض ولا عربياً أو اعجمياً ، ولا فضل لأحد على أحد الا بالتقوى وكان بلال الحبشي أول من وقف على سطح المسجد في مشرق الدعوة يؤذن : « الله اكبر » . نعم !! الله اكبر من كل ابيض أو اسود ومن كل جبار عنيد ومختال فخور الله اكبر من كل شيء . ما أروعها كلمة ! يعرف البشر بها نفسه كلما بغى وتجبر أو تكاثر وافتخر !!

أوحت السماء كيفية قسمة الارث وعينت الفروض

فرضي المؤمنون بهذا القسم وحددت الشريعة المحرمات في الزواج وبناء الأسرة لحفظ اصالة النسب وصلة الرحم بحدود لا مثيل لها في انظمة الأمم وأقرت الشريعة قسمة الغنائم مما أفاء الله على رسوله وجعلتها لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين كى لا يكون الفىء دولة بين الاغنياء وشرع الاسلام العقود والوفاء بالعهود وفسح المجال لمواهب الفرد أن تظهر للوجود وبرزت القيادات المكتملة في جميع مجالات الحياة في الادارة والحرب في التشريع والتفقه في الدين والتجارة والزراعة . وفي هذا الطراز من التهذيب والتكوين ابدعت شخصية المسلم فكان الصحابي مثال الرجل الكامل ، نور القرآن يمشى بين يديه وسيرة الرسول ماثلة أمام عينيه وهي سيرة فيها معانى المثل العليا فالمؤمن لا يكذب والمؤمن لا يغضب بل يحل اموره بالحلم والعقل والعزم والارادة والمؤمن يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة والمؤمن اخو المؤمن وناهيك بهذه الاخوة من تضحية وايثار ومعونة .

وعندما اراد الاسلام ايقاظ ضمير الانسان وتربيته وضعه بين عقاب الجحيم ان أخطأ وثواب النعيم ان تاب أو اصاب وأكّدَ عليه في التزام التوحيد ليكون له العروة الوثقى من الزلل ووجه نظره الى الكون الى ما وراء الطبيعة « قُلْ هُوَ اللّهُ احدٌ اللّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ ولم يُولَدْ ولم يَكُنْ له كفواً احدٌ » .

ادركت الفطرة العربية الصافية في مشرق الدعوة

هدف التوحيد وتقبلته دون تردد ذلك لأن الايمـان بأله فيما وراء الغيب لا تدرك كنهه العقول ولا يقاس بمقاييس البشر أتم واصدق واقبل للعقل من الايمان بمعبود منحوت من الحجر ناقص تستطيع رياح الطبيعة وامطارها ان تأكله وتضـع فيه الأخاديد فلا ينـطق ولا يسمع ولا يعقل . وبذلك ارتفع المؤمن من حمأة الشرك والتمرغ على قدم صنم منحوت من اللخاف والصوان أو الرخام الى عبادة الديان الى عبـادة رب لا يقصد في الحوائج غيره ولا يصمد الى احد سواه ، انه رب منزه عن الحوادث ، قوة جبارة هائلة لا يحيطها وصف ولا تقـاس بمقاييس البشر وجـدير بالـرب الواحد القهار أن يعبد ولا معبود سواه .

وهـكذا حرر الاسلام الفـكر من عبودية الأرض وكسر فيها قيود الذلة وسما بالنفوس الى عالم مـا وراء الطبيعة الى التفكير في الكون الواسع الى المخلوقات العظيمة التى لم يكن الانسان فيها الا ذرة من ذراتها بل اصغر من ذلك وأنها كلها ترجع الى خالق يجـل عن الوصف . وفي هذا التفكير السامى كفاية لسمو النفس وترفعها .

وبهذا السمو تطمح نفس المسلم الى الاستزادة من الكمال وكلما طمحت النفس الى الاستزادة تقدمت الى الافضل فالافضل وبمثل هذه الروح اخذ المجتمع الاسلامي يتطور وينمـو ويغترف من معـين شريعة لا تنضب لانها تستند الى العدل . بهذا السمو أتم محمد (ص) مكارم اخلاق هذه الامـة وأخذ ينشىء

الرجال في مدرسته السماوية . وفي اقل من ربع قرن ولــدت الفضيلة ونمت وترعرعت ونبتت في ظلالهــا الوارفة عبقرية الاسلام .

كلما رجعت الى السيرة النبوية أو مررت بحوادث التأريخ في مشرق الدعــوة تراءت لي تلك النفــوس الكبيرة التي هذبها الاسلام لانشاء المجتمع الفاضــل وتبينت لي وضاحة تلكم المبادىء السامية التي ابدعها وطبقها الفكر الاسلامي واندفعت بها الجموع العربية تنادى بالاخوة والتي لا تزال تتلألأ في امجادنا وتشهد بها اخلاقنا .

وفي غمرة هذه النشوة بالاعتزاز بمبادىء الدين الاسلامى الذى نُشِّئْتُ عليه لبيت نداء السماء في الوحى المنزل : « وأذِّنْ في النّاسِ بالحَجِّ يأتُوكَ رِجَــالاً وعلى كُلِّ ضَامِرٍ يَأتِينَ من كُلِّ فَجٍ عَمِيقٍ لِيَشهَدوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُــروا اسْمَ اللهِ في أيّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ من بَهيمَةِ الأنْعَامِ فَكُلوا مِنْهـا وأطْعِمـوا البائِسَ الفَقِير » .

ونويت الحج وتوكلت على الله لأؤدى فريضة من اجلّ الفرائض واكرمهــا ولأرى مهبط الوحى لارى البيت الذى جعله الله مثابة للناس ولأشهد جبل النور وغــار حِراء ولأرى بعــينى مهبــط الوحى لأرى دار الأرقم حيث كان المسلمون قلة يستخفون من الناس ويخافون أن يتخطفهم الجاهلون ثم علا صوت الحق وصدع المؤمنون بما كانوا به يؤمرون ، لأرى المكان

الأول الذى ارتفعت فيه جملة « الله اكبر » هذه الجملة العربية المبينة التي هــزت العــالم وايقظت البشرية وهذبت النفوس وعلمت الانسان مكانته في الوجــود ذلك الانسان المغرور الــذى يدعى تارة أنه صنديد وأخرى أنه جبار عنيد فاذا به يصغر ويصغر حتى لا يرى نفسه شيئاً اذا فكر في معنى جملة « الله اكبر » .

أجَلْ ! الله اكبر من كل كبير لأن كل كبير في هذا الوجود الامكانى صائر الى تراب في حمأ مسنون .

رَنَّتْ هذه الجملة في آذان المؤمنــين وعقلتهــا قلوبهم فاذا بهم في أعلى عليين من المثل السامية واذا بهم يعلمون البشرية كيف يجب أن يكون الانسان .

نويت الحج لأرى هــذه المشــاهد بعينى ولأقف بنفسى على تلك المناسك لأرى الصفا والمروة ولأتذكر كيف خرت الأصــنام المــذلة وتكســرت أمــام جملة « الله اكبر » لقد شهدت ووقفت وتذكــرت . وقفت في بدر وجَنَّحَ بي الخيال وتراءت لي تلك القلة من الصفوة المختارة من بين المؤمنين ومثل أمــام ناظرى صراع الحق والباطل ، صراع الشرك والتوحيد وايقنت أن الحق هو المنتصر في احواله كلها وأن الفضيلة لا يحجبها الغبار مهما تكاثف حولها .

شهدت عرفة ووقفت حول جبل الرحمة وسمعت نداء المسلمين يلبون يستجيبون نداء الرب ويعترفون أن الله اكبر من كل كبير وتذكرت رسول الله (ص) يتلو آيــة الوحى المنــزل « اليــومَ اكْمَلتُ لَكُمْ دِينَكُمْ واتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي ورَضِيتُ

لَكُمْ الاسْلامَ دِينَا » .

وافضت حيث افاض الناس من عرفات وذكرت الله عند المشعر الحرام ذكرت الله في مزدلفة وجمعت الحصى استعداداً لرجم الشيطان وطرد الخنّاس الوسواس الذى يوسوس في صدور الناس ويغويهم وعلمت أنه درس للمسلمين ليتفرغوا من الخطايا والذنوب ويجددوا نشاطهم في نشر الفضيلة شهدت منابع التشريع في الاسلام وشعرت بروح الاسلام السامية تملأ جوانحي وتنير فؤادي .

وتَلَفَّتُ لأرى قوة الاسلام وعظمته فلم أرها الا في هذه الجحافل المزدحمة والخيام المضروبة وتمنيت أن يتحقق في الحج هدف من اهدافه السامية ومقصد من مقاصده العليا تمنيت ان لا يصل الى الحج الا من استطاع اليه سبيلا فالمال قوة وفيه استطاعة ولكنه ليس الكل في الكل ففى الصحة استطاعة وفي الشباب استطاعة وفي العلم ثروة تعدل المال وتزيد عليه فتمنيت أن يكون جلة الحجاج من شباب المسلمين الاشداء الاقوياء وعلمائهم الفضلاء لينقلب الحج بعد اداء المناسك الى مؤتمر عام تعرض فيه امور المسلمين ومشاكلهم وتظهر فيه قوة الاسلام .

ملأ هذا الشعور جوانحي فكتبت ما استطعت أن اكتب مما شعرت به في مهبط الوحى .

كتبت عن عبقرية الاسلام وتنشئة الرجال وكتبت عن عباقرة المسلمين ووصفت المناسك ووضحتها وشرحت مقاصدها لقد وضحت نظام الحكم في عهد

النبوة وابنت المجتمع الفاضل في الفترة التى اتمت الرسالة فيها دين الاسلام ولا ادعى الكمال فان الكمال لله وحده ولكننى فتحت نافذة لغيرى ينظر منها الى منبع غزير يغترف منه ما يشاء فان وفقت فذلك الذى اردت وان اخطأت فان الله غفور رحيم والعصمة لله وحده .

بديع شريف

من جده الى المدينة

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ (ص)

اندفعت بنا السيارة من جدة الى المدينة تنهب صدر الارض فوق طريق لاحب اسود واسع لا يهدأ محركها الا اذا اراد قائدها ان يتحاشى منعطفا او يصعد مرتفعا او يهبط منخفضا وكانت اشجار الاثل والعوسج المتناثرة في البطاح والابل السارحة فوق هذه الارض المعزاء تظهر وكأنها تمر بنا مر السحاب •

ولم نقف الا بريهة تحت ظلال سقيفة في حي من الاحياء المتناثرة في هذه الصحراء على جانب لكي يتم السائق ابـدال العجـلة التى اصابهـا العطب • ثم استمر بنا المسير حتى وصلنا الى بدر ولنا عود في الحديث عن هذا الموقع الذي يتصدر تاريخ العرب والاسلام • وصلت السيارة مشارف المدينة المنورة وكانت الشمس قد اخذت تجنح في سيرها منحدرة الى الغروب وتنشر خلفها على ذرى الجبال السمر والبطاح العفر غلالة ذهبية كأنهـا


محراب النبي ﷺ بالمسجد النبوي
المدينة المنورة

ابتسامة في فم الصحراء •

فلما تراءت لنا منائر المدينة المتناوحة تمشت في مفاصلي رعدة الجلال والاحترام وارتفع بي الخيال الى يوم الهجرة وشخصت صورة محمد (ص) أمام ناظرى فقد عرفته في التاريخ : ازهر اللون واسع الجبين ، جثل الحاجبين ، اقنى الانف ، سهل الخدين ، ضليع الفم ، بادنا ، بعيد ما بين المنكبين ، عبل الذراعين ، شثن الكفين هيئة مكتملة في خلق عظيم وشخصية اختارتها العناية الالهية لاداء رسالة الوجود •

وصرت كأني اشهده واقفا بمكة بين جماعة من صحبه يحثهم على الهجرة والملأ من قريش يأتمرون به ليقتلوه او يخرجوه ، لا لشيء الا لانه سفه احلامهم وعاب عليهم اصنامهم واراد ان يسمو بهم الى الذرى فانتفخت اوداجهم وورمت انوفهم •

لقد كانت هجرة النبي امتحانا لايمان المسلمين وايذانا بظهور الاسلام قوة مكتملة في الوجود وكانت نتيجة لصراع بين حق يريد ان يعلو وباطل لابد من ان يهبط • لقد عقد المشركون العزم على أخراج محمد أو الفتك به واشتد الجدل بينهم واشتبكت الآراء حتى قال لهم ابو جهل :

والله ان لي فيه رأيا ما اراكم وقفتم عليه •

قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟

قال : ارى ان نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا شجاعا ثم نعطى كل فتى سيفا صارما بتارا ، فيعمدوا الى محمد فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، واذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعها فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا فيرضوا بالدية فيه • فرضي القوم بهذا الرأى ، وقالوا لابى جهل : الرأى رأيك يا ابا الحكم •

واما المسلمون فقد تسللوا لواذا الى المدينة ولم يبق منهم الا نفر قليل واشتدت وطأة قريش على النبي فاأذن الله له بالهجرة فأسرها الى ابن عمه علي والبسه برده الحضرمى وأمره أن ينام على فراشه ، ثم ذهب الى ابى بكر واخبره بما اوحته اليه السماء فتهلل وجه ابى بكر بالبشر وقال : الصحبة يا رسول الله ! فقال له : الصحبة •

ووضع محمد مع أبى بكر خطة الهجرة وكان غار ثور في جنوب مكة مأواهما لثلاث ليال ولا يعلم بهما أحد الا آل ابى بكر .

ترك محمد (ص) مكة مهاجرا والافق الاوسع يمتد امام بصره والثقة الصامدة في نفسه تدفعه الى السمو بالبشرية لا يخاف ولا يجزع ولا يتردد وخلف وراءه قبائل قريش في حيرة وابكة لا تعرف شيئا من أمره ولكنها ادركت ان محمدا قد أصبح في منعة وان هذا الامر لابد ان يظهره الله . وادرك الاوس والخزرج في المدينة ان المجد بدأ يلوح لهم في الافق لان في قدوم محمد قوة وان القوة مصدر المجد والسعادة والمسرة .

نزل محمد في قباء وهى ضاحية تبعد عن المدينة مسافة فرسخين ومكث فيها اربعة أيام بنى خلالها مسجدا لا يزال يعرف باسمها . ولما علم أهل المدينة بقدومه خرجت كلها بشبابها وشيوخها يستقبلونه وهم لا يعرفونه ولم يروه ولكن كانت قلوبهم العامرة بالايمان تعرفه وتحن اليه ، تحن الى شيء جديد كان يتردد في أحلامها تحن الى الاعتصام بالذرى العالية حيث ينابيع الحياة التى لا يصعد اليها الضعيف ولا تدب اليها ديدان الحمأة .

وفي ظل نخلة التقى شيوخ المدينة بمحمد وكان اليوم يوم جمعة صلاها محمد ببطن وادى رانونا ، ووضع يده بيد انصاره وبيد المهاجرين من اصحابه وتسابق صناديد المدينة يدعونه كل منهم يريد ان يكون محمد ضيفه وان ينزل في داره ولكنه ركب ناقته وارخى لها خطامها ثم قال :

انما انزل حيث ينزلنى الله .

واحتشد القوم حول الناقة ينادون بصوت واحد : « الله اكبر جاء محمد ، الله اكبر جاء رسول الله » .

ما اروعها جملة ترتعد لها فرائض الملحد ! وتخشع لها جوارح المؤمن !

وسارت الناقة بمحمد ما شاء الله ان تسير حتى حطت وبركت فنزل محمد عنها وسأل لمن هذا المربد ؟ فتقدم اليه معاذ بن عفراء وقال له :

يا رسول الله انه لسهيل وسهل ابنى عمر وهما يتيمان في حضانتي وسأرضيهما عنه فأتخذه مسجدا • فاشترى رسول الله المربد من معاذ حاضن الغلامين وأمر ان يبنى له في هذا المكان مسجده وان تبنى داره •

ونزل في دار خالد بن زيد الانصارى حتى فرغ من بناء المسجد والدار فأنتقل اليهما •

هكذا مرت بى هذه الحوادث كما يمر الشريط السينمائى تتلاحق صورها وتلتف من حولها حتى ارتد الي بصري حين اوقف الشرطى السيارة وقال : هنا قفوا فان الازدحام لا يسمح بمرور أية سيارة فترجلنا وتركنا امتعتنا الى حيث ننزل •

كان المنزل بجوار المسجد النبوي وكانت الشوارع تموج بالحشود لا تسمع الا نداء ولا تتبين كلاما من بين الرطانات المشتبكة واللهجات المتعددة التى لا اثر فيها من فصاحة قريش ولا مكانة بينها لبلاغة الاوس والخزرج •

الله اكبر هذا هو مسجد محمد وهذه الجموع كلها تؤمن برسالة محمد وهذه الحشود في كل عام تتوالى لتجدد العهد لمحمد •

ما ابدعها رسالة حملت الشرق والغرب اليها وزحفت جموع الشيوخ والشباب والفتيات والعجائز من اطراف الدنيا ، لا يقفها بحر ولا يعوقها جبل ولا يقف دونها سد ، ركبت متن الهواء ، وامتطت ظهر الارض وعلت ثبج البحر كل اولئك جاءوا ليقولوا : الله أكبر ! اشهد ان لا إله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله •

فلماذا كل هذا ؟

اجل ! لقد ملأ محمد سمع الدنيا والهم فم الزمان ان البشر كلهم لآدم وآدم من تراب ، وان الناس سواسية كأسنان المشط وان الناس احرار في الوجود كيوم ولدتهم امهاتهم ، وان العدل قاعدة من قواعد السماء وان الاخاء قوة ينفثىء بها الغضب والحسد والحقد • فلا ابيض ولا اسود ولا سيد ولا مسود ولا سيادة الا لشريعة السماء ولا يخضع انسان الا لله ، فكلنا عبيد الله ، لا طبقية ولا لجنة مركزية وان الدنيا مزرعة الآخرة

فاعملوا لدنياكم كأنكم تعيشون ابدا واعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غدا .
وهكذا انفلت الهندى من قيوده والبوذى من نسكه وابتعد المجوسي عن ناره والوثنى من صنمه وجاءوا ليعمروا قلوبهم بالايمان وليعبدوا الله وحده .

ما اروع منظر المصلين حول مسجد الرسول وفي اروقته ، ثياب بياض ووجوه الوان ، ومنازل شتى : فقير وغني ، خادم وسرى آمر وجندى وال ٍ ورعية كلهم واقفون خشعا أبصارهم بين يدي الله في صلاة واحدة صفوفا متراصة يقرءون سور القرآن وآياته ويسبحون بعظمه الله في الركوع وبحمده بالسجود ويثنون عليه في القيام والقعود ويسلمون ذات اليمين وذات الشمال احدهم يحيي الآخر . هذه هى المساواة التي اجملها القرآن في جملة واحدة « انما المؤمنون اخوة » .

انها قوة لو علم المؤمنون سرها .

رحب واسع شامخ الاروقة متطاول الاعمدة في طراز عربي جميل تزين جدرانه آيات من الذكر الحكيم واحاديث من سنة النبي الكريم .

يتسابق المصلون الى اتخاذ مكان فيه قبل ساعة او ساعتين من ميقات الصلاة . فاذا امتلأت رحابه واروقته وصحنه طار الحمام الآمن الذى يلتقط الحب الوفير من صحن المسجد الى اعالى الاعمدة والاروقة ينظر الى هذه الجموع الزاخرة في هدوء لا مثيل له . فاذا اطمأن بك هذا الرحب الواسع في وسط هذا الزحام الشديد فانك لا تسمع الا تسبيحا ودعاء وصلاة وتسليما وتلاوة آيات وكلما اقتربت من حجرة النبي اشتد الزحام ورأيت أكفا مرفوعة وجباها موضوعة وسمعت نشيجا وبكاء وابصرت اكفا تتلمس الجدران وحلقات تستمع الى ادعية المطوف وتردد ما يقول .

ضعف وقوة يبدوان للناظر اينما تلفت في وسط هذه الجموع المشتبكة .

يجد الضعف في هذا الكائن المذنب الذى جاء تائبا معترفا يرجو غفران ربه ليخلص من عذاب ضميره فيما اقترفت يداه أو جنته نفسه ويدعو الله في جوار احب الناس اليه .

ويجد القوة في شخصية معتزة قطعت الفيافي وركبت متن السماء لترى مواطن العظمة والجلال ، لترى مهبط الوحي ونزول الآيات ومكان تبليغ الرسالة ومصدر التشريع ، لترى منبر محمد الشامخ ينذر ويبشر ويقرأ رسالة السماء من فم جبريل الى الناس كافة •

ويرى مدرسة محمد (ص) فيتخيله يهذب ويعلم ويصنع الرجال الذين رمى بهم صفحة الدهر ولطم وجه الشر ونثر بهم على العالم ثمرات الخير والامن والسلام •

أجل هذا هو المكان الذى اختاره محمد (ص) لبث دعوته وتبليغ رسالته فاذا ارتد اليك وعيك من الخيال السابح الى الحقيقة الواقعة وجدت نفسك بين القوة والضعف ضعف المذنب التائب وقوة المؤمن العابد الشاكر لله أنعمه على ما هداه الى هذا الدين الواضح في قرآن عربى مبين وسنة رسول أمين •

اقيمت الصلاة بعد ما تثاءب الفجر ورفع الصبح لثامه فنهضت الجموع من اماكنها تستجيب الى كلمة « الله اكبر » • واذا دوت هذه الكلمة في أرجاء هذا المسجد المهيب رقت القلوب بالايمان وخشعت الاصوات فلا تسمع الا همسا فيه حمد وثناء وتسبيح واستغفار •

وقرأ الامام في صوته الرقيق الحنون وترتيله السامي في هذا الصباح الاول من وصولي الى مدينة الرسول « سورة الطارق » حتى اذا وصل الى قوله تعالى : « والسماء ذات الرجع والارض ذات الصدع انه لقول فصل وما هو بالهزل » • تمشت في مفاصلي رعدة الجلال وشعرت كأني لم اسمع بهذه الآية الا في هذه اللحظة رغم تلاوتي للقرآن الكريم دون انقطاع من سن الطفولة الى يومنا هذا وايقنت ان قوة الاسلام تكمن في قوة العزم والارادة وان محمدا (ص) ربى رجاله على هذه القوة • فقد اقسم بالسماء بافلاكها وابراجها وشموسها واقمارها واجواز فضائها التي تسبح فيها نجومها وبالارض التي تشقق وتتصدع فتنبت الزرع وتحيى الضرع ويعيش عليها الكائن الحى من اصغر نامة الى اكبر نسمة •

أجل أقسم محمد أن هذا القرآن قول في جد لا يعرف الهزل وان الاسلام لابد ان يثبت وينتصر • كأنه يقول اقسم بعظمة الكائنات انني حامل رسالة السماء لا انطق عن الهوى انني اريد ان اخلق امة تنشر السلام والاخاء على الارض فلا انثني ولو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري وملكوني كنوز الارض والسماء • وانه لقسم لو تعلمون عظيم •

وعندى ان هذه الآية البليغة الصادقة تمكنت من نفوس مشركي قريش بل من العرب اجمع فردت صوابهم اليهم واكدت لهم ان الامر جد « وانه لابد مما ليس منه بد » فاستجابوا لها • ولا يجيب البليغ الا البلغاء والبيان مفخرة العرب وموضع تكاثرهم وتفاخرهم ومعجزة القرآن في فصاحته وبيانه •

فاذا قضيت الصلاة انتشر المسلمون في ارجاء المدينة هذه البلدة الطيبة • هواؤها عليل وماؤها عذب نمير ، تأتيها الثمرات من كل مكان وتفد اليها الوفود من ارجاء العالم يعبدون الله في جوار نبيه ويشترون ويبيعون • شوارع رحبة نظيفة منسقة ونظام للمرور مريح وحرية واسعة ، طعامها رخيص • لا احتكار ولا استغلال رغم الزحام وتباين العادات والاخلاق بين الوافدين • فلقد وحد الاسلام فيهم روح التواضع والتسامح وزاد في ذلك الطاعة لاولي الامر وارشاد رجال الامن والشرطة وحرصهم وسهرهم •

وتنتشر في ضواحيها حدائق فيها نخيل باسقة واشجار من العنب والرمان في خضرة زاهية تسقيها عيون ثرة وفي ضاحية المدينة بحيرة صغيرة كونتها مياه الامطار المنحدرة من الجبال كانت قبلا تسيل بالوديان والاباطح وتذهب هباء وقد تنبهت لها الحكومة فجعلت لها سدا ذا ابواب تفتح وتغلق شأن كل باب في السدود فاستطاعت ان تقف هذه المياه في هذا المنبطح الواسع فتكونت بحيرة جميلة عذبة يضخ منها الماء الى مرتفع عال ويصفى فاذا به عذب سائغ شرابه يسر الشاربين •

ومثلما تنتشر في ضواحيها البساتين تكثر المساجد قديمها وحديثها ومن

اقدم هذه المساجد مسجد قباء أول مسجد أسس على التقوى بعد الامن والاطمئنان بعد الخوف والهجرة أسس في ضاحية قباء فسمي باسمها واتخذ مكانه في التاريخ الاسلامي لسابقته الاولى في انتشار العقيدة المحمدية ولانه اول محط حطت به راحلة النبي من مكة •

صليت فيه ركعتين شكرا لله تعالى على ما انعم به علي في لحظة من لحظات الحياة ان اقف في هذا المكان الخالد في سجل التاريخ أتذكر مواقف النبى ومواضع ركوعه وسجوده واتخيل حركاته وسكناته • انه مسجد صغير ذو رواق ممتد قصير ومحراب لا تجد فيه زخرفة ولا نقشا ولا التواء واضح كوضوح الشريعة الاسلامية الغراء لا تختلف عنه المساجد السبعة الاخرى في المدينة •

رأيت الناس يدخلون فيه أفواجا ويخرجون افواجا رأيت شيبا وشبانا والوانا من النساء والرجال كأنهم يستوحون الذكريات مثلما استوحيها أو انهم يجدون في هذه الزيارة متعة الايمان انهم يريدون أن يروا أول مكان دخل فيه الاسلام قوياً آمنا مطمئنا عزيزا ليأخذوا العبرة في المصير والمثابرة عند اشتداد المحن وليستطيعوا أن يحلو عقد الشدائد بالعزم والارادة • ان عبر التاريخ كثيرة ودروسه هى التى تجدد الحياة وتغير معالمها والقدوات في التاريخ عند الامم من اجل الينابيع التي تخلق الاجيال وتصنع الرجال وفي القدوة بقوة ارادة محمد (ص) وتضحيته اندفاع قوى للشباب العربي المسلم الذى يريد أن يجدد نشاط الحياة العربية الاسلامية ويصونها من الانهيار •

ان في سيرة محمد (ص) والقرآن الكريم عصمة قوية تعصم العقيدة المحمدية من الفناء وانني واثق أنها لن تفنى وستتغلب على منافذ الضعف فتسدها لانها لا ترضى بالذلة والهوان ولانها تسمو بالنفوس عن التمرغ على أقدام الاصنام والاوثان وغيرها من صنع يد الانسان الى المثل الاعلى حيث الكمال الانساني في صلته بخالق الاكوان •

وفي المدينة قصور عالية طبقات بعضها فوق بعض وفيها فنادق جميلة

يجد الزائر فيها برد الراحة ويتسابق الناس في التطاول بالبنيان وتنتشر في أرجائها عمارات لا تزال تنتظر تمام البناء ليقيم بها حجاج العام المقبل • وتخترقها شوارع واسعة مبلطة اوجدتها جهود المسؤولين وفي اسواقها المترعة بالبضائع والحلي يزدحم البائعون والمشترون والمتنزهون الذين يمشون وينظرون وكثير من الباعة اصحاب الحوانيت لا ينتمون الى قريش ولا يعرفون الاوس والخزرج وانما هم من وراء البحار والجبال من الهند من جاوا وفارس وتركستان او من العرب الذين سافر اجدادهم الفوارس البلغاء المتفقهون في الدين لنشر العقيدة زمن الفتح الى الشام والبلاد الاخرى ثم عاد هؤلاء احفاد الاحفاد تجارا يبيعون ويشترون ويتفاهمون في لهجات فيها رطانة بعيدة عن الفصاحة ومن اهل البلاد الذين أفسدت لغتهم اختلاطات العجمة كما حدث في سائر البلاد العربية فلم تعد لهم صلة بتلك الاندية الحافلة بفصحاء قريش وبلغاء الانصار ولم يعد المرء يسمع قولا بليغا مثل قول خارجة عندما قدم النبي الى المدينة « عندنا يارسول الله في العدد والعدة والمنعة » ولا يسمع قول سعد بن معاذ سيد الاوس في نخوته بين يدي رسول الله عندما عزم على مقابلة قريش في موقعة بدر بهذه البلاغة الواضحة والبيان المشرق والارادة الصادقة والتأييد المطلق •

« قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة • ولعلك يا رسول الله تخشى ان تكون الانصار ترى عليها الا ينصروك الا في ديارهم وهأنذا اقول عنهم واجيب فاضعن حيث شئت وصل حبل من شئت وعاد من شئت وخذ من الاموال ما شئت وما اخذت منا كان احب الينا مما تركت ، فامض يا رسول الله لما اردت فنحن معك والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره ان تلقى بنا عدونا وانا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك » • أجل انك لا تسمع هذه البلاغة لان العرب تركوا تراثهم ومالت بهم الحياة عن العلم منذ ان تركوا سنن الرسول وماثر قادة العرب

الفاتحين وفقهائهم المشرعين وفي الافق أمل مشرق ان تعود للمدينة نهضتها بجامعتها التي يتطاول بنيانها في الافق ولعلها تشرق بالبيان العربي وتسمو بفقه القرآن وتعود كما كانت مصدر التشريع والهداية والرجولة .

وفي ليلة مباركة صافية الاديم طيبة الهواء وفي ساعة متأخرة من الليل حين فرغ المسجد من المصلين العابدين وحين أوى فريق من الحجاج الى منواهم وانتشر فريق آخر حول المسجد يتوسدون امتعتهم على بسط خفيفة ومن حولهم الباعة المتجولون قد لموا بضاعتهم وطووا عليها اغطيتها فمنهم من توسدها ومنهم من تركها ليد الامن وفي هذه الساعة المتأخرة اذن لي ولرهط من المؤمنين اخوتي ان ندخل المسجد ونقف في رحاب العبقرية والجلال وقد استقبلنا فيه رجل ذو شيبة وهيبة ومن حوله رجال أشداء هم البقية الباقية من عمومة بلال الحبشي أول رجل ارتفع صوته بأجل كلمة عند المسلمين كلمة « الله اكبر » وبأعظم نداء هو نداء الاذان لاقامة الصلاة واجتماع كلمة المسلمين وتوحيد صفهم . هؤلاء الرجال الاشداء الذين هم على الاكثر من عشيرة بلال أو من احفاد احفاده اعتادوا ان يحرسوا ضريح النبي ويخدموه والذين هم في مكانتهم مثل رائع في حضارة العرب والاسلام وصوت صارخ في وجه حضارة الغرب التي تؤمن بالتمييز العنصرى بل صوت مدوٍ يعلن ان الاسلام لا يعرف ابيض ولا اسود وان الذي يحرسه هؤلاء اثمن ذخيرة في وجود العرب والمسلمين وان حراستهم ما هى الا الوفاء والاعتراف بهذا الفضل الكبير لهذا العبقرى العظيم الذى ساواهم مع اخوانهم المؤمنين ووضعهم في المحل الارفع . فلما وقفنا في جانب الضريح بانت لنا ثلاث فتحات دائرية الشكل . فقال الرجل : ها هو ذا ضريح المصطفى ، وها هو ذا ضريح صاحبه أبى بكر الصديق وها هو ذا ضريح صاحبه عمر بن الخطاب . اجل هذه هى مدرسة العبقرية تجتمع في هذا المحل الجليل وها هو ذا صانع الرجال محمد وها هماذان ابو بكر وعمر تلميذان تخرجا في مدرسته وتكوينه وهاهم هؤلاء الثلاثة يوحون للواقف امامهم بالهيبة والجلال ويملأون سمعه وبصره وفؤاده بالحقيقة الواضحة

تلك هي : ان الوحدة في العقيدة الصافية والايمان الصادق والتضحية والفناء في الله وانكار الذات لانقاذ العالم من الشر والفساد وايجاد مجتمع فاضل ، كل اولئك هي القواعد التي رسخ عليها بناء الاسلام الشامخ ومجد هذه الامة وما اروع الفضيلة انها تسبغ على المرء الهيبة والجلال • لقد ملأ هذا الموقف جوانحي فتلوت الآية الكريمة : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » •

وايقنت ان روح محمد ترف حول جسده الكريم الثاوى في هـذا المكان الجليل وتشرف على العالم لاتزال تهذب وتعلم وتوحي بالقوة والعزم والحفاظ على شخصية المسلم والاسلام ما أروع تعاليم محمد واجلها ، لقد حرص ان تكون للمسلم شخصية مستقلة وان لا يكون تبعا لغيره لان التبع لا يأتي بشيء فتلا على أمته الآية الكريمة المنزلة « ولا تأمنوا الا لمن تبع دينكم » وتلا قوله تعالى : « الذين يتخذون الكافرين من دون المؤمنـين ايبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا » • وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق » • وقوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين » انه لا يريد بذلك الا عصمة شخصية الاسـلام وشخصية المسلم من الفناء في غيرها •

ولا يريد بذلك الا التحذير والانذار لامته خوف أن تتكالب عليهـا الامم تكالبها على قصعة الثريد ، وقد حدث ما وقع عندما ضعفت شخصية المسلم فانفلت المستعمرون الى المسلمين من ثغور الضعف يستغلون بلادهم ويستثمرون خيراتهم • لقد اراد محمد أن يقول لامته انني اخاف عليكم ان تضعف شخصيتكم فتنحدر اليكم آراء وافدة ليست من دينكم ولا من تقاليد العرب ومبادىء في نواجذها الشر وفي انيابها العطب تتسرب الـيكم خرافات الامم من قبلكم ووثنياتهم فتعبدون الاصنام من بعدى • ولا شخصية لمن يتمرغ على اقدام الاصنام ولا شخصية لمن تستولى عليه الخرافات ومن يفقد شخصيته فهو عبد ذليل • والذليل لا يبدع • ولقد جئتكم مبدعا منشئا

وعلمتكم سبل الابداع •

ما اجلك حين اوصيت القوم « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم وجوه بعض » كأنك تشير الينا بان لا تتفرق احزابا سيئة يضرب بعضنا بعضا فينفذ العدو الينا من ثغور الضعف •

ان روحك السامية لا تزال تهز الشباب العربي المسلم في كل لفظة من اقوالك الصادقة وفي كل سورة من آيات كتاب الله المنزل عليك وتوحي اليهم أن عليهم واجب اداء الرسالة حق ادائها وان عليهم ان يجددوا شباب العالم ويبعثوا فيه السعادة وان في دين محمد ينبوعا غزيرا لا ينضب في تكوين الامم وتطويرها انك ثاو بين صاحبين من الصحابة الاجلاء الذين عمروا الدنيا بمبادئك وخلقك العظيم وعلموا الناس كيف تكون الصحبة وكيف يكون التهذيب وكيف تكون التضحية • ما اجلك واعظمك حين اشتد عليك المرض ففزع المسلمون وخافوا عليك واضطربوا فخرجت اليهم وجلست على منبرك هذا الذى اراه أمام عيني فخطبتهم وقلت :

أيها المسلمون :

بلغنى انكم تخافون من موت نبيكم •
ان كل الانبياء السابقين ماتوا وانا مثلهم •
أوصيكم بالمهاجرين الاولين خيرا •
واوصى المهاجرين فيما بينهم
واوصيكم بالانصار خيرا •
احسنوا الى من احسن من الانصار وسامحوا من اساء •
ما اروع الوفاء وما اجل الحلم •

وفاء فيه ذكرى جهاد المهاجرين الاولين معك وصحبتهم لك وفيه اعتراف بفضل الانصار وكفى بهذه الكلمة ثمنا عظيما • انهم الانصار الذين نصروك على الحق ووقفوا دونك يردون عنك العوادى وساروا معك الى حيث تشاء واعطوك من اموالهم ما تشاء ما أروع خطبتك هذه •

فيها اخاء بين المهاجرين فيها ثواب المحسن والعفو العام الشامل عن المسيء •

تلك هي كلماتك لا تزال ترن في اذن الدهر تعلم الناس مكارم الاخلاق ومعنى النبوة والمثل الاعلى الكامل • وحين ألح عليك المرض فلم تستطع أن تقف على المنبر وصليت في صلاة الصبح عن يمين أبى بكر وهو يصلي بالمؤمنين فلما انتهت الصلاة قلت للناس ايها المسلمون :

اني والله لم احل الا ما احل القرآن

ولم احرم الا ما حرم القرآن

ايها المسلمون :

من ضربت ظهره فهذا ظهري فليضربني

ومن شتمته فليشتمني

ومن اخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منه •

فقام رجل من المسلمين وقال : يارسول الله : لي ثلاثة دراهم عندك • فاعطيته ما طلب •

لقد وجهت الناس في كلامك هذا الى منبع شريعتك الى القرآن الذى وضع حدا بين الحلال والحرام وفي هذا التحديد عنوان الحضارة والعدالة ، ومتى ما تمت معرفة الحلال من الحرام ومتى ما حافظت الدول على احترام هذا الحد نعمت اممهم بالسعادة والرفاه وساد فيها الاستقرار والامن • غمضت عين محمد يوم الاثنين في الثاني عشر من ربيع الاول من السنة الحادية عشرة من الهجرة وفي اليوم الثامن من حزيران من السنة الثانية والثلاثين بعد ستمئة من ميلاد المسيح على اصح الاقوال وتليت على وجهه الكريم آية : « انك ميت وانهم ميتون » •

ذهل المسلمون لهذا النبأ العظيم وعجبوا أن تكون هذه القوة الإلهية تختفى من الوجود •

أجل لقد اختفى جسد محمد (ص) وخلدت روحه في الرفيق الاعلى ولا تزال تشرق والقرآن الكريم ينطق بما تريد وبقي المسلمون على

ذهولهم لا يصدقون ولا يدرون ما يقولون حتى دخل على النبي صاحبه في الغار وصاحبه في الهجرة وضجيعه في الضريح بعزم ثابت وارادة صامدة معتزة بروح من عند الله فكشف عن وجهه الغطاء وقبله وقال : « افديك يارسول الله بابي وامي طبت حيا وطبت ميتا » •

واقبل على الناس وصعد المنبر فقال :

أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت •

وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افـان مات او قتـل انقلبتم على اعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين •

فلما سمعها المسلمون ادركوا ان الامر جد وعرفوا الحقيقة وثبت في نفوسهم ان الله متمم نوره وان الاسلام سيخلد وان الفناء طبيعة الكائن •

هكذا مرت بي حوادث التاريخ في هذه الوقفة المباركة ثم التفت الى الدائرة الاخرى حيث الضجيع الاول •

الضَّجيعُ الأَوّل

والتفت الى الضجيع الثاوى في جوار كتف محمد (ص) الى : ابى بكر فتمثل لي بوجهه الابيض المعروق وجبهته الطالعة وعينيه الغائرتين وانفه الاقنى وقامته الطويلة النحيلة واجتمعت هذه الصفات بمخيلتي فاذا بها هى التى اسبغت على روحه صحة العزم وقوة الارادة وهدوء الطبع ولين العريكة وشفقة الاباء فكان الوزير الاول والرائد الثاني .

لقد أسلم ابو بكر وهو في نضج الرجولة عارفا بأحوال قريش ضليعا بانسابها محبوبا بين بطونها وقبائلها لطيف المجلس عذب الحديث سهل الطبع امينا يثق به قومه .

والثقة اذا توفرت في المرء كانت عنوان اكباره واجلاله فالتف حوله قادة الرأى والعزم من شباب قريش فأسلم على يده عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيدالله فكانوا جماعة مباركة قويت بهم شوكة الاسلام دلف هذا الرهط القومى

الى محمد بن عبدالله والتفوا حوله فصلى بهم وقال : (ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت عنده كبوة ونظر وتردد الا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ما عكم عنه حين ذكرته له وما ردد فيه) • وتلكم هى صفات الشجاع والشجاعة من المثل العليا ، ومن يصطحب المثل العليا يجد النجاح يمشي في ركابه وهكذا مشى النجاح في ركاب ابى بكر فهو الوزير الصديق وهو الاخ العتيق وهو الصاحب الرقيق القلب الذى دمعت عيناه حين جاء اليه النبي فقال له : (أمرنى ربى بالهجرة) فقال الصحبة ، الصحبة يا رسول الله فقال له النبى : الصحبة • فتهلل وجهه بالبشر ودمعت عيناه دموع الفرح فكان (ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا) •

ما أمضى قوة الارادة اذا التقت بمثلها فاجتمعتا على الحق انها تركب الهول وتعصى وساوس شياطين الانس والجن ولا تنظر الا الى العدو كيف ترهبه والى الصعب كيف تلينه والى طريق الحق كيف تركبه •

كانت دعوة الاسلام في خطر ولابد من اتقائه ولا يمكن اتقاؤه الا بالهجرة لتكون في منعة من ايدى الاعداء • وهكذا ركب محمد (ص) طريق الحق مع صاحبه وسارا يقطعان على راحلتيهما السهول والوديان والتلال في الليل والنهار على طريق أمعز لا يشبه هذا الطريق الواسع اللاحب المنبسط ولا تستطيع الابل في ذلك الوقت أن تغذ السير مثلما تنهب السيارة صدر الارض وتطوى السهول والوديان وتمر مر السحاب •

استقر المقام بهما في هذا المكان الذى يثويان فيه ولزم كل منهما صاحبه ، كان أبو بكر صاحب محمد وكان محمد رسول السماء ومنشىء أمة ومعلم جيل وكانت دروس محمد تبني شخصية أبى بكر فيزداد سموا في اعين القوم وترتفع مكانته في مجلس النبى صعدا حتى سمي وزير محمد وهو أول لقب اعطي في صدر الاسلام وفي دروس محمد اجتمعت لابي بكر قوة الارادة ومضاء العزم ولين العريكة وصلابة العقيدة والتواضع والدماثة •

وهي صفات تؤهل الذات لقيادة أمة الى فجر مشرق جديد ومجد طريف •

كانت القيادة لمحمد (ص) وكان محمد ينتظر الوحي وما كان للصحابة غير المشورة والدراسة والطاعة عندما ينضج الرأي وتقول السماء كلمة الفصل •

فلما أغمض النبي (ص) جفنيه واضطرب المسلمون برزت مواهب أبي بكر ونظر الى وجه حبيبه في مكة وصديقه في الغار ورفيقه في الهجرة واستاذه في العقيدة والتشريع والدفاع عن الدعوة فقال : (بأبي أنت وأمي طبت حيا وطبت ميتا) • وخرج على القوم يدعوهم الى الصبر ويحثهم على الثبات ويتلو عليهم آيات الكتاب : (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين) •

ويقول :

(أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت) •

فكانت هذه الخطبة أول ثمرة من ثمرات مدرسة محمد فيها صلابة العقيدة وفيها الايمان بالسماء وفيها الاعتراف بان الكائن الحي والجماد لا تلازمهما في الوجود صفة البقاء وان الباقي الوحيد هو إله السماء الذى لا يعبد أحد سواه وفي هذه الخطبة قوة الشخصية التي صبها محمد في أصحابه ورمى بهم وجه الدهر • وهنا تفتحت عيون القوم على الحقيقة الواضحة ومشى ابو بكر وزمام الامر بيده ثم وقف والتفت الى الناس وقال : (ان أقواكم الضعيف عندي حتى آخذ له بحقه وان اضعفكم عندي القوى حتى آخذ الحق منه • ان احسنت فاعينوني وان أنا زغت فقوموني لا يدع أحد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل) •

كأنَّ أبا بكر كان يريد أن يقول للناس : لقد أصبحنا عرضة لامتحان الزمن فيما أفدنا من رسالة محمد فلنثبت للتاريخ اننا نريد ان نقطع مسافاته

بقوة أرادتنا وصدق ايماننا وان هذه الامة التي أنشأها محمد وسجل عليها أنها خير أمة أخرجت للناس لن ندعها تسقط في الامتحان واننا سندفعها الى مراحل الابداع •

ان ارادة الرجولة التي اوجدها محمد فينا تأبى أن تركن الى الذلة بعد العزة وان الفضائل التي ملأ بها جوانحنا فحلقت بنا الى الاعالي لا ترضى أن تسف الى الارض اننا لا ندع هذه الفضائل تضل في البيداء انها روح هذه الامة وعقلها فاذا تخلينا عنها عدنا الى الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء • ان العرب شرعت تعيد جاهليتها جذعة والله لن أدعها تفعل ذلك (والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة والله لو منعوني عقالا يؤدونها الى رسول الله لقاتلتهم على منعها) •

فاستيقظوا فان مستقبل العرب والاسلام أصبح بأيديكم اجعلوه تهب عليه النسمات ولا تدعوه عرضة للعواصف لقد اختارتكم العناية الإلهية لاداء رسالة الوجود ومنكم سيكون الشعب الذى يحطم قيود العبودية وينشر المساواة بين الناس • انكم تحيطونني بالاجلال والكرامة فان احسنت فاعينوني وان أنا زغت فقوموني • بهذا السمو سار الضجيع الاول سيرة الوالي الحكيم والقائد اليقظ الواثق بنفسه فأنفذ جيش اسامة الى الشام وهو يقول :

(والله لو أني علمت أن السباع تأكلني في هذه المدينة لانفذت جيش اسامة ولن انقض أمرا هيأه الرسول ولن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) • ثم اوصى هذا الجيش بالوصية الخالدة (لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكلة) •

ما أروع هذه المثل العليا في حروب الامم وما أرفع شأن الاسلام في التعمير وما ابعده عن التدمير • انه مثل من أمثلة السماء صبه الله في قلوب هؤلاء الرجال النابتين في الصحراء الساكنين بواد غير ذى زرع ليلقوا على الناس دروس الفضيلة في كرامة الانسان وقيمة الاشياء •

حفظ أبو بكر الاسلام من الردة فركز قاعدة المجد • واعاد الزمام

الى يده وأنفذ جيش اسامة فعاد منتصرا في غزوة قضاعة وظهرت قوة الاسلام •

وبعث خالد بن الوليد الى العراق فانضم الى المثنى فكان النصر حليفهما في المواقع كلها ووجه جيوشا اربعة الى الشام فاجتمعت في اليرموك ووحد قيادتها وتعبئتها خالد بعد الاستنجاد به ومجيئه من العراق ووقعت موقعة اليرموك فانتصرت جيوش العرب على الروم وفي انتصار اليرموك جاء نعي أبى بكر فاهتز العالم العربى لوفاته وسمع أبوه الشيخ الكبير أبو قحافة فقال (رزء جليل) •

نعم أنه رزء جليل لصحبة جليلة وقدر رفيع ان تكون الصحبة حيا وميتا وثوى الضجيع الاول بجانب صاحب الرسالة العظيم •

الضَجيعُ الثانى

والضجيع الثاني ثالث اثنين في هذه الروضة المثقلة بالمجد والسؤدد يرقد عند حقوي الضجيع الاول مر بخيالي شخصه العظيم فتمثل لي بقامته الفارعة ورأسه الاصلع ووجهه المشرق بالحمرة وانفه الاقنى ولحيته الكثة تمثل لي في رجولته وقوة بأسه وشدة عزمه في رحمته وعطفه وبره بقومه ومر بخاطرى ما حدثنا به التاريخ عند مشرق الدعوة الاسلامية كيف كان عمر قاسيا شديد البأس يجد في دعوة الاسلام خروجا على تقاليد قريش وعاداتها وجحودا لدين آبائها وعبادة آلهتها وكيف توشح سيفه يريد أن يخلص العرب من هذا الذي فرق قريشا وسب آلهتها هذا الجبار المعارض الذى كان لا يخشى أحدا من صناديد قريش ثم تمثل لي مطرق الرأس خاشع البصر حين سمع صوت القرآن في بيت أخته يجلجل بالتوحيد ويدعو الجباه الذليلة المتعفرة على أقدام الاصنام أن ترتفع بالعزة الى صفحة السماء لتعبد إلها واحدا لا إله غيره .

ان العقول الجبارة تقدح فيها الفكرة الصائبة عند اصطراع الرأي اسرع مما تنقدح الشرارة في الزناد الواري وفي هذا الانقداح تفصح عندها الحقيقة وتلمع الفضيلة ، وهكذا كان شأن عمر بان له نور الاسلام يسطع في أرجاء مكة لينير العالم وتبينت له وحدة العرب التي كان يخاف عليها قوة هائلة تحرس هذه الدعوة التي سينبعث عنها عالم جديد في هذا الوجود • فدلف ورعدة الرهبة تسري في جوانحه يريد محمدا واصحاب محمد حتى اذا وصل الى دار الارقم المجتمع الخفي الذى كان يجلس فيه المؤمنـون بينهم حمزة وأبو بكر وعلي وبلال • فلما قرع عمر الباب جاء صـوت بلال يسأل ، فأجابه : أنا ابن الخطاب فرجع الى رسول الله يقول • (ان ابن الخطاب بالباب واننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى أن فتحنا له) فقال رسول الله ادخله فان اراد خيرا بذلناه له • وقال حمزة وان أراد شرا لقي ما هو أشر منه وذهب بلال يفتح الباب لعمر • فلما وقف عمر امام رسول الله قال له : فيم جئت يا ابن الخطاب ؟ قال جئت أشهد بين يديك : ان لا اله الا الله وانك رسول الله • فما كاد عمر يعلن اسلامه حتى اهتزت جوانب الدار بصيحة واحدة : الله اكبر • الله أكبر الله أكبر •

مشهد رائع اصطرعت فيه قوتان قوة الارض وقوة السماء قوة الارض متمثلة في لمامة من العقائد أوجدها عقل الانسان لم تبعد عن صنم منحوت من صخر واسطورة مفتعلة • وقوة السماء يدعو لها وحي مبين منزل وقول فصل لايجاد أمة كريمة تحمل معاني المروءة الكاملة والشخصية المتميزة في الوجود لتبدع وتنشيء وكانت هذه الشخصية تملأ قلوب المؤمنين قـوة وتزيدهم اعتزازا على قلة وهي صفات تلائم شخصية عمر وتوافق طبيعته وتكوينه فأسرع اليها بنفسه دون أن يأخذ بيده احد فلما دخل الايمان في قلبه وجد مهاده وعزه •

التفت عمر الى رسول الله فقال : يا رسول الله السنا على الحق ان متنا أو حيينا ؟ قال محمد : بلى ، والذى نفسي بيده انكم على الحق ان متم وان حييتم • قال ففيم الاختفاء يا رسول الله ؟ فقال لاننا لا نزال قلـة

واعداؤنا كثيرون . قال عمر : والله لا يعبد الله سرا بعد اليوم . والذى بعثك بالحق ما بقي مجلس كنت أجلس فيه بالكفر الا اظهرت فيه الاسلام . فكان هذا اليوم بدء شروق الاسلام وبدء الاعلان جهرا وفي هذا اليـــوم شرع عمر يدعو الى دين محمد بمثل القوة التى كان يعارض بها الاسلام وينهى عنه وفي هذا اليوم خلع محمد على عمر لقب الفاروق اذ فرق الله به بين الحق والباطل .

عجيب أمر هــذا الوادى الــذى لا ينبت الــزرع كيف انبت هؤلاء العباقرة وكيف كان يصنع الرجال ويصوغ النفــوس السامية التي تتجلى لها عظمة مبدع الكون لقد اثبت محمد ان بين رجاله وبين الله عروة لا انفصام لها لقد نشأهم على العزة والطاعة . أطاعوا الله فعزوا ووهبوا امتهم حكم العالم والخلود وهبوها التشريع والادب الرفيع وهبوها الحياة بكــل معانيها اولئكم هم صانعو مجد الاسلام ومهذبو تراث العرب هؤلاء هم المثل العليا وهم السر الخفى الذى يهمس في اذان فتيان العرب أن الجزيــرة العربية ولود تلد العباقرة تلد القادة ففتشوا عن قادتكم بين احيائكم ومجامعكم فانكم واجدوهم واياكم وتقليد من لا يمت الى العروبة والاسلام بشيء . مشى ابن الخطاب في صحبة رسول الله قوى الجانب صادق الرأى ليس له من الامر شيء الا مشورة تطلب منه عند احتدام النقاش وهو طوال حياة محمد يستمع القول ويتفهم الدرس ويترسم افعال الرسول ويحفظ اقواله .

آمن فخاف الله وتحول جبروته في الجاهلية الى قوة مبدعة في الاسلام فهو قوى على الباطل حتى يدمغه وهو قوى في الحق حتى يستخرجه وهو القائد الذى لا ينام حتى يرى النصر بعينه وهو الراعى الذى لا يجلس حتى يطمئن على راحة رعيته . وكان أبرز ما في خصائصه الحزم وكانت شدته تنمو كلما اشتد ابناء هذه الصحراء قوة وبأسا كان يريد ان ينشيء أمة تستقر لتبدع وتشرع وكان يقول : (انما مثل العرب مثل جمل انف اتبع قائده فلينظر قائده حيث يقوده فأما أنا فورب الكعبة لاحملنهم على الطريق) . وهذا منتهى الثقة بالنفس ومنتهى الحزم في تكوين الامم .

لقد اجتمع لعمر اللين والرحمة مع الشدة والقسوة وكان العدل ميزانـا بين اللين والشدة وبين الرحمة والقسوة وكانت ارادة عمر المبدعة هي التي تضع الامور في نصابها • وهي موهبة لا تكمن الا في صدور العباقرة •

بهذه المثل العليا حمل عمر أمة العرب على الطريق فسار النصر في مواكبها طوال حكمه ومشى المجد في ركابها طوال حياته • ولماذا ؟ ألم يكن عمر بشرا كأمثاله من بني البشر ؟ بلى ! انه لكذلك بيـد انه تخرج في مدرسة محمد صانعة الرجال وكان أبرز ما في هذه الصنعة هو التغلب على الذات ، لقد تغلب عمر على ذاته وغلبها على أمرها فانطلقت من القيـود وعرفت سر وجود الامة العربية في شعار (اطلب الموت توهب لك الحياة) وهو شعار فيه انكار الذات والتضـحية في الوقت وفي المسـرات والملذات والاتجاه الى الابداع في اندماج وصبر من أجل الانسانية •

ولولا ذلك ما قال عمر في خطبة له : (انى قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم واقواكم عليكم وأشدكم استضلاعا بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم) كان عمر واثقا من نفسه في السيادة لان ارادة القوة كامنة بين جوانحه وانكار الذات يحتل سويداء قلبه وفي ارادة القوة وانكار الذات يبرز السؤدد •

ساس عمر الدولة وحمل العرب على الطريق واختار العمال ليسوسوا البلاد ويكرموا العباد وكان كثير التوفيق في اختياره وايما عامل لا يمشى على طريق عمر لا يجد له مكانا في الدولة كان يبعثهم الى الاقطار ويشيعهم ويقول لهم :ـ انى لم استعملكم على امة محمد ـص ـ على اشعارهم ولا على ابشارهم انما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل • وكان يقول : (اربع من اصل الاسلام لسـت مضيعهن ولا تاركهن لشيء ابدا : القوة في مال الله وجمعه حتى اذا جمعناه وضعناه حيث امرَ الله وقعدنا آل عمر ليس في ايدينا ولا عندنا منه شيء • والمهاجرون الذين تحت ظلال السيوف ألا يحبسوا ولا يحجروا وان يوفر فيء الله عليهم وعلى عيالاتهم واكون انا للعيال حتى يقدموا ، والانصـار

الذين اعطوا الله عز وجل نصيبا وقاتلوا الناس كافة ان يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وان يشاوروا في الامر • والاعراب الذين هم اصل العرب ومادة الاسلام ان يؤخذ من صدقتهم على وجهها ولا يؤخذ منهم دينار ولا درهم وان يرد على فقرائهم ومساكينهم •

يرى عمر ان العرب مادة الاسلام ويرى فيهم القوة التي تحفظ العقيدة من الاندثار ويجد في عزهم عز الاسلام • وهو ابو عيال المهاجرين الذين يمشون تحت ظلال السيوف ينشرون عقيدة الاسلام ويحررون الناس من العبودية ويخرجونهم من الوثنية الى العزة والايمان لا يمنعهم ولا يؤخرهم يشرف على اطفالهم وعيالاتهم ويجزل لهم العطاء فلا يجعل لهم هما غير ما يهتمون به في نشر عقيدة السماء • فرض عمر للناس العطاء من بيت المال وكتب الدواوين فبدأ بقرابة رسول الله ثم الاقرب فالاقرب ووضع آل الخطاب حيث وضعهم الله وهو يقول :ـ ان العرب شرفت بمحمد والله لئن جاءت الاعاجم بالاعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة فلا ينظر رجل الى قرابة وليعمل لما عند الله فان من قصر به عمله لم يسرع به نسبه وكان يحمل الديوان بيده فاذا نزل خزاعة دعا اسرها اسرة اسرة فلا يغيب عنه امرأة بكر ولا ثيب فيعطيهن في ايديهن وينزل عسفان فيفعل مثل ذلك ويقول :ـ والله ما من احد الا له في هذا المال حق اعطيه او منعه وما احد احق به من احد الا عبد مملوك وما انا فيه الا كأحدهم ولكنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله • والرجل وبلاؤه في الاسلام والرجل وقدمه في الاسلام والرجل وغناؤه في الاسلام والرجل وحاجته والله ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه •

وقال :ـ لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الاغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين •

وكان يقول لئن عشت ان شاء الله لاسيرن في الرعية حولا فانى اعلم ان حوائج تقطع دونى اما عمالهم فلا يرفعونها الي واما هم فلا يصلون الي فأسير الى الشام فاقيم بها شهرين ثم اسير الى الجزيرة فاقيم بها شهرين ثم

اسير الى مصر فاقيم بها شهرين ثم اسير الى البحرين فاقيم بها شهرين ثم اسير الى الكوفة فاقيم بها شهرين فالبصرة والكوفة والبحرين والجـزيرة ومصر والشام موطن العروبة ومادة الاسلام وكان يطوف بالاسواق يقـرأ القرآن ويقضي بين الناس حيث ادركه الخصوم •

سأل عمر احد صحابة رسول الله : (املك انا ام خليفة ؟) فقال له ان انت جبيت من ارض المسلمين درهما او اقل او اكثر ثم وضعته في غير حقه فانت ملك غير خليفة فاستعبر •

ما اروع هذا السؤال ؟ ان عمر يريد ان يقف على رأى الناس فيه ، هل استطاع ان يؤدي امانة التخرج في مدرسة محمد وهل سار على سيرته وخلفه في امته في حق الخلافة •؟

اجل ! لقد ادى الامانة ولكنه تواضع في سمو ، واعتزاز في رقـة ورأفة •

حكم عمر فتدفق ابداعه تدفق الجداول في الارض لينبت الزرع ويدر الضرع وانتشر عدله يظلل الناس كمثل الغمامة في يوم الربيع •

واتجه الى العراق فعبأ له جيشا لجبا وولى قيادته سعد ابن ابى وقاص وقال له قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي فانك تقدم على امر شديد كريه لا يخلص منه الا الحق فعود نفسك ومن معك الخير واستفتح به واعلم ان لكل عادة عتادا فعتاد الخير الصبر فالصبر الصبر على ما اصابك او انابك •

وسار هذا القائد المحنك والنصر يسير في ركابه ويظلل عساكره ظل الله في الخشية والرهبة والايمان حتى اذا فتح الله عليه وقف وصلى ركعتين فوق منبسط المدائن وتلا قوله تعالى : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين واورثناها قوما آخرين » •

فلما انبسط امامهم هذا السواد الخصب في رافديه الهادرين واستحلب افواههم هذا النعيم المقيم دلفوا الى عمر يريدون تقسيم الارض بينهم لانهم

الفاتحون الغالبون فهاله الامر لاول وهلة ودعا اصحاب رسول الله للشورى فانقسم الجمع فريقين فريق مع عمر وفيهم علي ابن ابى طالب يأبى توزيع الارض ويريد أن تبقى بيد اهلها فهم الخبيرون وهم المتدربون العارفون كيف يبذر البذر وتسقى الارض وينمو الزرع اما الفاتحون فهم أخبر بشؤون الحرب على ظهور الخيل وتحت ظلال السيوف ينشرون العقيدة ويحمون الثغور فتغلب هذا الرأى وبقيت الارض بيد اهلها وأمر عمر فمسحت ارض العراق فكانت اثنين وثلاثين ألف ألف جريب ووضع على كل جريب درهما وعلى كل نخلة خمسة دراهم وعلى كل كرمة خمسة عشر درهما فامتلأ بيت المال بهذه الثروة الهائلة والخراج العادل •

ما تخرج عمر في احضان الجامعات ولا بحث في نظريات الاقتصاد ولا علم فقه الرومان انما تخرج في مدرسة محمد (ص) فحكم فعدل وعبأ الجيوش وفتح الفتوح واختط المدن : اختط البصرة والكوفة وجبلة وتوج والفسطاط وغيرها ووضع التأريخ وكتب ديوان الأسرة وديوان الجيش وجبى الاموال ووزع الثروة توزيعا عادلا ورفع شأن الاسرة • ما استذل احدا ولا صادر مالا ولا أمم مشروعا ، جعل الفرد يعمل والاسرة تعمل واعز كرامة الاثنين وجعل بيت المال للمسلمين دون أن يحدث طبقية مفتعلة ودون أن يحكم طبقة في رقاب طبقة اخرى • وضع نظام الخراج كما تعلمه من القرآن وقضى بين الخصوم بشريعة الله ورفع اسم القضاء وجعله مستقلا وقال في رسالته الى ابى موسى الاشعرى • « ان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا ادلى اليك فانه لا ينفع تكلُّمٌ بحق لا نفاذ له آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك • البينة على من ادعى واليمين على من انكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا • لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ان ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى في الباطل • الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف

الاشباه والامثال فقس الامور عند ذلك واعمد الى اقربها الى الله واشبهها بالحق •

حكم فعدل : سمّ حكمه ما شئت سمه عدلا فحسب ، أو سمه اجتماعيا او اشتراكية في اصطلاحك الحديث سمه ما شئت فانه حكم فيه عز العرب ومجد الاسلام ومثل من أمثلة العبقرية التى ولدت في الجزيرة •

ملأ عمر فم الزمان عزا ومجدا وملأ صحائف التاريخ بالابداع والتكوين وكاد تاريخ العرب يمشى على طريق سوي لولا مؤامرة يهودية مجوسية اطفأت هذه العبقرية الجبارة وثوى عمر في روضة يقيم بها صاحب المجد الاول ثوى الى جانب الصديق وفي رحاب محمد •


البقيع

وعلى بضع مئات من الامتار من مسجد الرسول يقع البقيع هذا الموصع الذي يضم رفات جماعات ملأت أعمالهم صحائف التاريخ وشغلوا العالم فلما وافيناه الفينا عليه بابا مقفلا يزدحم الناس حوله فلما اذن لنا الحارس دخلنا وخلفنا وراءنا النساء اذ لم يسمح لهن ، فلما توسطته رأيت منبسطا فسيحا تدور حول بعض قيعانه حواجز من الاسمنت يمشي عليها الزائرون كيلا يدوسوا القبور الدوارس فوقفنا ووقفت جموع كثيرة في اماكن متعددة • ولكل جمع دليل او مطوف كما يقولون يدل الناس على من تحت الارض ويقرأ كلاما محفوظا مكرورا والناس يرددون معه ادعية فيها السلام وفيها الرجاء وفيها المغفرة يتخلل بعضها نشيج وبكاء •

ولم أشأ أن اتابع هذا الدليل في قراءته لكثرة لحنه ووقفت مع اصحابي صامتا وتركت لعيني أن تتلفت يمنة ويسرة وتركت لخيالي ان يجنح وينطلق ليستذكر حوادث الايام وصحائف التاريخ ويستعرض اسماء هذه الشخوص

الثاوية في هذه القبور الدوارس في هذه الروضات من رياض الجنة وشرعنا ننتقل من روضة الى روضة ، فهذه روضة تضم فريقا من آل بيت النبـوة وتلك روضة تضم رفات شهداء احد وهذه تضم بعضا من شهداء بدر الذين جرحوا في المعركة ووافاهم الاجل في المدينة وهذه روضة تضم رفات عثمان ابن عفان الرجل المربوع الاسمر الحسن الوجه ذى الانف الاقنى واللحية الكثة والشعر الوحف تضم صاحب الرسول وثالث الخلفاء الذي دخل الاسلام قبل ان يدخل محمد (ص) دار الارقم والذي هاجر من مكة الى الحبشة مرتين فرارا بدينه من اذى قريش وحفاظا على ايمانه ان يتزعزع ثم هاجر بعد ذلك الى مكة وهو في العزة والثروة الهائلة في المكان الاول بين قومـه وهو الذى صحب محمدا يتلقى دروس الرجولة والتضحية عليه ضم رفات هذا الرجل السخي الذى وسع مسجد الرسول ولم يجد فيه شبرا ينـام عليه وجهز جيش العسرة بالابل والخيل والمال واشترى بئر رومة ليشرب منها المؤمنون هذا الرجل الذى خرج على الناس حين ولي الخلافة والحزن يملأ جوانحه فقال لهم : « ايها الناس انكم في دار قلقة وفي بقية اعمـار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه فلقد أتيتم صبحتم او مسيتم . الا ان الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور .

واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا فانه لا يغفل عنكم . اين ابناء الدنيا واخوانها الذين اثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلا ألم تلفظهم ؟

ارمو بالدنيا حيث رمى الله بها واطلبوا الآخرة فان الله قد ضرب لها مثلا والذى هو خير فقال عز وجل : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا . المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا » .

واقبل الناس يبايعون هذا الشيخ الوسيم الكريم الزاهـد القوى في الحق الشديد على الباطل ، خطب والكآبة تمتلىء بها جوانحه والامانة المثقلة بالواجب ينوء بها كاهله فقد اتسعت رقعة الاسلام وانبسط سلطان

العرب في ارجاء العالم وفتيان قريش الذين حجزهم عمر بن الخطاب في المدينة ومنعهم من الخروج فاصبحوا ينظرون الى الخليفة الجديد نظرة المفرج عنهم يريدون ان يضربوا في الارض ليروا مجد الاسلام ومجد العرب ويريدون ان يتمتعوا بنعمة الفتح وعز السلطان والاجناد في الثغور يدافعون تارة ويغزون اخرى والولاة في الامصار تولوا مناصبهم بغير اختياره • فماذا يفعل هذا الشيخ الذى وقف على منبر الرسول في ساعة تجرأ فيها عبد مملوك على اغتيال خليفة المسلمين وكانت جرأة لها ما بعدها • فتحت ابواب الفتن على مصاريعها واظهرت للاقوام المغلوبة على امرها انها تستطيع ان تنتقم وتأخذ ثأرها بيدها من أعاظم رجال العرب •

نظر عثمان الى رقعة الاسلام المنبسطة وراء الافق فلم يجد بدا أن يبدأ بالولاة فيكتب لهم ان يكونوا رعاة لا جباة وان ينظروا في امور المسلمين فيعطوهم ما لهم ويأخذوا منهم ما عليهم وان يثنوا بأهل الذمة فيعطوهم الذى لهم ويأخذوهم بالذى عليهم وان ينظروا الى العدو فيستفتحوا عليهم بالوفاء وانهم بغير ذلك لا يستطيعون أن يديروا الامصار ولا يتألفوا الرعية ولا يستقيم لهم امر • كما كتب الى الاجناد في الفروج بأنهم حماة المسلمين والذادة عنهم وان يسيروا على ما رسم لهم ولا يغيروا فيغير الله ما بهم •

وكتب الى عمال الخراج (خذوا الحق واعطوا الحق به • الامانة قوموا عليها ولا تكونوا اول من يسلبها لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فان الله خصم لمن ظلمهم) •

ووجه كلمة الى العامة : (اما بعد فانكم بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم وان أمر هذه الامة صائر الى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم تكامل النعم وبلوغ اولادكم من السبايا وقراءة الاعراب والاعاجم القرآن فان رسول الله (ص) قال الكفر في العجمة فاذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا •

وفي هذا الكتاب تبين بعد نظر الخليفة وشدة تفهمه للمجتمع الاسلامي الجديد الذى هو صائر لا محالة الى طريق غير طريق المؤمنين الصادقين في ايمانهم وان هذا التغير سوف ينحدر الى المجتمع


المدينة المنورة

الاسلامي من ثغور ثلاثة من سعة العيش ومن نبت ناشئة جديدة هجينة من السرايا والاماء • واخطر الثلاثة عدم تفهم الناس احكام القرآن ومن لم يفهم تكلف الشرح والتفسير فابتدع واخترع وفي هذه الظاهرة ما فيها من الخطورة وهذا هو الخطر الذى استقبله عثمان فلقد ابطرت الناس النعمة وغيرتهم العجمة وتكلفوا في التفسير والتأويل وتململت اليهودية والمجوسية والوثنية ونشأت الغوغائية في امصار المسلمين وكان عبدالله بن سبأ اليهودي الصنعاني بن الامة السوداء رأس هذه الغوغائية شأن اخلاق اليهود الحاقدين •

اظهر اسلامه زمان عثمان واتخذ من الاسلام ستارا وشرع يتنقل في بلاد المسلمين يحاول اضلالهم فبدأ بالحجاز ثم البصرة فالكوفة فالشام فلم يقدر على ما يريد عند احد من اهل الشام فاخرج حتى اتى مصر فاعتمر فيهم وشرع يبث سمومه وحرك الناس على عثمان وطعن في الولاة واخذ يتظاهر هو ومن اغراهم بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر واخذوا يكتبون الى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ويكاتبهم اخوانهم بمثل ذلك ويكتب اهل كل مصر الى آخر بما يصنعون فيقرؤه اولئك في امصارهم وهؤلاء في امصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة واوسعوا الارض اذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون • فيقول اهل كل مصر انا لفي عافية مما ابتلى به هؤلاء الا اهل المدينة فانه جاءهم ذلك من جميع الامصار فقالوا انا لفي عافية مما فيه الناس • وجاء اهل المدينة الى عثمان فاخبروه بما وصل اليهم فقال انتم شركائي وشهود المؤمنين فاشيروا علي • قالوا نشير عليك ان تبعث رسلا الى الامصار حتى يرجعوا اليك بأخبارهم فأرسل عثمان من يثق بهم الى الامصار فرجعوا اليه فقالوا ما انكرنا شيئا ولا انكره علماء المسلمين ولا عوامهم الا عمار بن ياسر الذى ارسل الى مصر فأغراه عبدالله بن سبأ فمال اليه هو وجماعة آخرون •

هذا الارجاف في الفتن تقمصته اليهودية ولبسته الشعوبية فاجتمعت الفرقتان معا على الضلالة وتضليل الناس وتشكيكهم في امور دينهم وظلت

تنتقل في اصلاب الزمن الى يومنا هذا يعيشون في الضلالة ويتسترون بالظلام ويبثون الاذاعات كي تتفتت قوى الامة فيما بينها فتضعف وتبدو نواجذ الشر ولا يزال المرجفون يعملون عندما يرون حكم العرب العادل يستقيم ليقوضوه ويقيموا حكما شعوبيا حاقدا منتقما ٠

احس عثمان بنواجذ الشر ورأى قرون الفتنة فكتب الى اهل الامصار : أما بعد فاني آخذ العمال بموافاتي في كل موسم وقد سلطت الامة منذ وليت على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يرفع على شيء ولا على أحد من عمالي الا اعطيته وليس لي ولعيالي حق قبل الرعية الا متروك لهم وقد رفع الي أهل المدينة ان أقواما يشتمون وآخرون يضربون فيامن ضرب سرا وشتم سرا من ادعى شيئا من ذلك فليواف المواسم فليأخذ بحقه حيث كان مني أو من عمالي وتصدقوا فان الله يجزي المتصدقين ٠

قرىء هذا الكتاب على الناس في الامصار فأبكاهم ودعوا لعثمان وقالوا ان الامة لتمخض بشر ٠

حمل عثمان الناس على مصحف واحد بعد ان استعجم القوم وجاءت الشكوى الى عثمان بأن المسلمين في الثغور والامصار أخذوا يختلفون في قراءة القرآن ويشتد بينهم الخصام فيما فيه يختلفون وصار أحدهم يفضل قراءته على الآخر وجاء حذيفة بن اليمان الى عثمان فقال له : (ادرك امة محمد قبل ان تتفرق حول القرآن) فاقدم عثمان على توحيد المصحف فارسله الى الامصار موحدا ثابتا كما حفظه الصحابة من رسول الله وها هو ذا بين ايدينا هو معجزة الاسلام ورمز لتوحيد كلمتي العرب والمسلمين بل هو القوة القاهرة الخالدة التي تربت في رحابها شخصيتنا ٠ وفي اقدام عثمان على هذا العمل جرأة ما بعدها جرأة فقد روي عن امير المؤمنين علي بن ابى طالب انه قال في خلافته (لو كنت مكان عثمان لحملت الناس في امر القرآن على ما حملهم عليهم) ٠

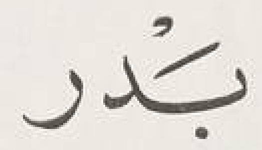
ما كان عثمان جبانا ولا مبتدعا ولكنه تلميذ في مدرسة محمد لا يستطيع ان يعمل الا في حدود الله وما كان يظن ان احدا يجرؤ عليه وهو في هذه

السن الطاعنة وهو العادل الذى لا يخاف في الحق لومة لائم • غير ان المجتمع استعجم وانبهم فقه الشريعة على الناس وتنفست اليهودية الصعداء حيث وجدت لها متنفسا في الثغور والاقاليم ولقيت مكانا خصبا تترعرع فيه بذور الفتنة •

لقد اوغلت جيوش عثمان في الشرق من ثغور العراق فقضت على دولة الاكاسرة وفتحت جيوشه بلاد ارمينية وغزت اساطيله قبرص فاستولت عليها وتحطمت اساطيل الروم في واقعة الصواري أمام اساطيل العرب واخذت تمخر عباب البحر حتى وقفت على ابواب القسطنطينية ومشت جنوده في افريقيا حتى تم له فتحها وشرعت تحاول العبور الى الاندلس ولكن الله لم يمد في عمره •

كان عثمان قويا فاتحا غازيا استطاع ان يفتح من المدن والامصار ما لم يتيسر لخليفة غيره واستطاع أن يعلم الولاة ما لم يستطع ان يقوم به غيره ولم يؤخذ على عثمان الا انه لم يكن يعلم أن الرعية التي كان يرعاها من قبله تغلب على مجتمعها الرعاع وتحكمت فيها الغوغائية وصار من السهل ان يؤول القرآن والحديث وتشيع الفاحشة بين الناس •

وهكذا افتعلوا عليه في الامصار وافتعلوا عليه كتابا وجدوه مع غلامه بختمه • ظهر عثمان على رعاع الناس فافحمهم وردهم ورجعوا الى بلادهم وكادت الفتنة أن تخمد لولا اليهودي ابن السوداء الذي دبر هذه المكيدة فعادت جذعة وتجمهر السبئيون على باب الدار واشتد الزحام وتقارعت السيوف ووقع من وقع صريعا وكادت الغلبة تكون لامير المؤمنين لولا ان تسور عليه نفر من خلف الدار فاغتالوه والقرآن الكريم بين يديه وهو اغلى درة حرص عليها وهكذا ضم البقيع هذا الرجل العظيم الذى نشر راية الاسلام في أوسع رقعة من بقاع الشرق ونشر تعاليم محمد وحفظ لنا القرآن رمز عزتنا ومجدنا • ما أجدر ان يكون عثمان مثلا من مثلنا العليا يقتدي به شبابنا •


بدر

ملأ هذا المكان فم التاريخ وظل ينطق به اربعة عشر قرنا وسيبقى ينطق به قرونا اخرى .. كان هذا الوادي وما به من آبار وواحات منها بئر بدر منتدى العرب في الجاهلية وموسما من مواسمهم تجتمع لهم فيها سوق كل عام فيقيمون عليه ثلاثة أيام ينحرون فيها الجزور ويطعمون الطعام ويشربون الخمور وتعزف عليهم القيان وقد انطمست معالم هذه الذكرى فيه وخفيت من الوجود مثلما تختفى متع الحياة ومراتع الشهوات واللذات وبقيت الذكرى الخالدة ذكراه الفاصلة بين الحق والباطل تلك التي سجلها العرب المسلمون فبقيت تضيء جوانب التاريخ وكانت امنيتى ان ازور هذا المكان اذا وصلت ارض الحجاز منبع مجدنا في مكة والمدينة وتوجهت من جدة الى يثرب وحسبت حسابي ان اكون في بدر وقت الظهيرة وكان الجو لطيفا هادئا والهواء يمر بنوافذ السيارة وهي تنهب بنا صدر الارض على طريق واسع مفروش بالاسفلت فتركت جدة في الضحوة

ووصلت بدرا والشمس في كبد السماء ومررنا في طريقنا بقرى متناثرة في هذه الصحراء المنبسطة حتى وصلنا الى منخفض منبسط قال السائق عنه انه وادي بدر فنزلنا قرب سقيفة واسعة كبيرة فيها كراسي مصفوفة يستريح عليها الحجاج الزائرون وتربض حولها سياراتهم الضخمة وهم في ذهاب وجيئة يحملون اباريق الماء رجالا ونساء محجبات او سافرات الوجوه وفي بضع خطوات من هذه السقيفة رأينا ظلة فأوينا اليها واوقفنا سيارتنا في مدخلها ووجدنا فيها ظلا ضليلا وهواء لطيفا وجاءنا صاحبها وسألنا ماذا تريدون فطلبنا الاباريق للوضوء واوصيناه على شيء بعد الغداء فتوضأنا وصلينا ركعتين ركعتين للشكر وصلينا صلات الظهر واخرجنا متاعنا وتجمع حولي بعد الغداء صبية صغار من العرب الضاربين في منعطفات الوادي فناديت احدهم وسألته من اى القبائل انت ؟ فقال من حرب ! فلما سمع السائق كلمة (حرب) قال : (ان هذه العشيرة من اقوى العشائر لم تستطع الحكومات السابقة ان تلوي عنانها وتأتي بها الى الطاعة وأهملت ففتك بها الجهل فيما مضى فصارت شقية عنيفة تقطع الطرق على الحجاج فتفتك بهم وقد قلمت الحكومة الحاضرة اظافرهم وردتهم الى صوابهم وفتحت لهم المدارس فهم اليوم اطوع من البنان ونعم هذا الطريق بالامن والاطمئنان ٠

وسألت الطفل عن اسمه فقال اسمي محمد وكانت مخايل الذكاء بادية عليه ثم علمت انه في المدرسة ، واذا به يجيب عن اسئلة التاريخ وحبذا لو علم هذا الطفل تاريخ هذا الموقع العظيم في هذه السن ٠ ثم قدمت للصبية من طعامنا فأبوا جميعا مع انه لم يكن من فضلات المائدة ٠ وسألت احدهم اتعرف دليلا يدلنا على موقعة بدر اين وقعت ؟ فقال نعم ولكن اعطني ريالا وانا ادلك عليه فاعطيته ما اراد وزدته وركب معنا في السيارة حتى اذا علونا ربوة رملية تنتشر حولها ربوات وتزينها في منخفض الوادي واحة واسعة من النخيل هي موطن الخصب وهى غرة هذا الوادى ٠ اقبل علينا شخص من بعيد فقال الصبي هذا هو الدليل قد اقبل ٠ وفي دقائق معدودات تجمع

حولي صبية صغار اكسبتهم هذه الارض الجافة المعزاء القاسية صحة ورشاقة في الابدان ووسامة وجمالا عربيا في الوجوه قد عودهم الحجاج على الهدايا حتى اصبحت فيهم عادة فقلت سبحان الله ان الله ابدلهم رزقا حلالا يمنحهم اياه الزائرون في طيبة نفس واطمئنان خاطر بدلا مما كان يأخذه آباؤهم عنفا وعنوة .

وقف الدليل واشرف اشرافة القائد في المعمعة او اشراف المعلم المتمكن من درسه في صفه وشرع يصف لنا الموقعة كأنه يراها ويقول تلك هي العدوة الدنيا وهذه هى العدوة القصوى وهذا هو الوادى وفي ذلك المرتفع على ما يزعمون عريش النبي (ص) أما قليب بدر فلم يبق له اثر وهذه هي البطاح التي تقارعت عليها سيوف كتائب المشركين مع سبعة من شهداء بدر الراقدين في هذا المكان . فيهم مهجع مولى عمر وعمير بن ابى وقاص وعاقل بن البكر ورافع بن المعلى وحارثة بن سراقة وصفوان بن الحارث وكانت لهجة الفتى بدوية ليس فيها لكنة العجمة التي اصابت المدن العربية وليس فيها كلمة غريبة عن العربية وكان يسكن الاواخر ولا يعرب وليس للصرف في كلامه محل .

ان مكان الواقعة واضح ومكان الالتقاء متقارب فقد كان النزال بالسيف والسهم وكنت اتمنى ان يكون في بدر فندق ضيافة كبير وفيه قاعة تزينها لوحة توضح معالم الواقعة وترسم خطوطها ويلقي فيها محاضر عارف بالتاريخ دروسا على الزائرين يبسط فيها تاريخ صناديد العرب من المشركين الذين اشتركوا فيها وابطال المسلمين الذين قادوا المعركة واحرزوا النصر على قلتهم وكثرة عدوهم ولتكون مثلا من امثلة النصر الذي يحرزه الايمان دوما فان العقيدة اذا تمكنت من النفوس دفعتها الى ركوب الاهوال وتخطى الحواجز . والايمان اذا تمكن في القلب خزم انف العاطفة واطلق للعقل العنان ان يخلق ويبدع بل لتكون هذه الموقعة مثلا ونقطة انطلاق للعرب كلما اصابتهم نائبة الامم او وقعت في صفوفهم مكائد الشعوب ولتعلمهم ان القلة المتحدة تغلب الكثرة المتناثرة وان الصف العربي الصامد الذى خفق

على رأسه لواء النصر في بدر استطاع ان يقف على حدود الصين وعلى جبال البرنات وان يقدم للبشرية حضارة القرآن في اقل من ثلثي قرن • هكذا كنت افكر والفتى يشرق في حديثه ويغرب وهكذا اطلقت لخيالي عنانه ان يتذكر هذا الوادي الذى كان مراح عرب الجاهلية وموطن لهوهم وسرورهم وتفاخرهم وتكاثرهم كيف حزبهم الامر واشتدت بهم المحن فتنادبوا واستنفروا قومهم كيلا يخسروا تجارتهم ويندثر موطـن لهوهم وسرورهم ومتعتهم ويأخذ العرب في ارجاء الجزيرة يتندرون في مضاربهم عن الذلة التي تقع عليهم •

بهذه العاطفة الجامحة اقدمت قريش بكتائبها لتنزل على بدر لتقاوم عقيدة السماء وتطفىء نور الاسلام الذى بدأ يشع ضياؤه في ارجاء الجزيرة •

وخرج المسلمون بالروية والتفكير والافق الواسع والنظر في مستقبل الاسلام وعزه ووقف النبي (ص) وقد احمارت وجنتاه وكانت هذه علامته عند اشتداد المحنة فتقدم اليه المقداد وهو على تلك الحالة فقال : ابشـر يا رسول الله فوالله لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل اذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن والذى بعثك بالحق لنكونن من بين يديـك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك او يفتح الله لك ثم التفت رسول الله الى القوم وقال اشيروا عليّ ايها الناس • وانما كان يريد الانصار وذلك لانهم كانوا عدد الناس ولانهـم حين التقـوا به بالعـقبة قالـوا يا رسـول الله انـا بـرءاء مـن ذمـامـك حتى تصـل الى دارنـا فـاذا وصـلت الينا فانت في ذمامنا نمنعك فيما نمنع منه ابناءنا ونساءنا فكـان رسـول الله يتخوف ان لا تكون الانصار ترى عليها نصرته الا ممن دهمه بالمدينة من عدوه وان ليس عليهم ان يسير بهم الى عدو من بلادهم فلما قال ذلـك رسول الله (ص) قال سعد بن معاذ : « والله لكأنك تريدنا يا رسول الله • قال : اجل فقال : فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا ان ما جئت به هو الحق واعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته

لخضناه معك ما تخلف منا رجل وما نكره ان تلقى بنا عدونا غداً انا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله فانبسطت اسارير الرسول بقول سعد ثم قال سيروا على بركة الله وابشروا فان الله قد وعدني احدى الطائفتين • سارت سرايا المسلمين بثلثمائة رجل وثلاثة عشر رجلا المهاجرون منهم يوم بدر سبعة وسبعون رجلا وصاحب راية رسول الله عليهم فتى بنى هاشم امير المؤمنين علي بن ابى طالب وصاحب راية الانصار سعد بن عبادة وكانوا مائتين وستة وثلاثين رجلا فلما وصل ركب المسلمين ادنى ماء من بدر نزل به فجاء الحباب بن المنذر فقال يا رسول الله أرأيت هذا المنزل امنزل انزلكه الله ليس لنا ان نتقدمه ولا نتأخره ام هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى فقال يا رسول الله فان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي ادنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما سواه من القلب ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فقال رسول الله لقد اشرت بالرأى • فنهض الرسول ونهض من معه وساروا حتى اتوا ادنى ماء من القوم فنزلوا عليه ثم غورت الآبار وبنوا حوضا على القليب الذى نزلوا عليه فملىء ماء ثم قذفوا فيه بالآنية • وجاء سعد بن معاذ الى الرسول وقال : يا رسول الله نبنى لك عريشا من جريد فتكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فان اعزنا الله واظهرنا على عدونا كان ذلك مما احببنا وان كانت الاخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك اقوام يا نبي الله ما نحن باشد حبا لك منهم ولو ظنوا انك تلقى حربا ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك فاثنى رسول الله عليه خيرا ودعا له بخير وبني لرسول الله عريش فكان فيه •

وأقبلت قريش بألف رجل فيهم صناديد العرب ومنهم عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وابو جهل بن هشام وامية بن خلف والنضر بن الحارث وزمعة ابن الاسود وغيرهم • واقسم قادتهم الا يرجعوا حتى يردوا ماء بدر وارسلوا رائدهم فجال حول معسكر النبي ثم رجع فقال لهم : يا معشر

قريش : الولايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع قوم ليس لهم منعة ولا ملجـأ الا سيوفهم والله ما أرى يقتل رجـل منهم حتى يقتل رجلا منكم فاذا اصابوا منكم اعدادهم فما خير العيش بعـد ذلك ؟ فروا رأيكم ومشى حكيم بن حزام في الناس وكان من عقلائهم فأتى عتبة بن ربيعة فقال يا ابا الوليد انك كبير قريش الليلة وسيدها المطاع فيها هل لك الا تزال تذكر منها بخير الى آخر الدهر قال وماذاك يا حكيم ؟ قال ترجع بالناس وتحمل دم حليفك عمرو ابن الحضرمي . قال قد فعلت وكادت قريش تلوي عنانها وترجع الى ديارها لولا عناد ابى جهل فقد امتلأت رئات القوم رعبا وجزعا ولكن ابوا الرجوع عنادا واستكبارا .

ولما التقى الجمعان وتراءت الفئتان وقف رسول الله وقال ايها الناس هذه مكة قد القت اليكم بافلاذ اكبادهـا . اللهـم هـذه قريش قد اقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتني اللهم فاحنهم الغداة وقال :

« ايها الناس اما بعد فاني أحثكم على ما حثكم الله عليه وانهاكم عما نهاكم عنه فان الله عظيم شأنه يأمر بالحق ويحب الصدق ويعطي على الخير اهله على منازلهم عنده به يذكرون وبه يتفاضلون . وانكم قد اصبحتـم بمنزل الحق لا يقبل الله فيه من احد الا ما ابتغى به وجهه وان الصبر في مواطن اليأس مما يفرج الله به الهم وينجى به من الغم وتدركون النجاة في الاخرة .

فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم فاستحيوا اليوم ان يطلع الله عز وجل على شىء من امركم يمقتكم عليه فان الله يقول :

« لمقت الله اكبر من مقتكم انفسكم » .

انظروا الذى امركم الله به من كتابه واراكم من آياته واعزكم به بعد ذلة فاستمسكوا به يرض به ربكم عنكم وابلوا ربكم في هذه المواطن امرا تستوجبوا الذى وعدكم به من رحمته ومغفرته ، فان وعده حق وقوله صدق وعقابه شديد وانما انا وانتم بالله الحي القيوم اليه الجأنا ظهورنا وبه

اعتصمنا وعليه توكلنا واليه المصير يغفر الله لي وللمسلمين .

ونزل الجمعان الى الميدان ورسول الله لا يزال يقول اللهم انى اسألك عهدك ووعدك اللهم ان تهلك هذه العصابة (يريد المسلمين) لا تعبد بعد اليوم وقال سيهزم الجمع ويولون الدبر الساعة موعدهم والساعة ادهى وامر .

وتقارعت السيوف وسقطت القتلى وانكشفت الموقعة عن هزيمة قريش وايد الله المؤمنين بنصره فاستشهد منهم من استشهد وجرح من جرح ولحق فريق من الجرحى بالشهداء ودفن سبعة من شهداء المسلمين في بدر .

وهكذا دخلت العقيدة في طورها الاول من الذروة في المجد وجمعت تلك القبائل المتناثرة فوق الروابي والاكمات ولمت شمل العشائر الضاربة في السهول والوديان ونزعت ما في القلوب من غل اخوانا على سرر متقابلين ومحت من وجود العرب طبقة السادة والصناديد وجعلت موطن التفاخر والتكاثر في الدفاع عن دين محمد وعقيدة السماء وبدأ عصر العرب يرتفع في سلم القوة والمجد العسكري وتمتعت قريش بالطمأنينة والاستقرار ونزلت السورة :

« لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى اطعمهم من جوع آمنهم من خوف » .

وحفت بالبيت العتيق نعمة الاطمئنان وسارت ركائب العرب تضرب في السهول والوديان في ظلال عقيدة السماء التي انزلت السكينة في قلوب المؤمنين وامتلأ الوادي بالخيرات وجاء دور الفكر والعقل دور التشريع والفقه ونظام الحكم واستقرت امور الدنيا لهذه الامة الفتية .

وانتهت معركة القلق والخوف وانتهت معركة رغيف الخبز وطفقت التجارة تسير غدوا ورواحا تحف بها اجنحة التقوى والايمان .

ان الاطمئنان وضمان العيش عنصران مهمان من عناصر الحضارة وتوطيد اركان الاجتماع وازدهار الثروة وتفتح آفاق الفكر . فان النفوس اذا آمنت وارتاحت شرع العقل يفتش عن معرفة الحقائق واسرار الطبيعة

وهكذا شرع المؤمنون يفكرون في خلق السموات والارض ويرجعون الى انفسهم ويقولون ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك وهكذا تفتحت لهم ابواب المعرفة لانهم عرفوا ان هذا الكون لم يخلق باطلا ولابد من استثماره فمشوا يضربون في الارض لابراز مواهبهم الكامنة فابدعوها حضارة لا تزال مفخرة الدنيا .


العُمرة

امتلأ فؤادي بنور النبوة في يثرب واشرق بين جوانحي ذلك الضياء الروحي الذي يمـلأ جوانح المؤمنـين ورضيت نفسي لانني زرت ضريح المصطفى قبل ان أزور موطن مولده وموطن اشـراقة الدعوة ، ونازعتني نفسي للبقاء في يثرب او السفر الى بيت الله الحرام لاداء الواجب المفروض في القرآن الكريم « وأتموا الحج والعمرة لله » وتعلقت بهذا السبب فان اطاعة امر الله احب الى رسول الله وتوضأت ونزعت ملابسي وتخليت عن بدلتي ورباط العنق وحذائي بـل جميع كسوتي ولبست ثوبي الاحرام : رداء وازارا غطيت بردائي ظهري وصدري والكتفين وكسوت بالازار مـا بقي من جسمي من السرة الى الركبتين ووقفت في غرفتي مكشوف الرأس حافي القدمين ثم انتعلت حذاء غير مخيط وتحزمت بحزام وضعت فيه نقودي وتوشحت بحقيبتي التي وضعت فيها هويتي وصغار النقود • ثم القيت آخر نظرة على القبة الخضراء قبة الرسول (ص) وعلى المنائـر المتلألئة بالضياء

وتحركت بنا السيارة نريد بيت الله الحرام نريد اداء العمرة فوصلنا بئر على أوهى (ذى الحليفة) وهو مقيات اهل المدينة الذى يحرمون منه أى يعقدون النية على اداء فريضة الحج او العمرة او كليهما معا فنزلنا وصلينا ركعتين وقلت اللهم ربى اريد العمرة فيسرها لي وتقبلها مني : لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك • وما انتهيت من هذه الكلمات حتى شعرت برعدة الجلال والرهبة تتمشى في مفاصلي ووقفت اتأمل مـا فاض به فؤادى ولفظـه لساني فعلمت انني اصبحت متوجها بكليتي الى بارئي مسرعا اقول هأنذا يا رب لا املك لنفسي ضرا ولا نفعا ولا حياة ولا نشورا ! • فانت مالك الملك مالك يوم الدين وان عبادك مهما تجبروا وتعظموا وتفاخروا وتكاثروا ضعاف ترديهم البعوضة وتقتلهم الجرثومة التي لا تراها اعينهم • ثم صلينا صلاة الفجر ولبينا وركبنا سيارتنا حتى وصلنا بدرا عندما ذر قرن الشمس وسال ضياؤها الذهبي على ذرى الجبال والبطاح وكان النسيم لطيفا فيه برد الصحراء الذي خلفه الليل واريج اعشابهـا واشواكهـا المتناثرة الذي تهفو اليه افئدة المؤمنين •

ووقف ركبنا يستمع مرة ثانية الى الدليل يشـرح مراحـل الموقعـة ويصف عظمة الاسلام وذل الشرك وتجمع حولنا صبية صغار فنفحناهم مما قسم الله لنا ولهم وانطلقت بنا السيارة تتهادى فوق رمال روابي بدر ثم نزلت الى الوادى فاطلقت العنان فوق طريق منبسط واسع مفروش بالاسفلت ما داسته مناسم الابل قبلا ولا سارت به الركبان ايام غزوة بدر • وكانت السيارة في انطلاقها تهزأ بالابل التي نراها بين الفينة والفينة ولو نطقت الابل لقالت انني حملت أمة على ظهوري ففتحت وحكمت وابدعت الشرائع والعمران • واستمر بنا السير ما توقفنا حتى وصلنا جدة فاسترحنا واستبردنا ثم استأنفنا السير تارة اخرى الى مكة ارض بيت الله ومرابع قريش وأول مكان رأى فيه محمد (ص) ضياء الوجود فلما تراءت لنا مناثرها وآطامها كبرت وهللت ولبيت ، ولما اطمأن بنا المكان توجهنا الى الكعبة الى اول بيت وضع للناس واتخذنا مطوفا يطوف بنا ووقفت بريهة أتأمل هذه الجموع

الزاخرة في رداء وازار مكشوفي الرءوس فقلت سبحانك ربنا : اننا سواسية فوق اطباق الثرى وفي بيتك في الوجود كذلك سنكون سواسية تحت اطباق الثرى في اللحود انك تعرض علينا كل يوم عبرة الحياة فلا نعتبر • انني اقف بين يديك ولا اعرف من هو عن يميني وعن شمالي ومن هو خلفي وامامي • أهو امير ثرى أو حاكم قوى او صعلوك ضعيف او شجاع صنديد او جبان رعديد • كلهم يمشـــون مقنعي رءوسهم يذكرونك ويلبـونك وينادونك ويستغفرون ذنوبهم ويطلبون رحمتك وغفرانك •

خزمت أنوف العرب عن الكبرياء والتعاظم والتكاثر والتفاخر فذلوا لك وعنت وجوههم لك انت وحدك لا شريك لك انحنت رءوسهم بالركوع والسجود حتى لامست الارض اعترافا بعظمتك وجبروتك فارتفعت نفوسهم الى منابر المجد فملأوا الدنيا عزا وسؤددا • ذلوا لك فعزت نفوسهم وخافوك فقويت افئدتهم • آمنو برسولك وبفرقانك فمنحتهم قبسا من ضيائك فانارو العالم وبعثوا الحياة في الوجود اطفـأوا نـيران المجوسية وابدلوها هـدى وضياء وحطموا اصنام الوثنية وابدلوها شمما واباء فدخلت الامم في دين محمد افواجا • وجرني موكب مطوفنا حتى اذا وقفنا أمام الحجر الاسود وبدأنا الشوط الاول قلنا بسم الله الله اكبر ولله الحمد وأشرنا اليه وحاولنا ان نخترق الحزام البشري لنصل اليه فلم نستطع • انها امواج تتدافـع وتزدحم فانية في وجود الله وفي وسط هذه الامواج رجال غلاظ شـداد يحملون على اكتافهم ضعفاء الحجاج في محـامل من الخشب ذات قوائم ومقابض يركضون بها ولا يلوون على أحد لا يهمهم ان يدفعوا عاجزا أو يصطدموا بامرأة عليك ان تتجنبهم وليس عليهم ان يتجنبوك • ولو مشى هؤلاء بهدوء ولو تمهلت جماعات الحجاج قليلا في سيرها لادوا اشواطهم السبعة دون عناء ولكنهم من امم مختلفة ومن ارجاء متباعدة وعادات متباينة وطباع فيها الباردة المطيعة وفيها الهائجة النافرة لا ينفع فيها ضبط ولا تنظيم ولو لا الضبط الشديد عند الحجر الاسود لرضت اجساد وديس ضعيف وفنيت نفوس •

سرنا من وراء المطوف نتحاشى الموجة اثر الموجة وندفع الناس بالتى هى احسن • المطوف يقرأ والصحاب يرددون فمنا من يتبعه ومنا من يدعو لنفسه يؤلف الدعاء كيفما يشاء او يقرأ سورة من القرآن كى يبقى فؤاده رطبا بذكر الله • وكلما مررنا بالحجر الاسود اشرنا بايدينا وقلنا بسم الله الله اكبر ولله الحمد • وتمت سبعة اشواط ما قبلناه ولا لمسناه ولكن اشرنا اليه تكريما وذكرى اتمام بناء البيت به ولان الله حقن به دماء القبائل على يد محمد بن عبدالله حين ارادت قريش بناء الكعبة بعد ان هدمها السيل واختلفت القبائل بينها على من يرفعه بيده الى مكانه فجاء الامين محمد فوضعه في رداء فأمسكت به القبائل كلها ورفعته حتى اذا بلغت به محله أخذه محمد بيده ووضعه بمكانه فكان هذا الحدث ارهاصا لاول لبنة وضعت في بناء الاسلام • ما اقتربت من الحجر الاسود في طوافي خوف التصادم ورفقا بنفسي ان تلهو عن مشهد هذا الوجود العظيم بمواكب هذه الامم المزدحمة المهللة المكبرة وتوجهت الى الله ادعوه فهو قريب يجيب دعوة الداعي اذا دعاه لا يريد وسيطا ولا يحتاج الى وسيلة تقف بينه وبين عباده وهو الذى يسمع دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء •

أكملنا سبعة أشواط فذهبنا الى مقام ابراهيم فصلينا فيه ركعتين ونزلنا الى بئر زمزم فارتوينا وقد صب حول هذه البئر الاسمنت المسلح وضربت حولها الانابيب والحنفيات والناس بين سابح ومتوضىء وشارب ومالىء ابريقا او اناء يذهبون ويجيئون يسبحون الله ويمجدونه وبعد ما ارتوينا توجهنا الى الصفا والمروة يقودنا المطوف حتى اذا بلغنا الصفا صعدنا اليها وبدأنا بتلاوة الاية الكريمة « ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم » • وكبرنا وهللنا ودعونا الله وهبطنا نسعى نحو المروة ورملنا وهدأنا حتى أتممنا سبعة أشواط وقصرنا ثم عدنا الى الفندق وتحللنا •

ولما أيقنت انني اكملت اركان العمرة وقفت وقفة المتأمل وذهب بي الفكر مذاهبة واخذت أقول لنفسي : أين هي ربوة الصفا

واين هي ربوة المروة اللتان كانت هاجر تسعى ركضا بينهما وأين رمالهما واحجارها وأين اساف الصنم الذي اقامته الجاهلية على الصفا وأين صنمها الآخر نائل الذى أقامته على ربوة المروة واين هى الارض المعزاء التى كانت تمتد بينهما واين هو ذلك الوادى الذى يصل الى بئر زمزم .

اما الصنمان فقد حطمهما الاسلام وجعل من الربوتين شعيرة من شعائر الله واما الوادي الممتد المكشوف تحت الشمس المحرقة فلا أثر له فقد اولته الدولة عنايتها وانشأت عليه بناء ضخما عاليا تتفتح من حائطيه نوافذ واسعة صبت أرضه بالاسمنت المسلح وغطيت الربوتان بالخشب المنحوت وشطر الوادي بين الربوتين شطرين بينهما حاجز منخفض يمنع تصادم الساعين واشتباكهم . الهابطون من الصفا يمرون زرافات والهابطون من المروة يمرون جماعات لا تختلط الا اصواتهم بالدعاء ولا يزعج الساعين غير اولئك الاجيرين الغلاظ الاشداء الذين يحملون في محامل على اكتافهم ضعفاء الحجاج او يدفعونهم بعجلات صغيرة يزحمون الناس بسرعتهم ويقلقون الساعين بلحاحهم . ولو تمهلوا في سيرهم قليلا لكان السعي متعة الحجاج في هذا البناء الجميل والمشهد الذى يأخذ بالنفس فيسموا بها عن صغائر الامور ويرتفع صعدا في سلم الانسانية حتى يجد الانسان أن عليه ان يكون في صفوف الملائكة ويشعر ان الاخوة والمساواة والعدل التي جاء بها محمد ما هي الانتاج هذه التربية المحمدية التي لقن بها محمد العرب دروس العظمة والجلال عن طريق الطاعة لله والتواضع فمن تواضع لله رفعه .


مَكّة

أنهينا طواف العمرة والسعي وقصرنا وتحللنا وعدنا الى الفندق ونزعنا ثوبي الاحرام ولبست ثيابا بيضا خفيفة • كان الفندق مريحا هادئا لمن يريد أن يتعبد أو يقرأ وكان الماء فيه غزيرا والجو في غرفه لطيف مبرد وهو قريب من البيت الحرام • نسمع أذان المؤذن وننتظر وقت الصلاة فنسعى الى ذكر الله ونذر كل شيء لنشترك مع جموع المسلمين في خير بقعه يتجه اليها المسلمون في كل يوم خمس مرات في مشارق الارض ومغاربها •

ولما كشف الليل لثامه عن ثغر الفجر الباسم وسمعت كلمة الله اكبر توضأت واخذنا سمتنا الى البيت العتيق ورأيت الناس تسير أفواجا تسبح الله في هدوء وسكينة يمشون مسرعين أو الهوينا ينسربون من طرق شتى يحمل كثير منهم على كتفه سجادة صلاته وآخرون يصلون على الارض المفروشة بالمرمر •

فاذا أضحى الضحى ونفضت الاعين عنها ملأة النعاس وانتشر الناس

وفتحت الاسواق اعجبك هذا المنظر الرائع في الغادين والرائحين البائعين والشارين وازدحام الحجيج على الصرافين وأيقنت ان هذا الوادي الذى لا زرع فيه ولا ضرع قد جعل الله افئدة الناس تهوي الى أهله في هذا الموسم المقدس • وأنت اذا ذهبت الى سوق لتشترى حاجة أو هدية طالعتك البضائع البراقة الناعمة في أنواع من الحرير الطبيعي والصناعي وأنواع من انسجة الصوف والقطن • والاواني المصنوعة والسبح المعلقة (جمع سبحة) ولعب الاطفال وأماكن الساعات الثمينة والمكتبات الواسعة ورأيت الحاجات جالسات على عتبات الدكاكين أو واقفات في وسط المخازن يقلبن البضاعة وطالعتك حركة بيع وشراء لا مثيل لها الا في اسواق المواسم • وزحمتك عجلات صغار عليها بضائع مختلفة •فاذا تجولت في أسواق أخرى رأيت حوانيت العطور والبخور والصموغ واذا توغلت قليلا وجدت أكوام المأكولات الاخرى من الجبن والزيتون والمتبلات وانيما تلفت رأيت صناديق زجاج المشروبات الغازية والمعلبات كل ذلك في وفرة كافية ومدد لا ينقطع واوفر من هذا وذاك الفواكه الطرية الناضجة من البرتقال والموز والتفاح والبطيخ في تحديد اسعار فلا احتكار ولا استغلال لا ينتني كلام البائع الذي يبيع الفواكه • هو في الدكان مثله على العجلة رخيص ولطيف تشتري وانت مطمئن وتأكله وأنت ملتذ • أما في حوانيت البضائع وبين الباعة والمتجولين فان المعاملة أساس البيع ولكنه لا يطلب منك ضعفين كما هى الحالة في بعض الاقطار ويكفيه ان يربح منك ربحا بسيطا ويذكر التأريخ ان هذا هو شأن مكة من قديم الازمان • هى سوق تجارة وهى محجة دينية فيها تقام اسواق الادب فيفد اليها الشعراء ليشهدوا سوق عكاظ كما يفد اليها المتدينون ليقضوا مناسكهم وليطوفوا بالبيت العتيق وينحدر اليها التجار ليبيعوا بضاعتهم •

ان اهل مكة لا يتجاوزون مئة الف ويفد اليها في موسم الحج من البلاد الاسلامية البعيدة والقريبة ما يزيد على مليون نسمة فتستقبلهم بترحاب وسعة ورزق كثير وماء وفير وهدوء وأمن ولكنك لا تستطيع ان تقف عند هذا الوصف اذا علمت ان الوافدين من أمم مختلفة متفاوتة في

الثقافة والعلم متفاوتة في الثروة ولا يفوتنك اختلاف الاعمار فكثير منهم شيوخ عجزة او كهول لا يتعدون في تعبهم مناسك الحج وفي هذا الازدحام المضغوط وفي تفاوت الاعمار وفي تفاوت الثقافات لا يخلو موسم الحج من خطيئات لا لوم فيها على احد الا على الذين جاءوا من بعيد الذين اوصاهم القرآن الكريم بقوله تعالى : « الحج اشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الالباب » فأمرهم ان يتأدبوا وينصرفوا الى اداء الفريضة ومعرفة الغاية منها • ولقد وجدت اكثر الذين يحجون لم يأتوا ليتعرفوا على اخوانهم المسلمين بل لا شأن لهم بمشكلات المسلمين في قطر من أقطارهم • وقصاراه أنه اذا بدأته بالسلام رده عليه على عجل وتركك تمشي وقليل منهم من يذكر انه عضو في الاسرة المسلمة المنتشرة في أرجاء العالم وان فيها الضعيف الذى ينشد العون والقوى الذى يستعان به • وبين العون والاستعانة تستكمل الاسرة قوتها •

ولقد سرني اني عرفت رجلا من الباكستان له وظيفة كبيرة في هيئة دولية عاتبني ولام العرب المسلمين وقال : « اننا نريد ان نقرأ سيرة نبينا والغايات السامية من ديننا مكتوبة بأقلام عربية في لغة اجنبية وذكر انه اشترى كتابا لاحد المستشرقين في سيرة (محمد) فلما بلغ في قراءته اربع صفحات اضطر ان يقتلع من الكتاب صفحتين ويمزقهما ويترك الكتاب مركونا في مكتبه ذلك لان الصفحتين مملوءتان طعنا بمحمد » وجدت في هذا الاخ المؤمن روحا عالية ووجدت قوة الايمان تتدفق من ثنايا كلماته كأنه يحاول ان يستثيرني ويبعث في نفسي الحماسة وما يدري انني كنت كلي اذنا صاغية وما لي من حاجة الى اثارته •

ولقد اعجبني في هذه الرحلة المقدسة الممتعة شباب طامح مفتولو السواعد اصحاء الاجسام في حديثهم قوة العارضة وصدق المنطق هؤلاء الفتيان بيدهم منشورات وجرائد يوزعونها على الحجاج يشكون ظلم النجاشي وتعسفه في شأن اخوانهم المسلمين اعجبت بالشباب وعجبت من

الخبر وقلت سبحانك اللهم مبدل الاحوال • لقد كان النجاشي في فجر الاسلام سندا للمهاجرين ونصيرا لهم بل اذا صح ما اوردته روايات التاريخ فانه كان قد قبل الدعوة واسلم لله رب العالمين • ان هؤلاء الشباب يستصرخون العالم الاسلامي ويستعدونه على الظلم القاسي وكان يكون لهذا النجاشي وأمثاله ان يعرفوا حدودهم لو كان هذا الحج مؤتمرا اسلاميا يتدارس المؤمنون فيه احوالهم ويحلون معضلاتهم فانهم لو اجتمعوا لكانوا قوة هائلة ولعلموا الخصم درسا لا ينسى ولما ترددت كلمة الاستعمار على السنتهم وانى لهم ذلك والآتون من اقطار بعيدة فقراء مساكين كثير منهم لا يحسن قراءة الفاتحة وكثير منهم عجزة ضعفاء وكثير منهم نساء محجبات لا يغشين المؤتمرات ولا يحسن الكلام وقد يحول بينهن وبين ذلك خجل طبيعي او تجنب تربوى اخذنه عن بيوت آبائهن •

ومكة هذه تقع في واد ضيق ممتد طوله ثلاثة اميال وعرضه اقل من ميل ويصل في بعض اماكنه الى أقل من نصف ميل هي على ضيقهـا مفرحـة بهيجة شقت فيها الشوارع واقيمت متنزهات وشيدت عمارات ويحيط هذا الوادى جبال عالية قد يصل ارتفاع بعض ذراها الى ٢٥٠ قدما فوق سطح البحر واشهر جبالها جبل ابى قبيس وهو اقرب الجبال الى الكعبة والربوة التي من أسفله هي ربوة الصفا التي يبدأ السعي منها والتي كانت الجـاهلية نصبت عليها صنمها ــ اساف ــ • وجبل ثور وهو جبل مرتفع يشرف على مكة من جنوبها وفيه غار ثور الذي اختفى فيه النبي مع صاحبه ابى بكر كيلا يلحق بهما المشركون عندما هاجرا الى المدينة • وفي شرقي مكة جبل أمعز أشم مرتفع تنتشر على سفوحه صخور حمراء وتجلله حتى تصـل الى الذروة اسمه جبل النور وفي هذا الجبل الاشم غار حراء الذى كان يتعبد فيه الرسول • ولنا عودة اليه عند الحديث عن مشرق النبوة وتنتشر بيوت أهل مكة في هذا الوادى وبعضها يرتفع صعدا حتى يحتضن صدر الجبل او يقف على الذروة وتكاد هذه البيوت لا تكفى اهل مكة على قلتهم فكيف بهم اذا نزل في احيائهم نصف مليون حاج أو يزيدون يفدون من

مشارق الارض ومغاربها ؟ انها محنة لاهل مكة وامتحان قاس لولاة الامر فان هذا الموسم على قصر ايامه لا يتسع الى تأسيس فنادق عديدة تسكن في أيام معدودات ثم تترك خالية طوال أيام السنة ولا يمكن ان تدفن ثروة هائلة في طيات حجارة واسمنت وحديد هذه المدة الطويلة ولـكن كيف الخلاص من امر واقع ليس له دافع ؟ انك تشهد مظاهر هذه المحنة في الاجسام الممدة في افياء الصفا والمروة واروقة المسجد الحرام وقد لا تستطيع ان تجد محط قدم في بعض هذه الامكنة بين أجساد المضطجعين يفترشـون الارض أو سجادة رقيقة أو يتوسدون حذاء أو رداء وحول الجميع نفـايات أكل وأوراق • انني كلما أبصرت هذه المناظر قلت سبحانك يا ربي ان عبادك لم يفهموا ماذا هدفت اليه في شريعتك السمحاء في قدسية الحج ونبل المقصد منه فانك يسرت على عبادك شعائر عبادتك ولكنهم آثروا ان يؤدوا مناسكهم في عناء ونصب •

انني لا اجد فرضا محتما في اداء فريضة الحج على هؤلاء العجزة والمساكين والشيوخ الضعفاء ولا اجد فرضـا محتمـا على هؤلاء الفقراء الاميين ، كنت اتمنى ان يقصد الى مكة شباب المسلمين المثقفون وكهولهم الناضجون وان يأتوا متأبطين مناهجهـم وخططهم يبحثون في شـأن أممهـم ويتداولون بما يحيط بهم • ولو فعلوا ذلك لكانت رسالة الاسلام وضـاءة تنير العالم • وأقسم قسما لا أحنث فيه لو ان المسلمين كانوا فعلوا ذلك منذ ان اصبحوا قوة ترهبهم الامم لكان للتاريخ الاسلامي شأن غير هـذا الشأن ولكتب لهم صفحات متلألئة تفسح للحضارات طرقا مفروشة بالمجـد والسؤدد ، ولما ضاقت مكة على رحبها بهذا العدد الضخم الضعيف ولحفلت بالصفوة المختارة المثقفة الناضجة من ابناء الامم الاسلامية • ولاعادت مكة ندواتها السياسية واسواقها الادبية ومظاهر حياتها الاجتماعية ولصارت مكة ام العواصم بدل ان كانت قبلا ام القرى • انك لا تسمع في مكة حديثا في ندوة ولا تجد دارا كدار الارقم يتشاور فيها القوم ولا تسمع الخناذيذ من شعراء الجاهلية والاسلام ولا تبصر صناديد قريش بل تجد خليطا من

أمم مختلفة وتسمع عربية فيها لكنة في الحانوت والشارع وكنت اتمنى ان أجد الدار التي ولد فيها الرسول يذهب اليها الزائرون يستوحون سر العظمة والعبقرية ودار ابي بكر وددت ان أرى هذه الدور عـامرة وفيها أثر من آثار اهلها • ولكن في الكعبة كفاية وفي شعائر الله ومناسك الحج ما يملأ القلب قوة والنفس سموا ورفعة •

قُرَيْشٌ وَالكَعْبَة

كثرت الروايات في شأن بناية الكعبة وتعددت ولكنها مهما اختلفت وكثر تعدادها فان الحقيقة الواقعة ان هذا البيت العتيق بني وانه أول بيت وضع للناس بمكة وان الحجر الاسود سواء انزل من السماء أم جيء بـه من الارض قـد خلـد في التاريخ وأخـذ مكانه من شـعائر المسـلمين وبلغ الاهتمام به حدا لم يبلغه حجر غيره في الارض وانه شيد في ركن من اركان هذا البيت يتناقل الرواة اخباره ووصفه وتهتم به دول العالم وقد اقتلعته الحروب من مكانه واعادته الحروب الى مكانه •

وعندما اقيمت قواعد البيت نبط الماء من بئر زمزم ليكمل الاسـكان والاستقرار فان الله جعل من الماء كل شيء حي ولا حياة للانسان بغير المـاء والهواء والشمس تلك العناصر الثلاثة التي تعـين على البقـاء واستمرار الحياة • وضع هذا البيت رمزا للاسكان وترغيبا لاستقرار هـذا الانسان الذى كرمه الله وحمل ذريته في البر والبحر والجو ورزقهم من الطيبات

كل ذلك ليؤدي الانسان رسالة الوجــود • وضع هذا البيت ليكون مثابة لتلك القبائل الضاربة في الصحراء والوديان والشعاب وعلى ذرى الجبال في المروج الخضر والخصبة وأقيمت قواعده ليفد اليه الناس من كل فج عميق وليشهدوا منافع لهم وتمتزج الحضارات ويتعاون الفكر الانساني على البقاء والاستمرار وتداولت على شؤون هذا البيت قبائل وردت في اخبار التاريخ في روايات مختلفة فيها ما يميل المرء به الى التصديق وفيها ما يدعو الـى بحث وتحقيق واقربها ما جاء في الاخبار عن قبيلة جرهم حيث استخفت بالبيت ولم تهتم بشأنه فغلبتها عليه خزاعة وهي قبيلة قحطانية كان من بين اسيادها عمرو بن لحى دل في افعاله انه رجل اجتماعي بالطبع يهتم بالمجتمع ويسير به من الحسن الى الاحسن فكان يتألف الحجاج وكان مطاعا في قومه واذا تكلم ذهب كلامه مذهب الشريعة فيتبعونها ويذكر عنه انه اول من نصب الاصنام في مكة وجاء بصنم يقال له « هبل » فاقامه في بطن الكعبة • وعبادة الاصنام في بلاد العرب تخضع في نشأتها الى ما تخضع اليه الروايات التي تتأرجح بين الشك واليقين •

ويقول التاريخ ان امر الكعبة ظل في يد خزاعة حتى وفد الى مكة قصي بن كلاب بن مرة القريشي وكان الامر يومئذ الى حليل بن حبشية فتزوج قصي ابنة حليل فآل الامر الى قصي وغضبت خزاعة واقتتلت قريش وخزاعة قتالا شديدا ثم تداعوا الى الصلح وان يحكموا بينهم رجلا من العرب فيما اختلفوا فيه فحكموا يعمر بن عوف فقضى بينهم بان قصيا أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة فجمع قصي قومه من منازلهم الى مكة وتملك على أهل مكة فملكوه واختط للعكبة ساحة واسعة واباح للناس أن يبنوا دون ذلك حولها من الجهات الاربع وامرهم ان يجعلوا بين بيوتهم مسالك يفضون بها الى ساحة الكعبة كما أمرهم الا لايرفعوا بيوتهم عن الكعبة لتظل مشرفة عليها وكانوا يستظلون بظلالها وكان حول الكعبة اشجار هابت قريش قطعها فقطعها قصي بيده واعانوه فجمع قومه وقسم مكة اربعا فانزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي اصبحوا عليها ولذلك يقول الشاعر :

أبـوكم قصـــي كان يدعـي مجمعاً
به جمع الله القبائـل من فهـــر

كان قصـــي أول من أصـاب ملـكا من أولاد كعب اطـاع لـه به قومـه فـكانت لـه الحجـابة والسقاية والرفـادة واللواء وهـو اول من بنى دارا للندوة فكانت قريش لاتقضي أمرا الا فيها وما يتشاورون في امر نزل بهم الا في هذه الدار ولا يعقد لواء الحرب الا فيها ولا يعقد نكاح الا بها • ولا يدخل فيهاللبت في الامور من قريش الا من بلغ الاربعين وهو اهل لان يفصل في مهمات الامور فهي دار الشورى وهي مجلس الامة وكان أمر قصي في قومه يسير مسير الشريعة في حياته وبعد مماته لا يعمل بغيره تيمنا بفضله وشرفه • وكانت الرفادة خرجا تخرجه قريش كل موسم من أموالها الى قصي بن كلاب فيضع به طعاما للحجاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ممن يحضر الموسم وذلك أن قصيا فرضه على قريش وقال لهم : يا معشر قريش انكم جيران الله وأهل بيته ، وأهل الحرم وان الحاج ضيف الله وزوار بيته وهم أحق الضيف بالكرامة فاجعلوا لهم شرابا وطعاما ايام هذا الحج حتى يصدروا عنكم ففعلوا فكانوا يخرجون لذلك كل عام من اموالهم فيدفعونها اليه فيضعه للناس أيام منى • واتخذ أولاده هذه سنة بعده ولما اصاب مكة في عهده جدب خرج حفيده الى الشام ومعه ما تجمع من خرج قريش فاشترى به دقيقا وكعكا فنحر الجزور وطبقه وجعـله ثريدا واطعم الناس ، فسمي بذلك هاشما لانه هشم الثريد • وجاء الاسلام وقريش تتخذ هذه عادة موسمية فامضاها النبى (ص) واقام على ذلك أبو بكر والخلفاء من بعده ويقول الطبرى جرى ذلك في الجاهلية حتى قام الاسلام ثم جرى في الاسلام الى يومنا هذا فهو الطعام الذى يضعه السلطان بمنى للناس حتى ينقضى الحج • واهتم قصي بسقاية الحج واتخذ لهـم حياضا من الجلود توضع بفناء الكعبة ويسقى فيها الماء العذب يؤتى به من الآبار البعيدة محمولا على ظهور الابل • ما اروع هذه الادارة البسيطة في شؤون الحج وما اسمى هذه النفوس الطيبة الكريمة الآمنة المطمئنة ذلكم هي طباع العرب السمحة وتلكم هى الفطرة الطاهـرة التى يفطـر عليها

الانسان قبل ان تتعقد عليها امور الحياة . أمن واستقرار وضيافة سخية وعناية فائقة مع طيب نفس دون منة بل كانت تراها قريش فرضا عليهـا تسهل أمور الحج للناس ليشهدوا منافع لهم .

ولما كبر قصي وضعف احضر ولده البكر عبدالدار وكان هذا ضعيف الشخصية وله أخوة أقوياء . قال له أبوه والله لالحقنك بالقوم وان كانوا قد شرفوا عليك . فلا يدخل رجل الكعبة حتى تكون تفتحها ولا يعقد لواء حرب لقريش الا بيدك ولا يشرب رجل بمكة ماء الا من سقايتك ولا يأكل احد من اهل الموسم طعاما الا من طعامك . ولا تقطع قريش امورها الا في دارك . ولما توفى عبدالدار لم يرض ابناء أخيه عبد مناف أن ينفـرد بالامر ابناء عبدالدار واختلفوا فيما بينهم ولم ينزل احد عما يدعيه للاخر ولكنهم جنحوا للصلح وقسمت مصالح قريش بين الفريقين بالقرعة فكانت الرياسة في بني عبد مناف فوليها هاشم وانتهت اليه الرياسة ومنه الى ابنه عبدالمطلب الذي ظفر بالمحل الارفع من الشرف والحياة واستهل اعمال رياسته باكتشاف بئر زمزم وكانت قد خفيت ونبت على حواشيها العشب وكانت قريش قد منعته من حفرها لان صنما كان قائما عليها فلما اكتمل لعبد المطلب عشرة أولاد أقدم على حفرها فنبط ماؤها مرة اخرى ووجد في عينيها غزالين من الذهب وجواهر وسيوفا وذهبا فاخذ الذهب والغزالين وصنع منها باب الكعبة .

وفي أيام عبدالمطلب حدث حادث جلل ذلك ان ابرهة اقدم يقـود جيشا لجبا يتقدمه فيل لا عهد للعرب به وكانت نية ابرهة ان يقوض اركان البيت ويزيل الكعبة وعلم العرب بهذه المفاجأة فنادى عبدالمطلب فيهم أن احموا ابلكم واتركوا أمر البيت فان له ربا يحميه وقـد اجاب الله طلبته وحمى بيته وجعل كيد اصحاب الفيل في تضليل وارسل عليهم طيرا ابابيل فاهلكتهم وجعلتهم كعصف مأكول . وكانت هذه أول غزوة اجنبية حاقدة لقد التف حول الكعبة العرب وتكاثروا وانتظم امـرهم وسارت تجارتهم غدوا ورواحا وصار لهم كيان دولي وبدأت قوتهم تظهر للوجود فغاظ ذلك ابرهة والاحباش ولم يريدوا أن يجدوا لهم منافسا في هذه المنطقة فجهز

هذا الجيش اللجب فاهلكه الله .

استقرت الاحوال واخذت الامور تجرى على اذلالها وتكاثرت القبائل وكثر سادات القوم واعتز كل صنديد بعشيرته وضعفت أحوال قريش والامة العربية تنبت الرجال الاذكياء وكانت مدارس الحياة تقدم كل يوم رعيلا من الشعراء والخطباء والعرافين والكهان وعلماء الانساب والانواء والعيش صفو ومجالس الطرب والغناء قائمة في كلّ مكان وأسواق عكاظ وذي المجاز وذى المجنة الحافلة بالادب ومجالس المحدثين والقصاصين كل اولئك كانت تريد رائدا يدير هذه الحضارة الجميلة فكان أمر الله قدرا مقدورا وفصلت السماء في الامر واشرق فجر مكة عن مولود مبارك ما كان الناس يعرفون انه رائد هذه الامة وقائدها الى الصراط المستقيم كان مولد محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم فاتحة عهد جديد لهذه الامة وكان ذلك ارهاصا لظهور النبوة وبعد خمسة وعشرين عاما من مولد محمد انتاب الكعبة حريق فتصدع بنيانها وهدمت ليعاد بناؤها واشتركت قريش كلها في نقل الحجارة اليها وشارك محمد في ذلك ولما بلغ البناء موضع الحجر الاسود اختصمت القبائل في شأنه فكل قبيلة تريد أن تحتجز الشـرف لنفسها في رفعه الى موضعه وكاد القتال ينشب بينها لولا أن خـرج عليهم رجـل من كبارهم فقال : يا معشر قريش ، حكموا فيما اختلفتم به أول داخل عليكم فكان محمد أول داخل وهتف القوم : هذا الامين وكلنا نقبله ونرضاه . فقال محمد : احضروا لي ثوبا فوضع الحجر فيه وقال لتأخذ كل قبيلة بطرف ثم ارفعوه جميعا حتى اذا بلغ الموضع اخذه بيده ووضعه في مكانه واتموا بناءها وزادوا تسعة اذرع عن البناء الاول وجعلوا لها سقفا وميزانا ينزل منه المطر .

فكانت هذه اول زيادة في الكعبة منذ ان وضع قواعدها ابراهيم عليه السلام وكانت هذه الظاهرة ابتداءا للرائد الاول وارهاصا للنبوة فقد اجمع القوم ان محمدا أمين هذه الامة وانه هو الذي يحل مشكلها ويجمع كلمتها وانه القائد المنتظر واخذت العناية الالهية تعد محمدا لامـر جلل وحادث له ما بعده .

مُحَمَّدُ بنُ قُرَيش في مُستَهَلِ حَياتِهِ الاجتماعِيّة

بدأ نجم النبوة يتلألأ في جبين محمد ووجد القوم فيه قبل مبعثه صفة الرجولة وعلائم العبقرية فكان لا يتصرف الا تصرف الشهم الأبي والحليم المتزن وكان يخرج مع القوم الى عكاظ ومجنة وذى المجاز الى هذه الاسواق التي كان يقيمها العرب في الاشهر الحرم بجوار مكة وكانت تعرض البضائع فيها وتنشد الاشعار ويبدى كل ذى رأى رأيه وتخطب الخطب وكان القوم يتنافرون ويتكاثرون ويتفاخرون وكان كل شخص ينشر رأيه ويبدى عقيدته وهو آمن مطمئن لانه في الاشهر الحرم وكان محمد يجد في هذه المعارض المزدحمة آفاقا واسعة للتفكير في خلق الله وفي نفسه • والى هذا كله كان محمد يرعى غنم أهله ممن يريد ان يعهد بأغنامه اليه فاذا خرج الى البر رأى هذا الفضاء المنبسط تمرح به الاغنام السارحة تتدافع لتقضم العشب أو تتفيأ الظلال ورأى في وداعة مشيها وتدافعها على قضمة العشب أو شجرة الشيح لونا من الوان الغرائز وكانت

له فيها دراسات كأن العناية الآلهية الهمته أن يمشي في مستهل حياته هذه المشية الوئيدة الفاحصة المفكرة • والراعى الحذر المتعقل يحنو على غنمه حنوه على أطفاله فلا يعطشها ولا يجوعها ولا يتركها هملا • ان رعى الاغنام يوقظ في النفس الشعور بالرحمة والعطف ويدرب الرأى والعقل على حسن الادارة والتدبير والنظام كان محمد يأخذ غنمه في السهول والوديان ويصعد بها على الهضاب ويهبط في الشعاب ويردها موارد الماء فكانت هذه المشاهد الطبيعية في الكلأ والماء والطير في السماء والوحوش السارحة في الفضاء مجالا وسيعا يجد فيه محمد متعة العقل وراحة النفس • وكان يطلق لخياله أن يحلق ويسبح في ملكوت الله فيرجع الى نفسه ويقول ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك • عصمت هذه المشاهد وهذا التفكير محمدا من زلة الشباب ولهو الفتيان فكان رفيع الجانب عفيفا صادقا وأمينا حتى غلب عليه هذا اللقب الجميل فلا يوصف به أحد غيره ولا يقال « الامين » الا له • مضى محمد في رعي غنمه ردحا من الزمن حتى اذا ايفع وصار يقتعد مكان الرجولة جاءه عمه أبو طالب وقال له يا ابن أخي انني رجل لا مال عندى وقد احوجتنا الايام وخديجة بنت خويلد تستأجر الرجال في الخروج بأموالها للتجارة فهل تريد أن أكلمها فقال : الامر اليك يا عم • وذهب أبو طالب الى خديجة فسألها أن تستأجر محمدا فأجابت قائلة : « لو سألت ذلك يا أبا طالب لبعيد بغيض لاجبناك فكيف وقد سألته للقريب الامين » •

فقال ابو طالب : يا ابن أخي هذا رزق ساقه الله اليك وخرجت القافلة وخرج محمد معها يتصرف مع القوم تصرف الرجل الحكيم فأحبه التجار واحترموه واطاعوه فباع وقايض وابدل ما ابدل وربح ونجح ومع ذلك فلم ينصرف عن التفكير في ملكوت السموات والارض وعاد بالتجارة الى خديجة ونقل اليها ما فعل فاصغت اليه وسرت بحديثه واعجبت بامانته وسمو خلقه وتمنت ان يكون هذا الشاب الصالح الامين زوجا لها وهي التي رفضت يد كبار رجال قريش واثريائهم ولم تكتم رغبتها ، فتحدثت

الى المقربات من النساء وعلم محمد بذلك وكان الذى اعجبه من خديجة ادبها وحزمها وزفت سيدة قريش الى أمين قريش وسيدها •

وبدأ محمد حياة جديدة مع زوجه المكتملة وتهيأ له بيت فيه برد الراحة وانصرف الى انفراده وتفكيره في ملكوت السموات والارض يخرج الى الفضاء الطلق يتأمل مشاهد الطبيعة ويصغى الى احاديث القوم ويشاركهم في عكاظ وذى المجاز ومجنة ويخلو لنفسه يصعد الجبال ويهبط الى الوديان كأنه يريد أن يجد شيئا ينتظره ولم يمنعه ذلك كله أن يكون صاحب البيت الكفء الذي يظلل بيته بأدارته وتدبيره وكانت خديجة المرأة الذكية التي عرفت ما يحب وما يميل اليه وفهمت طريقة حياته فكانت تعينه على تفكيره • والمرأة في طبيعتها تكون نافذة البصيرة تعرف في الرجل ما لا يعرفه الرجل في نفسه • هي سر اندفاعه في الحياة وهي سر شقائه • فكم عظيم كانت المرأة وراء عظمته وكم عظيم نزلت به المرأة من عليائه وقضت على عبقريته واندثر في مطاوى الجهل ولم يعد الا خبرا من الاخبار •

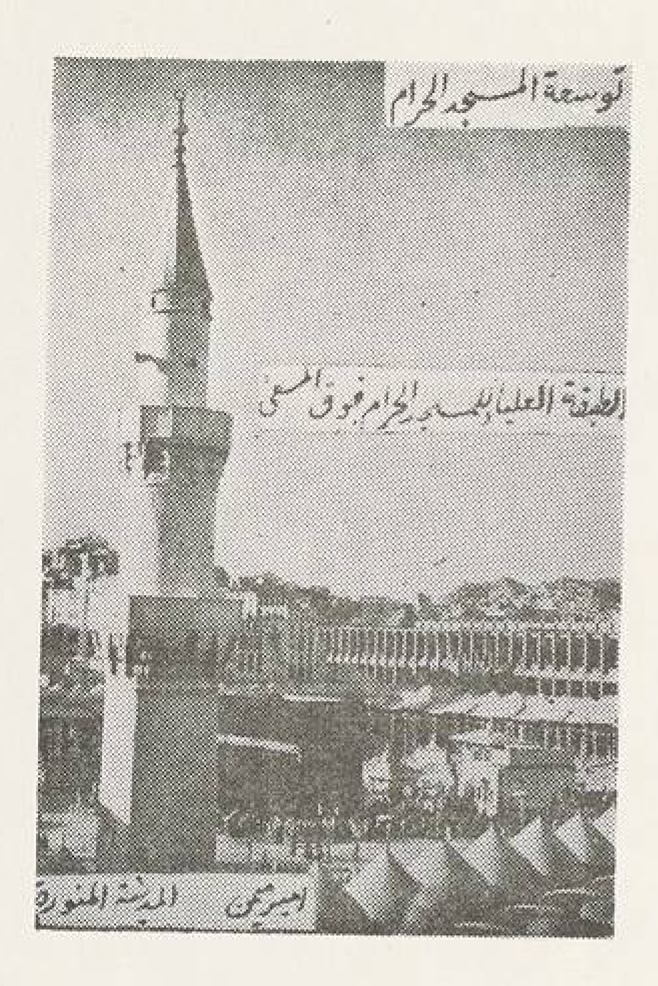
وكأن العناية الآلهية على موعد مع النبي المنتظر فهيأت له سبل النجاح في بيت هادىء مطمئن وزوج صالحة تعمل لمحمد ما يود وما يحب وظل محمد على عهده القديم يغدو الى فضاء الله يتأمل مشاهد الكون ويروح على بيت يلفه السؤدد والشرف ويمر بالكعبة فيجد ما يحزنه وما يؤلمه ، يجد عبادة الاصنام من دون الله يجد عبادة « هبل » في جوف الكعبة واحترام « أساف » على ربوة الصفا وتبجيل « نائلة » على ربوة المروة ويسمع باللات والعزى ومناة في ارجاء البلاد ويسمع ان بيوتات العرب الكبيرة تحمل اصنامها في حلها وترحالها ويجد في عبادة هذه الاصنام ذلة في النفوس ما بعدها ذلة • ويجد فيها أمراً منكراً تأباه طبيعة العرب ذات الاباء والشمم ثم يلتفت الى القوم فلا يجد في لسانه ما يستطيع به ان يقوله لهم • كان يتأمل ويفكر ويلف تأمله وتفكيره الصمت فلا ينبس ببنت شفة فيما يجول بخاطره ولكنه مع ذلك يتحدث الى القوم حديثا لطيفا لا يخلو في ثناياه من مفاكهة وكان محدثوه يصغون اليه ويقدرون حديثه حق قدره

لانهم كانوا لا يعرفون في كلامه الا الجد ولا يجدون في حديثه الا الصدق ولم يكن بدعا هذا الصمت في محمد فقد كان يفكر في تكوين امة ولـم شعب فان الشعوب لم تتكون عفو الخاطر ولا نبتت نبات الاشجار انها خلقت بأيدي المبدعين الذين ملأوا قلوب شعوبهم بالايمان والمحبة • خلقها الانبياء الذين كونتهم العناية الآلهية • ان يد الآله التي خلقت آدم من طين وماء مهين قادرة على أن تصنع العباقرة وتجهزهم بقوة خفية هى قبس من منبع النور المقدس نور الآلهة • وهذا القبس هو الذي يشع فينفذ الى قـلوب الناس فيغمرها بمحبة العبقرى واحترامه • هكذا كانت شخصية محمد كانت شخصية جذابة وهكذا كانت حيـاة محمد في مجتمع قريش • كـان في حديثه قوة وجزالة وكان في كلامه كأنه يبت في أمـر أو يحكم بقضية وكان الناس يلتفون حوله ويدورون في فلك جاذبيته لا يفلتون منه ولا يقتربون من عظمة سره • كان محمد ينظر الى صناديد قريش في فصاحتهم وسؤددهم فيهابهم ويجلهم وتدفعه القوة الآلهيه ليصدع بما يؤمـر فيتأخـر فكان يبتعد عن مجالسهم ، ذلك لان العناية الالهية لا ترسل الرسل الا في اكتمال سن الرجولة في الاربعين من العمر فما كان محمد يألف الغوغاء ولا يجد راحة بينهم لانه كان يعتقد أن نضج التفكير هو الذى يحـول الغوغائية الى قوة فلابد من الابتعاد عنهم حتى يأتي الوقت الذي يمكن فيه تحويل طاقة الشر الى منابع الخير • وكان يبتعد عن أمجاد الشهرة لانه يعلم ان المتواضعين هم الذين يبدعون الحياة الجديدة وهم الذين يصنعون الامجاد •

كان محمد يرى فئة من قومه في الذروة من الفضائل ويرى فريقا من القوم عبيد الشهوة • ويرى تعلق القوم جميعهم بالكعبة في الاشـهر الحرم فيغمره الامل في أن يأتي يوم فيه يقبل عليه الفاضلون ويدخل نور الايمان في قلوبهم ويضيء جوانب حياتهم فيصبحون قوة له وسندا يستند اليهم • ويملأ الرجاء نفسه في هداية الغوغاء الضالين من عبيد الشهوة يأتى يوم يأتون به اليه فيؤمنون ويكونون ينبوعا للقوة الصادقة في الايمان لان الصدق

في ناحية الانحدار اذا تحول الى الصدق في اتجاه العلو يمعن في الارتفاع حتى يصل الى الذروة •

أمعن محمد في دراسة قومه قبل النبوة وتعرف الى ما يحبون وما يكرهون وعرف مقدار تعلقهم بالكعبة فوجد في ذلك كله مادة وفيرة يكون منها أمة مستقرة آمنة مطمئنة لا تلبث أن ترى خطأها في عبادة الاصنام فتسحقها وترفع الجباه المتمرغة على التراب الى صفحة السماء الهادئة المتلألئة بالنجوم فتهتدى الى ما في هذا الكون من اسرار يرتد عنها الطرف وتقف أمامها العقول • تعلق محمد بجدران الكعبة ووقف عند الحجر الاسود الذي اجتمعت كلمة العرب على قدسيته ورأى فيه رمز وحدة الامة وأمسكه بيده وشعر كأنه أمسك الامة العربية كلها باليد الاخرى • هذا هو شأن الكعبة وهذا هو شأن البيت أيام شباب محمد وقبل النبوة •


توسعة المسجد الحرام
الطبقة العليا للمسجد الحرام فوق المسعى
المدينة المنورة

جَبَلُ النُّورُ - غَارُ حَرَّاء

المكان الأول الذى هبط اليه الوحى

ظلت الكعبة جليلة القدر في عين محمد وظل رجاؤه معلقا بها أن تكون يوما من الايام قبلة الامة الجديدة التي ستخرج على العالم بعقيدة جديدة سامية واستمر محمد يتردد عليها ويطوف بها وينظر الى الاصنام الجاثمة بقربها فيشتد حزنه على قومه فيتركها وينحدر الى بطن مكة ثم يصعد الى الربى والجبال حتى الف العزلة واستروح الصعود على ذروة جبل النور وهو جبل يقع شرقي مكة شامخ الذروة يشرف على الكعبة يرتد عنه الطرف أمعز ينتشر على جنباته الصخر الاحمر ويرتفع حتى يصل الى ذراه لا تجد فيه نبتة فيه غار حراء مأوى التعبد والعزلة لمحمد ومهبط الوحي الاول لرسالة السماء • ملكتني رغبة في الاطلاع على هذا المكان الخالد وعزمت على أن ازوره ثم توكلت على الله وامتطيت سيارة فارهة في جمع من الصحاب وأخذت تسير بنا السيارات في شوارع منبسطة مفروشة بالاسفلت تتعرج وتلتوى بين ابنية

مكة وقصورها حتى أفضى بنا الطريق الى فضاء واسع تربض فيه خيام الحجاج الوافدين من ارجاء العالم وحول الخيام اكوام الحطب والحجاج رجالا ونساء ينصبون القدور ويهيئون طعام العشاء أو يدقون الاوتاد ويمدون الطنب او يوقدون النيران ويغسلون القدور والمواعين آمنين مطمئنين في هذا الشهر الحرام الذى قدسه العرب في الجاهلية والاسلام ٠ وكانت الشمس قد اخذت تجنح الى الغروب قد اعياها التعب فأصفر وجهها ونشرت ذوائبها على ذرى هذا الجبل الامعز وسالت على جوانبه حتى جللتها بلون ذهبي فاقع انارت صخوره الحمراء فظهر كأنه جبل من نور يتلألأ سناه وأخذ النهار يكفكف أطراف اذياله ويلبس ملاءة الليل ولكنني مع ذلك كله هممت ان اصعده وكدت ولم أفعل لان امرأة حجزتني عن ذلك كانت تجلس على قدمي الجبل بين صخوره الناتئة الضخمة واحجاره المتناثرة وحولها صبية صغار وقالت حين رأتني اتخطى صخوره واتوقى نواتىء احجاره « حاجة لله يا حاج » فقلت لها سأعينك بعد نزولي من الجبل ان شاء الله ٠ فقالت : انك سوف لا تنزل الا وقد لف الليل هذا الجبل بظلامه وعند ذلك لن تراني اذ آخذ صبيتي الى مأواهم ونظرت الى ذروة الجبل تارة اخرى فارتد الى طرفي وصدق النظر الخبر وآمنت بقول العجوز المسكينة ثم رأيت انصراف الناس من حوله وكانوا كثيرين ينظرون اليه ويستوحون روحانية المصطفى في روعة الموقف ٠ لقد حال زحف الظلام دون الصعود الى ذروته ولكن الخيال جنح بجناحيه ولم يقف دونه صخر صلد ولا جبل أمعز وشرع ينظر في مطاوي التاريخ ويتأمل ويسأل لماذا اختار محمد هذا الجبل ليكون محل اعتكافه وكيف كان يصعد اليه وكيف كان يعيش في غار حراء في جبل النور انه جبل شامخ الذرى وفي شموخه معنى العزة والانفة انه وعر لا تصل اليه الا القدم الثابتة والنفس الحامحة الصابرة لقد اختار محمد هذا الجبل الصعب المرتقى لان الامانة التي سيحملها كانت ثقيلة وصعبة فكأن العناية الآلهية ارشدته ليتمرن ويتدرب على حمل الشدائد واقتحام العقبات لقد اراد محمد

ان يكون في الذروة ولتكون الكعبة تحت ناظريه وليكون هذا البيت الذى جمع العرب من حوله عاصمة العرب وينبوع عزهم ومصدر مجدهم اراد أن تكون الكعبة منطلق فرسانهم وقادتهم وناشري رسالة السماء في شريعة عادلة غراء •

اتخذ محمد غار حراء مثوى له يتحنث فيه شهرا في كل عام ويأتي أهله اليه في الفينة بعد الفينة يزودونه بالزاد ويطمئنون عليه ويجتمع اليه الفقراء والمساكين في وضح النهار ثم يتركونه •

لقد كانت هـذه العزلة مبعث الصفاء في روحـه والارهاف في عقله والنفس الصافية تستشف حجب الغيب وتنفذ الى ما وراء الافق وحسبك ان ترى ذلك في نفسك فان صفاء الذهن وراحة الفكر يبعثان صفاء الفكرة ويهيئان للمرء ان يبدع ، والفكر الصافي ينبوع الحياة الجميلة والعباقرة في العالم هم اصحاب الذهن الصافي الذين جملوا الحياة في الادب والفن والعلم ولهذا اختارت السماء محمدا (ص) ليقدم للعالم هذا القرآن المجيد وهذه الشريعة الغراء •

اخذت فكرة القيادة على محمد كـل طريق ولم تدعـه يفلت كان قائـدا موفقا في رعي الاغنام وكان قائدا موفقا في تجارته وكان أمينا سيدا في القوم وكان يرى الرؤيا الصادقة في نومه ويجد في أحلام اليقظة عز قومه ويرتفع به الخيال فيجد مرتعا خصبا لتفكيره يعتكف محمد في الغار شهرا من كل عام • يأتيه المساكين فيطعمهم ويأتيه أهله يحملون الزاد فيكرم مثواهم فاذا قضى شهره من عامه نزل من جبل النور الى بطن مكة وأخذ سمته الى الكعبة فيطوف بها سبعا او ما شاء الله من ذلك وكانت خديجة الزوج الصالحة الطيبة تهيء له برد الراحة وتغمره بحنان الزوج الصادقة المؤمنة الحبيبة •

وفي ليلة غراء من شهر رمضان بينما كان محمد غارقا في نومه هادئا مستطيبا أحلامه فجاءه طائف من الرحمن فهب مذعورا وقال يحدث عن هذا الطائف السماوي : انه شخص جميل الصورة يحمل بيده صحيفة من

حرير فضمني اليه وكاد يخنقني ثم ارسلني وقال اقرأ فقلت ما اقرأ • ثم ضمني مرة اخرى وقال اقرأ فقلت ما اقرأ • وقد احسست أنه يريد ان يضمني الثالثة فقلت ما أقرأ ؟ قال اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم • قال النبي : فقرأت ما أملاه علي الملك وقد نقش في قلبي نقشا ثم تركني وانصرف •

هذا هو العقد الالهي الاول بين السماء والارض وهذه هي الرسالة الاولى في غار حراء وهذه أول براعة استهلال في مجد العرب وعزهم القراءة والكتابة مفتاح الحضارة وباب المعرفة والطريق اللاحب لتكوين العقل وتهذيب النفوس وتربية الغرائز والتوجيه الصحيح • ان محو الامية وقتل الجهل خطوة أولى الى آفاق العلم ومعرفة اسرار الكون • وهذه أول وثيقة كتبت في خلود الامة العربية أملاها جبريل وقبلها محمد •

جزع محمد لهذا العقد السماوي واصابه الفزع وطفق يتلفت يمنة ويسرة في أرجاء الغار وانطلق في فضاء الله يخشى انه طاف به طائف من الجن كما كانت تزعم العرب ثم وقف مبهوتاً يسأل نفسه من الذي اقرأني ؟ ومن هذا الذي الحّ علي حتى اجبته واخذت على نفسي عهدا أن أقرأ ونزل محمد من جبل النور يرتعد فرقا ويتصبب عرقا ففجأه صوت سماوي يناديه يا محمد أنت رسول الله وأنا الناموس الاكبر أنا جبريل انني مرسل من السماء لابلغك رسالة ربك وأحملك أمانة هذه الامة التي تنتظر اشراقة رسالتك وتأدية أمانتك وترك محمد الغار حيث لم يجد فيه بعد مأوى آمنا وطفقت الزوج الصالحة خديجة ترسل رسلها يلتمسونه فلا يجدونه وأخذها الخوف عليه ولما هدأ روع محمد وانصرف الملك عن وجهه عاد الى أهله يرتجف ويرتعد ودخل البيت يقول زملوني دثروني فزملته خديجة ودثرته • وهي خائفة عليه أن يكون نزل به مرض فلما اطمأن به المكان وأنس بمن حوله سألته خديجة عما به فقص عليها ما حدث معه وهنا بدت غريزة المرأة في الاعتزاز بالزوج وشرعت تتفحص مواطن العظمة والرجولة في محمد وهي تعرف ان كلام

المرأة اذا صحبه الجد ولطفه الحنان دخل القلب بلا استئذان ونظرت اليه نظرة المعجب وقالت بكل حزم وشمم : ابشر يا ابن العم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده اني لارجو أن تكون نبي هـذه الامـة وكانت خـديجة اكتشفت فيه مجموعة فضائل الرجولة ورضيته زوجا لها واستمرت تقول : ما بالك تخشى وانت تصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الامانة وتحمل الـكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق • كل هذه الصفات وجدتها خديجة في محمد وعلمت أن العظمة تظلله حيث أقام أو رحـل • اطمـأن محمد لهذا القول الفصل والوصف الجميل الصادق وهدأت نفسه وخرج يطوف بالـكعبة يناجي ربـه وينظر الى الاصنام يراهـا تتهاوى وتخـر الى الاذقان وتنتظر ساعة الزوال • ورن في سمع محمد وهو يطوف بالـكعبة صوت السماء : يا أيها المدثر قم فانذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر فايقن ان الذى رآه هو جبريل وان الله أمره ان يؤدي الامانة ويرفع صوته ويقول الله أكبر من هذه الاصنام ومن عبدتها والله أكبر من هذا الضلال الذى يغمر هذه الامة وان الله يأمره ان يصبر على أمر ربه ويحمل ما ألقى اليه من أعباء النبوة ولا يذهب من صبره ما يناله من الاذى فان الذى يريد أن يخلق أمة عليه أن يتلقى الاذى فعزم محمد أن يدعو القوم وان يصبر على أذاهم لانه يعرف قومه ويعرف شدة تعلقهم باصنامهم ووفائهم لعاداتهم وطقوسهم ويعلم ان اقتلاع العـادة السيئة من نفوس الفتها أصعب من اقتلاع الجبل • وضع محمد هذه الصعوبة في كفة ووضع حمله الامانة في كفة فرجحت الاخرى وعزم وتوكل على الله • بيد ان حادثا قد حدث أحزن محمدا وجعله يفـكر في أمره لان ذلك الصوت الجميل والرنين البديع لم يعد يمر بسمع محمد فقلق وجزع وعاد تارة أخرى الى غار حراء يتعبد ويتحنث يقضي الليالي والايام وظن ان الله ودعه وكرهه ونزلت عند ذلك سورة والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلى •

وعاد محمد الى داره تلك الدار التى يجد فيها برد الراحة وبحبوحة

العيش والزوج الصالحة الذكية فأخبرها بالوحي فآمنت به وصدقت بكلمات ربه وآمن به ابن عمه علي بن ابي طالب وكان لا يزال في ميعة الصبا وقد كان محمد كفله ورباه في حجره ونشأه في مدرسته حتى أصبح سيف الاسلام وعماده وهكذا بدأت الرسالة من الكعبة وغار حراء وبيت النبوة ٠

وظل محمد يعبد ربه خفية ثلاث سنوات يطوف بالكعبة ويرى الاصنام ترنو اليه ويرى فيها عنوان الذلة وينتظر اليوم المجيد التي تتحطم به هذه الاحجار التي ربطت عقول صناديد العرب ودهمائهم فلا تستطيع الانطلاق في فضاء واسع وعز عليه أن يصبر فلا يجهر بالقول حتى الهمته السماء ونزلت عليه آية الكتاب المبين : « وانذر عشيرتك الاقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل اني برىء مما تعملون وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك تقوم وتقلبك في الساجدين انه هو السميع العليم » ٠ فاستبشر محمد بهذا العزم ودعا عشيرته الاقربين واخذ يحدثهم بما وصل اليه من ربه وقال لهم فيما قال : « ان الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ولو غررت الناس ما غررتكم والله الذي لا اله الا هو انى لرسول الله اليكم وما أعلم احدا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به لقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ٠

وانقسمت عشيرته فريقين فريقا آمن به وصدقه وفريقا زوى وجهه عنه وناوأه فما لان ولا تراجع وخرج من دائرة عشيرته الضيقة الى دائرة قريش الواسعة ووقف أمام الكعبة على ربوة الصفا بالقرب من الصنم « اساف » صنم قريش المعبود ونادى : يا معشر قريش ! أرأيتم لو اخبرتكم ان خيلا تخرج بسفح هذا الجبل اكنتم تصدقونني ؟

قالوا نعم ما جربنا عليك كذبا قط ! قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ٠ يامعشر قريش انقذوا انفسكم من النار فانى لا اغنى عنكم من الله شيئا اني أدعوكم الى ان تشهدوا ان لا اله الا الله واني رسول الله ٠

كان محمدا واثقا من نفسه فهو الامين وهو الرائد الذي لا يكذب

أهله وهو القائـد الذي يريد أن يجمـع أمة على التوحيد في الله ووحدة الكلمة في المجتمع وينقذها من هذا التفرق والشتات في ظلال اصنام منحوتة من الحجر لـكل قبيلة صنم ولـكل جمع آله •

كان هم محمد ان يجمع كلمة العرب على مبدأ واحد لانه كان واثقا ان الوحدة هي سبيل القوة وان القوة هي التي تحفظ الدعوة وان الدعـوة انقاذ للانسانية من الظلم والاستعلاء والاستغلال انه كان يريد من القوم ان يكونوا اخوة في ظلال التوحيد اخوة في ظـلال القـرآن دسـتور الامـة الاسلامية •

ولم يكتف محمد بدعوة قريش وحدها بل شرع يقف على منازل القبائل ويقول : يا بني فلان ! اني رسول الله اليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وان تخلعوا ما تعبدون من دونه ، من هذه الانداد وان تؤمنوا بي وتصدقوا بي وتمنعوني حتى ابين عن الله ما بعثني به •

وكانت قريش تجد في هذه الدعوة تحديا لعقيدتها فوقفت ضده ومنعته وآذته وتحمل من الاذى ما لا يتحمله الا نبي مرسل يريد ان ينقل قومـه من الظلال الى الهدى •

وكان أكبر شيء على محمد ان يرى هذه الاحجار المنصوبة تتناوح على الصفا والمروة وبين يدي الـكعبة ويرى صناديد قريش وفصحاءهـا وشعراءها يخرون لها للاذقان سجدا وكان يحزنه ان يرى في هذه الجماعة من قومه معدن الرجولة والعبقرية يصدأ يوما بعد يوم ولا يوجد صائـغ يصوغه • ان أصعب شيء على العبقري ان يعلم ويهذب ولا يجد لتعليمـه اذنا صاغية ولا قلبا واعيا • وكان أصعب شيء على محمد ان يرى اتباعه ينال منهم القوم مالا يناله العدو من عدوه ولـكنه صبر واحتمل واوذي في دعوته واستمر فظفر • كان محمد يرى النصر بين عينيه ولذلك لم يتسرب اليأس الى قلبه وكان ينتظر في هذه المجموعة المثقفة من رجال قريش املا قويا في الاستجابة الى دعوته ويجد فيهم العون الصادق اذا دخل الايمان في قلوبهم •

ما استطاعت قريش ان تستفزه أو تغضبه وكان جل ما يجيب به الاذى قوله اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون •

وهجر محمد مكة كما اسلفنا وذهب الى المدينة الى الاوس والخزرج الى الانصار ولحق به جمع من الصحابة واشتد الاسلام وقويت شوكته ولكن محمداً كان لا يزال ينظر الى الكعبة انها منبع النور وانها مصدر الاسلام وانها القبلة التي تتجه اليها قلوب المؤمنين ويعز عليه ان يترك الاصنام جاثمة حولها • ورأت قريش ان محمداً يزداد قوة بعد قوة واخذت تناوئه وفي السنة الثانية وقعت واقعة بدر الحاسمة وفي السنة الثالثة ثأرت قريش لنفسها في غزوة أحد وفي السنة السادسة خرج محمد معتمرا غير محارب فوقفت قريش بشبابها وشيبها عند الحديبية على بعد عشرين كيلو مترا من مكة تمنع محمداً من رؤية الكعبة التي أحبها ووجد فيها رمز وحدة الامة وحلفت يمينا « لا يدخل علينا عنوة ابدا ولا تتحدث بذلك عنا العرب » •

ووقف محمد ينظر الى عناد قريش بعين والى تدفق قوة المسلمين بعين أخرى ثم أخذ يتأمل وكلما أمعن في الامر وجد ان الخسران سيكون في مادة العرب وان الصناديد من الطرفين سيجدلون في ساحة الوغى فاعرض عن ذلك ووجد في المصالحة خير مخرج لعناد قريش وخير مكسب للمسلمين حيث اعترفت قريش بشوكة الاسلام وكثرة العدد وقوة العدة واتسع المجال للمسلمين لنشر الدعوة في هذا الاجل الطويل الذى أمده عشر سنوات يكف الفريقان فيها عن القتال وان تخرج قريش من مكة في العام المقبل لضمان زيارة الكعبة والمكوث حولها ثلاثة أيام دون سيف ومزراق وقتل ودم مهراق •

مَشرِقُ الدّعوَة

وفي العام السابع عاد النبي ومعه الفا معتمر دون ان يحول بينه وبين الكعبة حائل فدخل مكة وطاف حول الكعبة ودخل في دين الله اثنان من صناديد قريش هما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص • وفي السنة الثامنة نقضت قريش العهد فاستعد الرسول لفتح مكة والطواف حول الكعبة قبلته وموطن رجائه واكمل العدد واعد العدة وتوكل على الله وقال : « اللهم خذ العيون والاخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها • واوصى النبي القواد والجيش ان لا يقاتلوا الا من يقاتلهم ولا يجهزوا على جريح ولا يقتلوا اسيرا ولا يتبعوا مدبرا •

وسار جيش المسلمين وجزعت قريش ولكن محمدا لا يريد قتالا لانه يعلم ان الخسران من الجهتين خسران لقوة العرب • واعلن على الملأ من دخل البيت كان آمنا ومن دخل دار ابى سفيان وكانت باعلى مكة فهو آمن ومن دخل دار حكيم وكانت باسفل مكة فهو آمن واغلق الناس ابوابهم

والقوا السلاح .

ومضى موكب النبي الى الكعبة واستلم الحجر وطاف ووقف في جمع من قريش وقال فيما قال « لا اله الا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده .. يا معشر قريش ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالاباء الناس من آدم وآدم خلق من تراب وقرأ الآية « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

ومشى النبي الى صنم جاثم بجانب الكعبة فجعل يطعن في عينه ويقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » .

وتسابق المسلمون الى الاصنام فجاءوا بها الارض كسرا وتحطيما ودفع النبي مفاتيح الكعبة الى سدنتها قبل الفتح وقال :

« خذوها يا بني عبدالدار خالدة تالدة الى يوم القيامة لا ينزعها منكم الا ظالم » .

احتضن محمد الكعبة عند الملتزم ونظر الى الاصنام تتهاوى والى كلمة الله تعلو والى وحدة الامة تتماسك والى نخوة الجاهلية في العصبية والتفرقة تلوذ فرارا وبدأت قلوب القوم تتفتح الى تشريع جديد وبناء مجتمع فاضل في ظل عدالة واخاء ومكث محمد في ظلال الكعبة اسابيع ثم استعمل على مكة عتاب بن اسيد واوصاه باهلها خيرا وقال له :

« أتدري على من وليتك يا عتاب ؟ .. على جيران بيت الله فاستوص بهم خيرا » . اطمأن الناس لهذا الفتح المبين ونزلت السكينة على قلوب المؤمنين وعم الامن في ارجاء البلاد ووفد المهاجرون والانصار من المدينة والتحقت بهم قبائل العرب تحت امرة ابى بكر اول امير للحج واخذ المسلمون يطوفون حول الكعبة . وكان أبو بكر يبين لهم مناسكهم والمشركون يؤدون مناسكهم على حسب ما ورثوه من تقاليدهم وعاداتهم وبينما هم على هذه الحال وافاهم علي بن ابى طالب يحمل رسالة النبى اليهم ويعلن نزول سورة براءة ويقول : « لا يحج بعد هذا العام مشرك

ولا يطوف بالبيت عريان • وانه لا عهد لمشرك ولا ذمة لاحد الا لمن كان له عند رسول الله عهد وعهده الى مدته وان الله امر بجهاد الشرك ممن نقض من اهل العهد الخاص ومن كان لا عهد له فاجله اربعة اشهر يرجع فيها كل قوم الى مأمنهم ثم لا عهد لمشرك بعدها •

طابت نفس محمد بالفتح المبين وارتاح الى جمع كلمة العرب وايقن انه سيعدهم لخلق مجتمع فاضل ولنشر عقيدة السماء في ارجاء العالم وازدادت نفسه طيبا أن طهر الكعبة من الشرك ونقلها الى عالم يشع بالنور ويضيء الكون •

الأطوار التي مرت بها الكعبة

تداعت الاصنام من حول الكعبة وولت وثنية الشرك واستعلت الفكرة الاسلامية وصفا الفكر العربي وبدأت للعرب حياة جديدة في فنون السياسة والحرب والتشريع وكان ابرز ما في التشريع توخى العدالة والمساواة ومجاراة الطبيعة والفطرة التي فطر الله الناس عليها وأجل ما ولده الدين الاسلامي في فتيان العرب وكهولهم وأوحاه الى شيوخهم الرجولة والمروءة أو كما يسميها الناس به الفروسية وكانت الكعبة قبلة الجميع يتوجهون اليها ويدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وفي هذه الفكرة كفاية في تربية النفس وترويض الغرائز لفعل الخير وتجنب الشر وتقارب النفوس وتوحيد الهدف • لقد كانت الميول موزعة بين اساف ونائلة واللات والعزى وغيرها من أصنام قريش فصارت الى آله واحد لا شريك له رب البيت ورب هذه البنية التي صارت رمز الوحدة ورمز القوة • وظلت الكعبة قوية البنيان صامدة الاساس على عهدها الاول منذ وضع الامين الحجر

الاسود في محله مع قبائل قريش حين كان من عمره في الخامسة والعشرين •

وتوفي النبي (ص) ولم تزل كما كانت واستمرت الحال بها في عهد الخلفاء الراشدين حتى حاصرت عساكر دمشق عبدالله بن الزبير عام أربع وستين فاخذ رجل من أصحابه نارا في ليفة على رأس رمح وكانت الريح عاصفة فطارت شرارة فتعلقت باستار الكعبة فاحرقتها وتصدعت حيطانها واسودت وتناثرت احجارها فلما انصرف العسكر عن حصارها شاور عبدالله بن الزبير اصحابه في هدمها وبنائها فاختلف الرأي بينهم فقال ابن الزبير قد بلغني أن رسول الله (ص) قال لو كانت بنا سعة لبنيته على أس ابراهيم ولجعلت له بابين شرقيا وغربيا واستقر رأى ابن الزبير على هدمها فلما هدمت قال الناس كيف نصلي بلا قبلة وأمر ابن الزبير بموضعها فستر ووضع الحجر في تابوت في خرقة من الحرير ووصفه عكرمة قال رأيته فاذا هو ذراع أو يزيد وكان جوفه أبيض مثل الفضة وجعل حلى الكعبة عند الحجاب في خزانة الكعبة • فلما أراد بناءها حفر من قبل الحطيم حتى استخرج أس ابراهيم وبنى عليه وجعل لها بابين ملصوقين بالارض شرقيا وغربيا يدخل من واحد ويخرج من الآخر وجعل على بابها صفائح الذهب وجعل مفاتيحها من ذهب وبقيت الكعبة في أيام ابن الزبير على حالها الى أن دخل الحجاج مكة فهدمها وبناها بأمر عبدالملك ابن مروان واخرج الحجر منها وأعادها الى بناء قريش ويذكر المؤرخون أن المهدي هم أن يعيدها الى مثل بناء ابن الزبير فاستشار الامام مالكا بذلك فقال مالك : اني أكره أن يتخذها الملوك لعبة : هذا يرى رأى ابن الزبير وهذا يرى رأي عبدالملك بن مروان فيتناولونها بالنقض والبناء فاحجم المهدي ولم يفعل •

وأول من كساها سعد اليماني ثم كساها النبي (ص) بالثياب اليمانية ثم كساها عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان بكتان رقيق يعمل بمصر يسمى القباطى من بيت المال وكساها عبدالله بن الزبير بالديباج ويعزى ذلك الى عبدالملك بن مروان وكساها المأمون ثلاث كسى في العام فتكسى القباطى في رجب وتكسى الديباج الابيض يوم سبعة وعشرين من رمضان وتكسى

الاحمر يوم التروية وهو اليوم الثامن ذى الحجة وكان الخلفاء العباسيون يتبارون في كساء الكعبة اما الفاطميون فكانوا يكسونها البياض • ولما آل الامر الى العباسيين البسوها الديباج الاسود •

وأهم ما حدث للكعبة بعد الاسلام زحف القرامطة على الكعبة وهم جماعة دوخت الدولة العباسية اواسط ايامها فقد ثارت هذه الجماعة ضد الحكم العباسي بغية القضاء عليه وزحفت جيوشهم على مكة ودخلتها في اليوم السابع من ذي الحجة من عام ٣١٧هـ ودخلوا المسجد الحرام ووضعوا السيف في الطائفين والعاكفين والركع السجود حتى قتلوا على ما يرويه المؤرخون ما يزيد على ثلاثين الفا ونهبت جيوشهم اموال الحجاج وبيوت أهل مكة حتى أصبح أهلها يستعطون الناس وفي اليوم الرابع عشر من ذى الحجة قلعوا الحجر الاسود من مكانه وحملوه الى هجر وبقي موضعه خاليا يضع الناس ايديهم فيه للتبرك نحوا من اثنتين وعشرين سنة ثم اعادوه الى محله •

ظلت الكعبة حرما آمنا في الجاهلية وصدر الاسلام لا يقتل فيها صيد ولا ينال أحد من آخر نيلا طوال الاشهر الحرم وظلت رمزا للسلام يفد العرب اليها من كل مكان يتناشدون الاشعار يتفاخرون ويتكاثرون ويبيعون ويشترون ويعقدون الاسواق حتى دخلت أقوام في دين الله تكمن في نفوسها عادات وتقاليد ليست من عادات العرب ولا تقاليدهم • فاستهزءوا بالقيم الانسانية وصارت مبادىء الدين العوبة في أيديهم يفعلون بها ما يشاءون حرفوا القرآن عن مواضعه واتخذوه وراءهم ظهريا وصاروا حربا على الاسلام والعرب وبذلك بدأت الفتن في الشرق العربى ولم يترك هؤلاء فرصة للنيل من العرب والاسلام الا افترصوها • وما رأى الشرق العربي حكما عادلا ولا رأى راحة واستقرارا الا على ايدي العرب ذلك لان هذا العنصر في طبعه وتقاليده حفظ الجوار وجاء الدين الاسلامي فنمم في العرب مكارم الاخلاق وأحسن ما في طباعهم انهم لا يعرفون التفريق العنصري الذي تقره عادات الامم الاخرى في جنوبي أفريقيا أو البيض مع زنوج

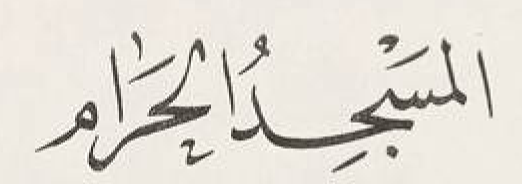
أمريكا ويكفي العربي أن يكون أخا المسلم اذا سمعه يقول لا ا ٓله الا الله محمد رسول الله .

اعتدى القرامطة على الكعبة واقتلعوا الحجر الاسود ظنا منهم انهم يصرفون الناس عن بيت الله الحرام فخاب فألهم وظلت الكعبة قبلة العرب والاسلام في مشارق الارض ومغاربها وسيظل القرآن يرن في ماآذنها يسمع العالم صوت الحرية والاخاء والمساواة والعدل وسيظل ايضا مصدرا للتشريع ونورا يهتدى به الضالون في بيداء الجهالة الجهلاء .

وكان آخر بناء للكعبة ما حدث ايام السلطان مراد عام ١٠١٩ من الهجرة حيث تشقق الجدار الشامي ففكر بهدمه واعادة بنائه فلم يوافق العلماء على رأيه واقترحوا ان تحزم الكعبة بحزام نحاسي قوى يشد جدارها فوافق على رأيهم وغلف الحزام بالذهب الخالص وبلغت نفقاته نحوا من ثمانين الف دينار وقد اراد هذا السلطان ان يعيد بناء الكعبة بحجارة موشاة بالذهب فمنعه شيخ الاسلام وفي اليوم التاسع عشر من شعبان من عام ١٠٣٩ من الهجرة امطرت السماء مطرا غزيرا فسالت الوديان والبطاح وطغت على المسجد ففاض به وبلغ السيل باب الكعبة فأمتلأت فانهار جدارها الشامي والشرقي وثلثا الجدار الغربي فعقد أمير مكة في اليوم الثاني والعشرين من الشهر مجلسا واستفتى علماء مكة فأفتوا ببنائها من اموالها المحفوظة بعد هدم ما تقتضيه الحاجة من بنائها وان يكتب الى الخليفة بطلب المساعدة وفي اليوم السادس عشر من ربيع الثاني من عام ١٠٤٠ من الهجرة حضر مندوب السلطان ليشرف على البناء ورست سفينة تحمل المواد والاخشاب وقطع الحجارون للكعبة احجارا من جبل معروف في الشبيكة سمي جبل الكعبة وقد قامت معارضة شديدة وطلبوا ان يكتفى المهندسون بالترميم وقد تم هدم ما كان ضروريا واستمر البناء الى نهاية شعبان من عام ١٠٤٠ من الهجرة وفي غرة رمضان البسوا الكعبة كسوتها واحتفلوا بتمام البناء ووزعت الخلع والهدايا وقد حدث اثناء عملهم فيما يحيط بالحجر الاسود ان انفلق الى اربع قطع فهالهم ذلك فجمعوا القطع

وحاولوا ضمها بمعجون مركب ضمخوه بالعنبر فتماسك الى امد طويـل ثم تفكك وعالجوه مرة آخرى بمعجون آخر فلم يلبث طويلا حتى تفكك • وعولج مرة اخرى بمعجون آخر فتماسك واستمر تماسكه • واستمر بناء الكعبة قائما الى اليوم •

ماكانت الكعبة محتاجة الى زخرفة الخلفـاء والسـلاطين وما كانت محتاجة ان يختلف في احجارها المختلفون ولا كانت الكعبة تأمل ان تدوس خيل القرامطة فناءها ويهتك حرمها وتسفك الدمـاء على اقدامهـا • انهـا محتاجة الى ظلال الخلق الكريم الى الوفاء بالعهد الى الاحترام والاجلال مما كانت تتمتع بـه في ظـلال عبدالمطلب بن هاشم والى التيه والاكبار اللذين كانت تجدهما في رحاب محمد بن عبدالله (ص) انها اليوم حرم آمن تتمتع بأمن واستقرار وحرمة واجلال من جميع العرب والمسلمين اللهم ان هذا بيتك فاحفظه واحمه واجعله مكانا طيبا لنور الاسلام يشع فيه •


المسجد الحرام

سترتفع اركان المسجد عالية وستتناوح المنائر وسوف يحيط بالمسجد ميادين رحبة تمر بها شوارع واسعة وستنبت اشجار الزينة على حافاتها وسيفرح المؤمنون بهذا المظهر الاسلامي الرائع ويسجدون شكرا لله وحمدا على آلائه • انه مظهر عمراني جميل ومعبد للمسلمين يعبدون فيه رب هذا البيت ومع هذا المظهر الاسلامي الرائع يجنح الخيال الى الحقب الماضية فيمر باسواق مكة التي كانت تعج بالشعراء يتناشدون الاشعار ويعلقون روائع قصائدهم في اركان الكعبة اعتزازا بها وايمانا بتفوق العقل ويعرج على دار ندوة قريش التي وضع أركانها قصي سيد قريش وموئل مجدها في الجاهلية لتكون دار مشورتهم والفصل في احكامهم ويرى عناصر حضارة ومدنية مظهرها هذه اللغة الجزلة ذات المعاني الواسعة التي جاءت بالمعلقات والقصائد الطوال في اشعار الجاهلية ثم يسير الخيال معتزا حتى يصل الى مشرق النبوة الاسلامية ويسمع الى الوحي ينزل على بطاح مكة

وشعابها كصلصلة الجرس تحف به اجنحة الملائكة يقدمهم جبريل ويجمع هذا الوحي المنزل في قرآن عربي مبين فيه نور يهدي من ضل سواء السبيل وفيه حكمه تهذب العقل وتنظيم يكون المجتمع ويلم شمل الاسرة ويكون دولة تعرف الحدود والحقوق تحمي الحمى وتحفظ الاموال وتصون الانفس وفي حديث مبين على لسان نبي في خلق كريم كل ذلك كون مدرسة عالية تبنى الشخصية وتصنع الرجولة تلك هي مدرسة محمد فيها تخرج فريق كبير في الفقه والحديث والادب والعقل الراجح الذي يضع المقدمات ويستنتج النتائج ويقرر الفصل في الاحكام ويفرق بين الرشد والغي وقد برزت عقلية هذه المدرسة بعد وفاة رسول الله (ص) وتكونت جامعة ليس لها جدران اربعة انما كان حرمها في حرم بيت الله وبطاح مكة وفضاء المدينة وأخذت هذه الجامعة تلم أطرافها وتعمل الرأي في شؤون الحياة حتى خرجت مكتملة تهدف الى وضع قواعد التشريع ونظام المجتمع الفاضل وكانت وسيلتها في ذلك القرآن والحديث ونتاج الصحابة من الرعيل الاول ولذلك عرفت بمدرسة الحديث أو مذهب أهل الحجاز ويقولون عنهم انهم كانوا اعرف الناس بحديث رسول الله واخبرهم بفعله وتوضيحه لكتاب الله • وهكذا حمل الحجاز لواء الحديث وصار لمكة والمدينة دالة على المسلمين في ارجاء العالم •

خرجت مكة من فقهاء الصحابة عمر بن الخطاب وعلى ابن ابى طالب وغيرهما وحسبك ان تجد التشريع الفقهى واضحا في رسالة عمر في القضاء واستمع اليه يقول فيها لابى موسى الاشعرى : آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما او حرم حلالا ، لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ان ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى في الباطل •

ثم استمع الى التشريع السياسي المكتمل في رسالة على بن ابى طالب

التي وجهها للاشتر النخعي لما ولاه مصر وهي أجمع الرسائل لضروب السياسة التى تدبر الامة واوسعها في تحديد الصلات بين الراعي والرعية •
قال : ثم أعلم يا مالك اني قد وجهتك الى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور وان الناس ينظرون من أمورك مثل ما كنت تنظر فيه من أمور لولاة قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم •• اياك ومساماة الله في عظمته والتشبه به في جبروته فان الله يذل كل جبار ويهين كل مختال وليكن أحب الامور اليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل وأجمعها لرضا الرعية فان سخط العامة يجحف برضا الخاصة وان سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة •

ان شر وزرائك من كان للاشرار قبلك وزيرا ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة فانهم اعوان الائمة واخوان الظلمة وانت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم ممن لم يعاون ظالما على ظلمه ولا آثما على اثمه •• ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختيارا ولا تولهم محاباة واثرة فانهم جماع من شعب الجور والخيانة وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الاسلام المتقدمة فانهم أكرم اخلاقا وأصح أعراضا وليكن نظرك في اعمار الارض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لان ذلك لا يدرك الا بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره الا قليلا •• واياك والاعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الاطراء فان ذلك من اوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من احسان المحسنين •• واياك والعجلة بالامور قبل اوانها او التسقط فيها عند امكانها او اللجاجة فيها اذا تنكرت أو الوهن عنها اذا استوضحت فضع كل امر موضعه وأوقع كل أمر موقعه •

بهذه القواعد الاصيلة في سياسة الدولة وفي هذا الفقه السياسي المكتمل وجه علي بن ابي طالب ولاة أموره في أرجاء البلاد • لم يتخرج علي في جامعة بل تخرج في مسجد بين يدي رسول الله (ص) يستمع الى وحي السماء وقول النبي وفعله فاصبح نفحة تفيض بالقوة والروح السامية

والايمان بالله والثقة بالنفس ٠

وخرجت مكة والمدينة رجالات التشريع والسياسة وقادة الحروب في مستهل حياتها وشهدت عهدين عظيمين عهد قصي بن كلاب سيد قريش في الجاهلية وعهد محمد بن عبدالله في الاسلام ٠

وها هي ذه مكة تشهد بيت الله الحرام ترتفع قواعده وتتسع رحابه وتعلو منائره في عصر تكتظ فيه معاهد العلم بالبحث والدرس ووضع قواعد التشريع واكتشاف قوانين الطبيعة للتحكم في اسرارها ٠

فلم لا تكون مكة منبع التشريع الاسلامي ومصدر تاريخ العرب ؟ ولم لا تقام فيها اندية البحوث في الفلسفة والاجتماع واسواق الادب واسواق البضائع في الاشهر الحرم ؟ ولم لا تعود مواطن المفاخرة والتكاثر والتنافس لتعيد عهد عباقرة العرب في الادب والتشريع والسياسة والحرب ؟ لقد انجبت ابطال ميادين الحروب ورجال السياسة وأئمة التشريع وان في معدن العنصر العربي في هذه الجزيرة الخالدة اصالة وفي هذه الاصالة استعداد للنبوغ ٠

ان مكة تنتظر ان تكون بها جامعة ينحدر اليها العلماء من ارجاء العالم الاسلامي لتكون مصدر القوة في تكوين المجتمع الاسلامي تقوده الى حيث المجد المؤثل ٠ انها مهبط الوحي ومهبط الالهام ٠ ان جامعة ترسي قواعدها بجانب قواعد البيت وتكون لها فروع في المدينة جديرة ان تأخذ بيد العالم الاسلامي وتنقذه من وهدة الضعف التي ينوء بها كاهله ٠

ان على المسلمين في ارجاء العالم ان يقفوا على هذه الجامعة ان تأسست من ثرواتهم ما يكفي أن يأتيها الاساتذة من ارجاء الدنيا وان يشيدوا المكتبات الضخمة التي تجمع تراث العرب والاسلام وتجمع الى ذلك نتاج الامم وان تفتح مجال البحث العلمي على مصراعيه فان هذه الارض ارض العبقرية انتجت في حرها الشديد وبردها الهادىء رجالا عرفوا كيف يخزمون انف الدهر وكيف يعلمون الامم وكيف يضيفون الى حضارات الامم قواعد العدل والحرية والاخاء ٠

لقد كانوا يعرفون اللين في غير ضعف والشدة في غير عنف ويعرفون كيف يعلو الحق ويظهر وكيف يسفل الباطل ويزهق . لقد علموا الدنيا الوفاء بالعهد والرجوع الى الوعد في حضارتهم الجاهلية في الاشهر الحرم وفي عقودهم التي تعقدها السنتهم . وعلموا الدنيا في حضارتهم الاسلامية وفاء العهد وصدق الوعد وحسبك بهذا دلالة على حضارتنا السامية .

ان جامعة تبنى في مكة وتقوم قواعدها على قواعد تراثنا العربي الاسلامي سوف يؤسس بنيانها على التقوى وسيرتفع عمود نورها الى الفضاء لينير العالم الاسلامي والعــربي وتحرسه من الافكــار الواردة والمستوردة وتستمد قوتها من جبل النور من غار حراء الذى اضاء العالم وان مختبرا يؤسس او مكتبة تجمع مصادر العقل في مكة أو المدينة سيكون شأنها غير شأن المكتبات والمختبرات انها ستكون شريعة ارتــواء كبئر زمزم في مائه قدسية طاهرة حفظتها يد الآله في الحقب الطوال .


غسل الكعبة

وفي مساء اليوم السادس من شهر ذى الحجة لعام ١٣٨٣ عدت الى الفندق من صلاة المغرب في بيت الله الحرام فوجدت بطاقة مطبوعة بالحبر الاخضر تحمل شعار الدولة وتنبىء بالدعوة لحضور غسل الكعبة وتشير بالسماح لمن يحملها ان يشهد ويشترك في غسل الكعبة في الساعات الاولى من ضحوة اليوم السابع من الشهر فسررت بها لان فيها فرصة قلّما تجود بها الايام أرى فيها الكعبة من داخلها واشترك مع غيرى من حجاج بيت الله في غسلها وتوكلت على الله ومشيت مع جماعة من حجاج العراق فلما دخلنا المسجد الحرام لم اجد تغيرا في المظهر الا عددا من الجنود يقومون على النظام والحفاظ على بقعة صغيرة مستديرة مدت عليها بسط فاخرة في ظلال بناء الحرم الجديد الشامخ وكان الوقت في ضحوة جميلة ونسيم الهـواء العليل يسبغ على المشهد روعة البهاء والجلال فاتخذنا مقاعدنا وشرع كبار الحجاج من البلاد العربية والاسلامية يتوافدون وينتظمون جلوسا يحيى

بعضهم بعضا والناس يطوفون افواجا وجماعات حول الكعبة منهم من يمشي الهوينا ومنهم من يمشي الخبب لا تسمع الا حمدا وثناء وصلاة وتسليما وترى حملة الكراسي يتراكضون ويتدافعون والعرق يتصبب من وجوههم ومن اكتافهم العارية والعجـزة المقعـدون والضعفاء صامتون وصامدون في كراسيهم •

لم نكن محرمين ولا مكشوفي الرءوس وكان فـي اختلاف الملابس والوانها دلالة على الامم التي يمثلها الجالسون الذين اجتمعوا في هـذه الحلقة الصغيرة من امم مختلفة ومن القـارات من وراء البحـار والفيافي والقفار قطعوها برا وجوا وبحرا ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات •

وكنت اتوسم وجوه القوم واسأل عنهم واحدا بعد واحد فأجد فيهم السفير والوزير وذا المقام والسلطة في قومه وذا الثراء والعـلم فأقول في نفسي لقد جمع التوحيد هذه الاقوام المختلفة وجعل لهم وجهة واحـدة يولون وجوههم شطرها ولو اتفقوا ووضعوا يدا بيـد لاملوا على التاريخ مكارم الاخلاق ومكارم الشرائع ولوهبوا الدنيا المثل العليا ولكانت كرامة بني آدم في المحل الارفع في مجتمع البشر ولم يضطر الاقوام الى هذا الصراع العنيف ولكان لنا نحن ابناء محمد مكانة المعلم والمرشد •

لبثنا نتجاذب اطراف الحديث في شؤون الامم الاسلامية برهة من الزمن ثم نهض القوم ايذانا بقدوم نائب الملك ورأيت عن بعد سلما يقترب من باب الكعبة الذى يعلو نحوا من مترين عن الارض وانفتح باب الكعبة ودخل نائب الملك وتبعته حاشيته ثم تلا ذلك دخول المدعوين وازدحم السلم وتدافع القوم في موجات عنيفة وكدت ارجع لولا موجة قوية دفعتني الى صعود السلم ورأيت نفسي بعد عناء في وسط الكعبة مع الناس وتفضـل احدهم فناولني مكنسة طويلة فاشتركت في هذا العمل الرمزي الجليل الذى تتواضع امامه النفوس فيشترك الامير والوزير والسفير والثرى والفقير في خدمة بيت الله الذى تتجه اليه قلوب المسلمين في ارجاء الارض واستطعت

ان ادفع قليلا من الماء الذى غمر قاعها ثم رأيت الناس يتدافعون حول شخص يغمس مناديلهم في ماء تفوح منه رائحة طيبة ويناولهم زجاجات منه ثم توجهت الى جدار الكعبة الشرقي فصليت شكرا لله على نعمائه واتممت أمام كل جدار من جدرانها ركعتين ونزلت من السلم ووقفت أمام الملتزم وهو مسافة قصيرة يحتضنها الحجاج ويدعون ربهم كما كان يفعل رسول الله (ص) فاحتضنته ثم تأخرت خطوة الى الوراء لافسح لغيرى ان يفعل فسمعت شخصا يدعو بدعاء يقرؤه من كتاب يحمله بيده استطعت ان التقط منه كلمات هى : « اللهم اني اسألك ان ترفع ذكرى وتضع وزرى وتصلح امرى وتطهر قلبي » .

فقلت في نفسي ان واحدة منها تكفي ان تأتي بثلاثة فاذا طهر الله قلب المرء فقد اهتدى ومن اهتدى وجد الطريق ومن وجد الطريق صلح أمره ووضع وزره وارتفع ذكره واني لا أريد أكثر من ذلك فقلت:اللهم اني اسألك ان تطهر قلبي . والتفت الى الحجر الاسود فوجدت فرصة مواتية الى لمسه فلمسته ولم استطع تقبيله ويندر من يستطيع لمسه في هذا الازدحام الضخم فكيف بتقبيله .

ما رأيت اروع من هذا المنظر في تدافع ذوى السلطان والجاه والثراء في صعود السلم الى الكعبة فقد رأيتهم يتدافعون في عنف قد انمحت به كل فارقة من الفوارق بينهم تذكرت حين رأيتهم في هذا الزحام فكرة لاحد فلاسفة الغرب حين يقول : (في كل رجل يكمن طفل) ويظهر هذا الطفل عند الحاجة اليه .

ولقد رأيت في هذا الموقف اطفالا تتدافع ونفوسا حريصة ان تكون كل نفس هى الغالبة . لقد رأيت في هذا الموقف كيف تفعل الغرائز اذا استطاعت ان تتغلب على العقل ولو وقف هؤلاء المثقفون صفا واحدا كما علمهم محمد (ص) الوقوف في صفوف الصلاة لوصلوا الى الكعبة بكل هدوء وانتظام ولأدوا الواجب على أحسن ما يرام ولو اتقنوا الصبر الذي علمهم محمد في الصيام لصبروا قليلا ولو استعدوا للتضحية كما تعلموها

في بذل الزكاة والصدقات والنفوس في مرضاة الله لتأخر كل واحد عن صاحبه قيد خطوة ولمشى الاثنان في هدوء صعودا ونزولا ولو اتقنوا المناسك وعلموا انه لا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج لما قدر واحد منهم ان يؤذي أحدا •

ولكن طالت الآماد بين فجر الاسلام وهذا الليل الحالك الطـويل الذي وفدت فيه لصوصية الافكار تتسرب الى القلوب اسراب الجـرذان المخربة في الحقل الزاهي •

واخذ طفل الجاهلية الاولى الكامن في جوانح الاقوام المختلفة يظهر غضبه ودلاله •

ان الفرق بين المثقف والجاهل والضعيف والقوي وذي الجاه وخامل الذكر يظهر في تصرف المرء في شؤون الحياة •

وحسن التصرف موهبة تهبها الطبيعة لبني آدم ولا تظهر الا في اشتداد الازمات وتعقد الامور • ان القوة قد تخون صاحبها اذا كان الاقدام تهورا والكرم ينقلب الى اسراف اذا كان في غير محله والحكم ينقلب جورا اذا تجاوز حدود العدل • وهكذا رأيتني انظر الى المجتمع الاسلامي والـم اطراف التاريخ واستعرض الحوادث فاقول في نفسي ما لهؤلاء القوم يشتد بهم الحرص في انانية مطلقة لا حدود لها • أما أمات فيهم محمد (ص) شهوة الاثرة وابدلها بالايثار وصير المؤمنين أخوة في دين الله ؟ لقد لقد كانت الغاية المثلى من رسالة محمد ـ مكارم الاخلاق ـ انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق • ومكارم الاخلاق هي خزم انوف الغرائز الجـامحة وتسليم زمامها بيد العقل ، ومتى تحكم العقـل مشت امـور المجتمع على صراط مستقيم فتبصر العـين وتسمع الاذن ويعي القلب وتنتظم الامـور وتعتـدل الموازين ويعرف المرء مكانته في المجتمع ، وفي فكرة الطواف حول الكعبة في ثياب موحدة ورءوس مكشوفة واتجاه واحد رجوع الى منشأ الانسان ليتبين نفسه ويعرف ربه ويعترف بحق اخيه ويحب لغيره ما يحب لنفسه • أوحت الي هذه المشاهد كلها فكرة الاسلام في الاخاء الانساني وفي معنى

الحرية التي تحترم حرية الغير في الحرية المطلقة التي تقيد صاحبها في احترام حرية اخيه ولكنني لم اشهد هذه المعاني انني شهدت رغبة صادقة في عين كل شخص في ان يحقق ذلك ولكنه عاجز في نفسه عن الوصول اليها لان الرباط مفقود ولو ترابطت نفوس المسلمين في العروة الوثقى التى لا انفصام لها عروة الاسلام الذى يظلل مبادىء محمد (ص) لوجدت هذه المواكب تتهادى وتترنم بذكر الله فيردد صداهـا المشرق والمغـرب ويسمع صوتها في ارجاء العالم ولأملت على التاريخ عظمة هذا الدين المبين •

كان الاحتفـال بغسـل الكعبة مشـهداً رائعـاً وكـانت فيه موعظة للمتعظ لقـد وقف المحتفلون في هـذه الدار الجليلة المقدسة سواسية لا فرق بين أمير ووزيـر وثـري وفقـير وجـاهل غافـل وعالم نحرير اختفت في هذا الاخاء جميع الالقاب الا لقب « انما المؤمنون اخوة » • لقد وحدت كلمة لا اله الا الله بين هذه الشخوص ورفعتهم الـى مستوى الصداقة والاخـوة • ولقد رأيت الانسانية العليا تتجه الى قوة وراء أفق التجارب لبني آدم رأيتها تتجه الى القوة الخالقة التي ابدعت هذا الـكون الهائل هذا الكون الذي لم نكن فيه سوى جزء من ذرة لو وضع عالمنا مـع العوالم في كفة المقاييس وسرح لي الخيال الى القرون الخالية وتلألأ نـور القرآن الـكريم في فؤادي فأخذت أتلو الآيات الـكريمة في قوله جل جلاله : وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ان لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود واذن في الناس يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الانعام فكلوا واطعموا البائس الفقير » •

وتخيلت كيف طهر ابراهيم البيت واجتث الوثنية وثارت ثائرة المشركين عليه وارادوا به كيدا فلم يستطيعوا ان ينالوا منه نيلا ومشت القرون الخوالي تتقلب في الوثنية والشرك حتى بزغ نور النبوة وجاءت رسالة محمد (ص) ورأى كيف تذل كرامة الانسان بالتمرغ على أقدام الاحجار وهاله أن تكون في بلاد العرب وثنية لان العربي مطبوع على الاباء والشمم وسمو النفس وظلت آيات الله تتوالى والايمان يزداد والشرك يتوارى حتى قويت شوكة

الاسلام وفتح الله على رسوله الفتح المبين ودخل خالد بن الوليد فناء الدار يحطم أصنام الكعبة ويرغم انوفها بالتراب وطهر البيت للعاكفين والركع السجود من وثنية مذلة وعبودية تأنف من قبولها طبائع العرب •

وقفت انظر الى البيت واتخيل معنى وجوده تارة ثم انظر تارة اخرى الى الجموع تلهج السنتها بالحمد والثناء وتطمئن قلوبها بذكر الله ثم ارفع بصري انظر الى جبل النور واتخيل مهبط الوحي في غار حراء فتمشى في جوانحي رعدة الجلال والهيبة واتذكر الزمن المتلألىء بنور النبوة الذي توارت فيه غياهب الوثنية ثم أعود الى نفسي والتفت حولي فأرى الوثنية تضطرب في ظهور وخفاء وسط الجموع قد انحدرت الى بعضهم في اصلاب الزمن ارثا عن اجداد الاباء وهم يحاولون ان يعيدوها جذعة • ثم أقول هل يصدق ما جاء في الاثر على ما أراه اليوم أو يتأخر فلقد جاء في الاثر ان الاسلام بدأ غريبا وسيعود كما بدأ سبحانك اللهم مقلب الاحوال والقلوب • لقد بدأ الاسلام غريبا ولكنه بعد مدة اشتدت مرته فانحدر المسلمون الى ميادين الحياة لقد جدعوا انف اليأس فاقبلت عليهم الحياة في بسمة الامل المشرقة فأفاضوا على العالم بهجة الامن والاطمئنان وبعد ان طاف هذا الخيال في مخيلتي وبعد ان مرت هذه المشاهد أمام ناظري صليت ركعتين وعدت الى الفندق وتهيأت لاجابة الدعوة الملكية في حفل المساء فلما أزف الوقت أخذت بعضي مع جمع من الاصدقاء وامتطينا سيارتنا المخصصة لنا ووصلنا القصر ودخلنا فناءه الرحب وصعدنا السلم حيث افضى بنا الى بهو جميل رأيت فيه جمعا طيبا من سراة العرب والمسلمين ورجال البعثات السياسية العربية والاسلامية وبعد بريهة حضر سمو الامير فيصل نائب الملك وولي عهد المملكة العربية السعودية فحيا الضيوف وحيوه والقى خطابا مفصلا أعجبني فيه انه عرض رسالة الاسلام في جمع الكلمة على التوحيد وذكر ما أصاب هذه الرسالة من الوهن وندد بالوثنية وقال ان الله سبحانه وتعالى لا يحتاج الى واسطة وانه تعالى يقول « واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان » • وفي هذه الآية ايضاح لصلة العبد بربه وما ينبعث عنها

من قوة وثقة لا انفصام لها تلك الثقة التي تستند الى هذه القوة الجبارة التي تدبر الكون من خلف افقنا ومعارفنا والتي لا يمكن ان تغيب عن ادراكنا هذه القوة هي التي طمست عيون الشرك في نفوسنا وهي التي خففت عنا أعباء الزمن واخرجت من خبايا نفوسنا نوازع الشر وقومت كل اعوجاج فيها وهيأتها لاستقبال رسالة الوجود • لقد بنى الرعيل الاول لنا الجسور على نهر الحياة وعبدوا لنا طرق الفضائل لنلتقى في ميادين واسعة حيث يكون المجتمع الافضل ولكن كان بين العابرين على هذه الجسور وبين المارين على تلك الطرق من جاءوا متأخرين منحدرين من شعاف الجبال وبطون الوديان يحملون في جوانحهم غوغائية الجاهلية التى كانوا يعيشون فيها والوثنية التي يتمرغون على أقدامها فعبروا الجسر وساروا على الطريق الى مسافات بعيدة ثم ما لبثوا قليلا حتى برزت النوازع وظهرت في نفوسهم قرون الوثنية فاجتازوا الطرق لانفسهم ووضعوا في دروبها العقبات ونثروا الاحجار وصار المار لا يمشي على طريق سوي ولا يصل الى نقطة ممهدة حتى ينحرف عنها •

هكذا عادت الوثنية جذعة وانقطعت صلة كثير من ابناء الاسلام بينهم وبين تلك القوة الجبارة التي كان الاسلام يستمد جبروته وعظمته منها •

كانت رسالة الاسلام تنصب في عين واحدة لا ينبع منها الا ما يحفظ كرامة الانسان ولا يجري من شرائعها الا ما يتفوق به الانسان على سائر الكائنات • اجتث الاسلام من ابنائه شجرة اليأس وفتح في نفوسهم زهرة الامل • وما اندفعت أمة في حياتها وعلى شفاه بنيها بسمة الامل الا وصلت الى الغاية واصابت الهدف • ان الامل مفتاح الفضائل اذا كان يحمل في اجنحته مدارج التفوق فاذا هيض جناحه انقلب الى يأس وفي اليأس تجتمع الرذائل •

هكذا كانت رسالة الاسلام لكرامة الانسان في ازدهار الامل في النفوس واجتثاث اليأس من القلوب • ان المسلمين الذين يستشهدون دفاعا عن قول احياء عند ربهم يرزقون • انهم مع الابرار والصديقين في أعلى

عليين . انهم في سجل الخلود وانهم افضل القوم في الوجود . هذا هو الامل الباسم الذي كان يحدو الرعيل الاول من المسلمين ، تكوين مجتمع فاضل في الحياة الدنيا والعبور على جسر الحياة الى نهر الخلود في الاخرة .

ارتفع الاسلام في صدره الاول بالمؤمنين من درجة العامة من الناس الى درجة الانسان المتفوق في الاقدام والشجاعة والمروءة الى درجة الانسان الذي يحمل رسالة . وان حملة الرسالات لا يكونون الا من بين المتفوقين لقد هذبهم محمد (ص) تهذيب المعلم الذي يريد ان يتفوق تلامذته في الوجود فكون منهم جماعة بل أوجد جماعات كلهم يطلبون عظائم الامور وان الذى يطلب العظائم لا يسف في مشيته على الارض ولا يسلك السبيل الذى تتلوى دروبها بل يسلك الطريق السوي : « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب ولا الضالين » . ان الذى ينشد ربه ان يهديه الصراط المستقيم ويرجوه ان لا يكون من المغضوب عليهم ولا من الضالين في دروب الحياة انسان متفوق انسان له ضمير حي يوجهه لفعل الخير ويقيه شرور الناس من ابناء العامة .

لقد بذل الرسول جهدا جهيدا في ان يرفع أمة الاسلام من درجات العامة الى الدرجات الخاصة : « كنتم خير أمة اخرجت للناس » فنجح فيما ابتغاه من ربه فكان صحابته فقهاء وكانوا محدثين وكانوا الخطباء اللسن وكانوا الشجعان وكانوا الفرسان الحكام والقضاة العادلين وكانوا الولاة المديرين . لقد ربط محمد ضمائر أصحابه بالواحد الاحد فصارت تستضيء بنور الآله وتمشي على هداه . كل صحابي يعرف ربه وكان يجد في هذه المعرفة معنى وجوده في الكون ولكنه كان طموحا كان يتسلق الذرى بسرعة لا تدانيها سرعة لقد كانت الوثنية تربطه بالارض والرغام فجاءت الوحدانية فأطلقت عقاله وجعلته يفكر في ملكوت السموات والارض ويقول ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار .

كانت نار جهنم تخيفه وكانت رياض الجنة تغريه وتجتذبه اليها لقد حفت الجنة بالمكاره فما كان تلميذ محمد يبالي بهذه المكاره وحفت النار

بالشهوات فلم يلتفت تلميذ محمد الى تلك الشهوات • لقد كان الامل الباسم على شفتيه وكان الاعتزاز بالنفس بين جوانحه وقوة الارادة تحيط بفؤاده •

ما قوي المسلمون الا حين حطموا الاوثان واتجهوا الى الواحد الديان وما ضعفوا ولا استكانوا الا حين عادت اليهم الوثنية الجاهلية •

الحَجُّ ومَقاصِدُه

سارت الايام سراعا في يثرب وانتقلنا نبغي مكة واحرمنا للعمرة من ذى الحليفة أو (ابار على) في رداء وازار ووصلنا البيت الحرام وطفنا حـول الـكعبة سبعة اشواط وسعينا بين الصفا والمروة سبعا وتحللنا واخذت الايام تمر وحوادث التاريخ تتهادى يأخذ بعضها برقاب بعـض وتهيـأ الحجـاج لاستقبال ساعات الحج الجليلة واقبل يوم التروية وهو اليوم الثامن من ذى الحجة وسمي بهذا الاسم لانهم كانوا يرتوون فيه الماء للمسافات البعيدة حين لم تكن المياه تجري من العيون بين عرفة ومكة ولم تكن تجري في الانابيب ولم يكن الماء يحمل على سيارات ضخمة بل كان القليل منه يحمـل على ظهور الابل والبغال والحمير. واحرمنا في مكة وصلينا صلاة الفجر في المسجد الحرام ولبثنا نلبي ونسبح بحمد ربنا ونصلي على نبينا حتى طلعت الشمس وسارت بنا السيارات الى ـ منى ـ على بعد خمسة أميال من مكة هذه البقعة التي أحدث اسمها من وقائع الشعائر فيها حيث تمنى دماء الضحايا فيها أي

تراق •• ومنى مجموعة من بيوت جميلة وحوانيت ومنازل في بطن الوادي المحدود من جهة مكة بجمرة العقبة ومن جهة المزدلفة بوادي محسر ونزلنا في فندق جميل ذى طباق عالية موفور المياه والضياء قد زودت اجنحته بالماء واسلاك الكهرباء وفرشت حجراته بالطنافس وجهزت بالسرر •

وتشرف نوافذ هذا الفندق على هذا الوادي المنبسط الممتد تحت سفوح الجبال المعزاء فاذا نظرت الى بطن الوادي اخذك جلال المنظر في مضارب الخيام الرابضة فيه وبهرك جمال المشهد عند غروب الشمس حين تلملم ذكاء اطراف اذيالها منحدرة الى الغروب وتنشر ذوائبها الذهبية على شعاف الجبال فتكتسي الصخرة المعزاء لونا ذهبيا من صفرتها وتلتمع الحجرة السوداء باشعة الضياء وبين هذه الصخور وهذا العلو الشاهق تلمح ابناء آدم يستظلون صخرة أو يقيمون ظلا وكثير منهم يلبون ربهم ويدعونه سرا وعلانية • وفي ـ منى ـ مسجد الخيف وهو مسجد مسور فيه قبة ومئذنة وفيه المحراب الذي صلى فيه النبي والمنبر الذي خطب عليه وفيها مسجد الكوثر الذي صلى فيه محمد (ص) فقرأ الفاتحة وسورة الكوثر التي هي أصغر سور القرآن •

وفي هذه القرية المباركة الجمرات الثلاث وهي : جمرة العقبة والجمرة الوسطى ثم الجمرة الصغرى • والجمرة لا تختلف في وصفها عن عمود صغير مبني بالطابوق ومطلي بالجص لا يتجاوز ارتفاعه ثلاثة أمتار يحيط به حوض يسقط فيه الحصى التي يرميها الحجاج • ويقال ان من الآثار التى تذكر في منى منحر الكبش وهو المكان الذي ذبح فيه ابراهيم كبشا فداء لولده اسماعيل • وبالقرب من منى ـ وادي محسر ـ وهو واد ضيق تذكر الروايات ان اصحاب الفيل نزلوا به بقيادة أبرهة يبغون هدم الكعبة فارسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل اهلكتهم وجعلتهم كعصف مأكول •

واذا وصل الحجاج المشاة والراكبون اسرعوا في الخروج منه اقتداء بما كان يفعله الرسول (ص) ولا يزال الذين يسعون مشيا أو ركوباً يفعلون

ذلك أما السيارات فلا تلتفت اليه وتمر به مرا خاطفا •

ملأت هذه الآثار والذكريات والروايات مخيلتي وانتقلت بي الذاكرة الى القرآن الكريم وأخذت اتلو بيني وبين نفسي قوله جل جلاله :

فلما بلغ معه السعي قال يا بني اني أرى في المنام أني اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين • فلما اسلما وتله للجبين ، وناديناه ان يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا • انا كذلك نجزي المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم » •

ووقفت وقفة المتأمل وكلما امعنت النظر في دراسة هذا الاثر وتفهم هذه الآيات بدا لي أن الله جل شأنه يعلم علم اليقين ان اسماعيل سوف يطيع أباه عندما يقص عليه رؤياه ويجيبه الى أمر الله وان ابراهيم سوف يتل ولده ويطرحه أرضا ويحاول اجابة أمر ربه في ذبح ولده ويعلم الله جل شأنه ان ابراهيم لن يذبح ولده لانه سيوحي اليه ان يفديه بكبش عظيم كل ذلك يعلمه الله وايقنت ان نزول هذه الآيات لم يكن غير درس قاس أراد الله به أن يعلم الناس طاعة الوالد وانتصار العقيدة على الابوة ويعلمهم الفداء وهو آخر الدواء لحل المشكلات • ان اعظم اللذات في الحياة طاعة في الحق وعقيدة صافية تختفي أمام وجهها الانانية الحقيرة • انك لا تجد « أنـا » في قصة ابراهيم مع ولده فقد اختفى هذا « الانا » من وجود الولد • ووقفت العقيدة منتصرة تقول « نحن » انها تنظر للمجموع ولا تلتفت الى الفرد وما صارت عقيدة الى ـ نحن ـ الا كان الصدر مكانها بين العقائـد •

ان العقيدة الاسلامية ايثار وتضحية ونظرة الى المجموع مع احترام الفرد لان هذا الفرد هو الذي يتكون منه الجمع • لقد علم الاسلام ابناءه حقيقة الخير والشر ودفعهم الى الوجود يبنون المجتمع الافضل ولـكنهـم ما لبثوا ان تراجعوا شأنهم شأن كل أمة تتخلى عن أصول عقيدتها وتتمسك بالاوراق الزاهية التي لا تقف على هزات نسائم الخريف فتتساقط ذاوية وتعود هشيما تذروها الرياح •

ان رجوع العزة ومكانة الصدارة في تكوين المجتمع العربي الاسلامي


المدينة المنورة

منوطان بالتمسك بالاصول العريقة واختفاء كلمة « انا » من الوجود العربي وحلول كلمة « نحن » محلها وبعبارة اوضح اختفاء الاثرة وظهور الايثار والتضحية .

وعدت بمخيلتي الى وادي محسر اتذكر نزول جيوش الاحباش بقيادة قائدهم ابرهة يستعدون للنزال مع العرب وكان عبدالمطلب في ذلك الحين سيد قريش وكبير العرب في مكة وكان للحجاز المكانة الرفيعة في الجزيرة العربية وكان لها أثرها في الثقافة والادب والتجارة ولقد هال ابرهة أن يكون له منافس وان تبقى الكعبة قبلة آمال العرب فزحف على اليمن واستولى عليها وطمع ان ينشىء كعبة فخمة تنصرف اليها العرب بدلا من كعبتهم في الحجاز فلم يجد بدا من الزحف الى بيت الله الحرام فجاءه بجيش لجب وفيله الاوحد يبغي من وراء ذلك ان يغلب العرب ويخيفهم وفي صباح مشرق هادىء هالت قريش أصوات الغزاة المدلين بقوتهم وفيلهم ونادى عبدالمطلب يا معشر قريش احجزوا ابلكم واحموها واتركوا البيت « فأن للبيت رباً يحمية » وكاد الاحباش يصلون الى الكعبة لولا رعاية الله وحمايته لبيته فقد اهلكتهم جائحة من السماء اذ أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل جعلتهم كعصف مأكول فهلكوا ولم ينج منهم أحد وظلت الكعبة منارا للهداية وموطنا للامن والاستقرار تستظل بها العرب في أرجاء الجزيرة بل كانت مصبا لثقافة العرب وموردا لها تجتمع حولها وفود الشعراء والخطباء ووفود التجارة واصحاب الاموال وكانت بمثابة جامعة تهذب العقول وتنمي الثروات في أشهر حرم معدودات وظلال أمن شامل ترتاح فيه النفوس الى العمل والانتاج والنفوس اذا أطمأنت تهيأت العقول للابداع . وظلت الكعبة ايضا موضع حسد من أعداء العرب يريدون ازالتها من الوجود مع انها ركن من اركان توطيد الحياة الاجتماعية وانها مصدر اشعاع للفضائل فحسدها ابرهة واراد بها كيدا فلم يفلح وحسدها القرامطة واجمعوا كيدهم وغزوها ودخلوا فناء المسجد وقتلوا الحجاج واستباحوا الحرم واقتلعوا الحجر الاسود من ركن الكعبة وظل

بأيديهم أكثر من عشرين عاما وظنوا انهما استطاعوا ان يصرفوا المسلمين عن الكعبة وان يطفئو نور الله ويمحو رسالة العرب من الوجود فباءوا بغضب من الله ومحيت اثارهم وعاد الحجر الاسود الى مكانه كما كان • ولا تزال أمم تنظر اليها شزرا وتريد بها شرا ولكن للبيت ربا يحميه وستظل الكعبة كما هي وأكثر ستظل توحي للعرب والمسلمين وحدة الفكر ووحدة الصف وتوحي اليهم ان يبلغوا رسالة الانسانية في المساواة والاخاء والعدالة وسيظل عمود النور الذى نشأ بين الكعبة وغار حراء قائما يضيء العالم بالهداية ويدعو الى الخير والسلام والوئام ونبذ الشرك وعبادة الاصنام ستظل كعبة الاسلام علما تجتذب اليها المسلمين من مشارق الارض ومغاربها ليذكروا اسم الله ويشهدوا منافع لهم في أيام معلومات •

إلى وادي عرفة

واشرقت شمس اليوم التاسع ونحن في منى ، وفي هـذه الضحـوة المباركة كانت السماء صافية والهواء سجسجا والنفوس مرحـة والقـلوب مضيئة بنور الايمان والالسن رطبة بذكر الله والارجل تريد أن تنتقل قبل ان تنقل والاجسام تريد ان تندفع لتقف بجوار جبـل الرحمـة حيث تناجى الارواح مبدع الوجود • في هذه اللحظة المباركة انطلقت بنا السيارة على طريق مفروش بالاسفلت بين سيارات وقوافل ابل وجموع زاحفة تسـير مشيا على الاقدام • ولم يكن طريقنا هذا وحيدا بل كانت طرق أخرى تسيل بالركب بمئات الالوف سيرا أتقنته يد الطاعة طاعة الله في حجه وصانته يد التنظيم واقبلت هذه الالوف المؤلفة تسير في ركبانها المختلفة تريد وادي عرفة وهو واد يكاد يكون مربع الشكل مترامي الاطراف يقع على بعـد اثنين وعشرين كيلومترا من مكة وافيناه بعد قليل وسط هذه الجموع الزاحفة ما مسنا في قطع الطريق نصب ولا شعرنا بعطش ولا سغب وقالوا لنا هـذه

حدود الوادي ، هذا هو وادي عرفه وانما سمي بهذا الاسم المشرق في جبين التاريخ لان آدم وحواء تعارفا فيه لاول مرة وهي رواية ترويها الاساطير أو بدعة ابتدعتها عقول الرواة .

وقفت أمام هذه الرواية أتأمل أقوال الرواة فيها تارة واخرى انظر الى هذه الالوف المؤلفة من ابناء آدم وحواء فوق ظهور الابل وفي اقفاص السيارات وعلى قارعة الطريق في رداء وازار مكشوفي الرءوس يزحفون اجابة لامر الله يبغون الخلاص من الخطايا والذنوب ، ثم أقول في نفسي ليت آدم لم يعرف حواء وليته لم يعص ربه ، ليته بقي على الفطرة كما فطره الله وليته لم يعرف الشيطان فيوسوس في صدره ليأكل من شجرة الخلد . لقد طمع آدم في ملك لا يبلى فأبلى نفسه واتعبنا ولقد كان هادئا في نعيم مقيم سجدت له الملائكة اجلالا واكبارا بأمر ربه وجعله الله خليفة على الارض ليصلح شأنها ويعمرها ويعيش في أمن وسلام واستقرار في اخاء لا يعرف طمعا ولا أنانية فوسوس اليه الشيطان فاخرجه عن طاعة ربه واصبح آدم مستقلا في رأيه يدبر امر نفسه لقد كان مكسوا بالنور الآلهي بالجلال والعزة والرفعة في اكتمال الخلقة فلما دنت نفسه وطمع فؤاده أن ينال فوق ما يريد بدت له سوءته فركبته الهموم وغشيه الطمع والحرص والاستعلاء والاثرة لقد بدأ بالخطيئة حين ذاق طعم شجرة الخلد التي اغراه بها الشيطان وثنى بالمعصية عندما أراق قابيل دم أخيه هابيل في سبيل بنت حواء واستمر ابناؤه في خطاياهم يتقاتلون على النقير والقطمير وتراق دماؤهم من جراء شبر من الارض او حفنة من الماء او بئر من النفط رضخ بعضهم رءوس بعض بالحجارة عندما لم يكن الحديد يقرع الحديد وقطع بعضهم اوصال بعض بالسيوف وثقبوا صدورهم بالرصاص وهدموا اطامهم وقلاعهم بالقنابل ودمروا مئات الالوف واذاقوها مر العذاب بالذرة وهاهم اولاء يهددون العالم بالفناء في بضع دقائق .

ليت آدم ما عرف حواء وليته بقي على الفطرة وليته بقى في جلاله ووقاره تسجد له الملائكة ويخضع له الكون .

لولا معرفة آدم بحواء ماعرف الناس وادي عرفة ولا قطعوا الفيافي

والقفار وركبوا متن السماء ولجج البحار ليكفروا عن ذنوبهم خلق الله آدم فاجله واكرمه ونعمه : « واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى » •

كان آدم ملتفا في نعيم مرفه وهدوء مكتمل سليم الفطرة قويم الوجهة بعيدا عن مزعجات الكون حتى مد يده الى ما ليس له اجابة للشهوة وركضا مع خيال اللذة فتنبه ما كان نائما في نفسه فثار النزاع بين بنيه وعظم الخلاف ونزل البلاء ثم تاب وثاب اليه رشده فأجتباه ربه وهداه واعطاه الاستقلال الذاتي فى تصرفه فاصبح في اصطراع عنيف مع عدوه الشيطان الذى يوسوس في صدره تارة يغلبه ابليس فيركض الانسان وراء العاطفة واخرى يتغلب الانسان فيسمو بعقله ويحل مشكلاته فيهدأ باله وينعم فؤاده •

لقد بدأ الانسان حياته على الفطرة حرا تسجد له الملائكة لانه كان مزملا بالفضيلة ومدثرا بجاد العزة رفعته قوى الخير الى المحل الارفع وحسدته قوى الشر ، وبين هذا الحسد وتلك الرفعة اخذت مكانة الانسان تتأرجح تأرجح الريشة في مهب الرياح •

لو ادرك الانسان معنى وجوده في الكون لذهبت من نفسه شهوة العظمة لان التعاظم من شأن المجانين ، فاذا كانت الخمرة أم الخبائث فان التعاظم أبو الشرور ولو علم المتعاظم ان ما يتظاهر به لا يعدو الهواء الذى يكون في منفاخ الحداد لصغرت نفسه في عينه ولاسرع ركضا ينشد فضيلة التواضع ولعلم ان الانسان الذى يراه بجانبه انما هو اخوه عليه ان يترضاه دون ان يريق دمه كما اراق قابيل دم أخيه هابيل ولعاش الانسان في جنة الهدوء والاطمئنان لا يحتاج ان يخصف على جسده ورق الجنة كيلا تبدو سوءته •

الوُقوُفُ فى وادى عرفة

هذا هو وادى عرفة الذى عرف به آدم حواء والذى صار من بعد ذلك موطنا مقدسا يتعارف على بساطه الشعوب والقبائل فى اليوم التاسع من ذى الحجة ، هذا هو الوادي المقدس المقصود الذى تأتى اليه الجموع من كل فج عميق ليؤدوا فريضة الحج هذا هو الوادي الذى من وقف فيه محرما في نية في أي وقت من ظهر اليوم التاسع من ذى الحجة كتبت له فريضة الحج اتباعا لقول رسول الله (ص) الحـج عرفـة • وفي شارع منبسط مفروش بالاسفلت يخترق مضارب الخيام اخذت السيارة تتهادى بنا حتى وصلت الى مضرب خيامنا فمالت بنا وسط الرمال ووقفت امام خيمة كبيرة واسعة الارجاء فالقينا فيها عصا الترحال وفتحنا نافذتين فيهـا فطفق الهواء يلعب بارجائها وارتفعت اصواتنا بالتلبية والتكبير والحمد • ما اروعها ساعات يظهر فيها الادب الاسلامي باجلى مظاهره لا رفث ولا جدال ولا فسوق • تنمحي فيها الاثرة من النفوس ويأخذ الايثار مكانه من القلوب

ما اروعها لحظات تمر مرا وئيدا تنظر فيها الى هذه النفوس المختلفة في أعماقها الموحدة في مظهرها المتجهة الى الله ترجو غفران الذنوب ومحـو الخطايا تنادي بصوت واحد (لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) •

كانت الشمس تذرع كبد السماء وكان الهواء عليلا يحمل في اجنحته حرارة من نفس ذكاء ويضطرب في ارجاء الخيام وفي افيائها واصـوات الحجيج ترتفع بالتلبية من كل مكان وكان الوعاظ يعظون الناس وكنا نريد أن يطول هذا اليوم وان تبطىء الشمس في مسيرها ولكنها تخطت الامنيات ومشت كما ارادت وكما رسمت هي الفلك في السماء حتى وصلت كبدها ثم زالت فقمنا وتوضأنا وصلينا الظهر مع العصر جمع تقديم باذان واحـد واقامتين • وذهبنا الى جبل الرحمة لنقف مع جموع المسلمين وسرنا في طريق لاحب وعينا علامات للعودة الى خيمتنا وتشعبت بنا الطريق ومشيناها خطـاً كتبت لنا ووصلنا جبل الرحمة والفينا جموع المسلمين وقوفا يناجون رب الرحمة يطلبون منه أن يرحمهم ولقد رأيت حال المسلمين عند هذا الجبل المقدس فاشفقت عليهم لقد رأيت امما مختلفة ووجوها متباينة ولهجات متغايرة ، واجساما ضعيفة هزيلة وأخرى بدينة سمينة وقلوبا لا اخالها عامرة بالايمان ولو أنها كانت عامرة لوقفت أمـام الله واضحة الجبين لا تعـرف الذلة ولا تعرف الفرقة التي شتتت شـمل الاسـلام وفتحت بين المسلمين ثغرات واسعة انحدرت منها اليه آراء وافدة ومستوردة ، فاضعفت كيانـه وهدت قواه •

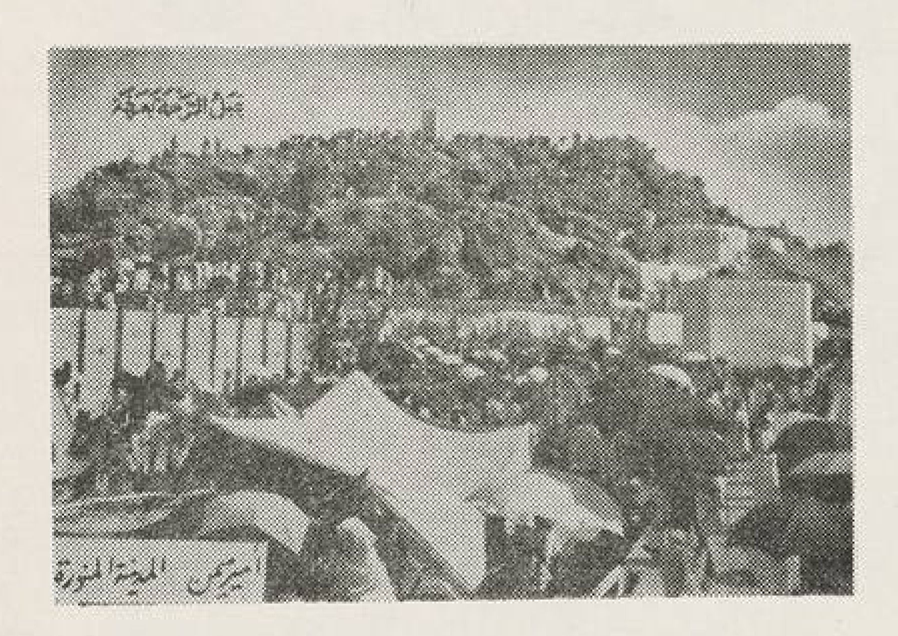
لقد اتجهت بكل قواى بجانب جبل الرحمة ودعوت الله من اعماق الفؤاد ان يأخذ بيد هذه الامم ويهديها الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم بالعقل الواضح المكتمل ففهموا حقيقة حالهـم وعرفـوا مسـالك دروبهم •

ويل للامة الضالة من الامم العارفة دروبها ان مثل الاثنين مثل الذئب والحمل مثل القوة الباطشة والضعة الخاضعة ان الذئب لا يرحم الحمـل

وان القوة لا تعترف بالضعيف • لقد كان الاسلام منبع مكارم الاخلاق بكل معانيها وكان العرب مثال الامم في الاخلاق فجاءهم الاسلام ليتمم مكارم الاخلاق لقد هذب محمد هذه الامة في الصدق والوفاء في الشجاعة والسخاء والصبر والمثابرة فكانت في تصرفها بين الامم المثل الاعلى • ولا ادرى ما بالها اليوم ؟

لقد تغير وادي عرفة في سهوله ورماله ، لقد فرشت فيه الشوارع الواسعة والشوارع الفرعية بالاسفلت ونصبت فيه المظلات الضخمة ونصبت حنفيات يستقبل منها الحجاج ما يحتاجون اليه من الماء وضربت في ارجائه خيام فرق الكشافة يرشدون التائهين عن مضاربهم وصرت لا تمشي في واد رملي انك تسير في مدينة واسعة الارجاء قصورها وحوانيتها الخيام تصطف على جوانبها العربات المثقلة بزجاجات المياه الغازية المثلجة وهنا وهناك خيام تشوى اللحم وتطبخ الطعام وبين هذه الخيام عربات مثقلة بالفواكه ومن هذه العربات تنبعث اصوات تنادى (الباهي يا حاج) لقد مشيت من جانب الجبل الى حدود الوادي من جهة مكة اشهد الحجاج مشاة يستظلون من وهج الشمس بمظلاتهم يقطعون الدروب جيئة وذهوبا يحيى بعضهم بعضا ويقفون أفواجا أفواجا حول حنفيات الماء ولقد أعجبني موقف رجل عليه آثار النعمة وفي لهجته لكنة هندية في جانب وعاء ضخم من المعدن مملوء بالماء المثلج لا يترك مارا الا الح عليه ودعاه لشرب ماء بارد وذكرت في هذه اللحظة المباركة القائد العربي محمد بن القاسم الثقفى الذى حمل مشعل الاسلام من العراق الى ربوع الهند فجعل من ابنائها افئدة تهوى الى هذا الوادي •

وقفت امام جبل الرحمة اتأمل الحاضر واستوحى الماضي وجنح بي الخيال فتخيلت رسول الله (ص) واقفا عند الصخرات الكبار بين مئة الف من المسلمين من كبار الصحابة وشباب الاسلام في حجة الوداع او كما يسميها بعض المسلمين حجة البلاغ حيث اتم رسول الله فيها تبليغ الدين الاسلامي الى المسلمين والى العالم اجمع تخيلت رسول الله يهدر بخطابه


جبل الرحمة بعرفة
أمير ركب المدينة المنورة

الضخم والمسلمون واقفون بين يديه يلقي اليهم قواعد الاسلام ويبين حدود الحلال والحرام • وتخيلت ربيعة بن امية بن خلف واقفا بجانبه يصرخ بالناس بقول رسول الله : قل ايها الناس ان رسول الله يقول : اتدرون اى شهر هذا ؟ فيقولون الشهر الحرام ! فيقول : قل لهم : ان الله قد حرم عليكم دماءكم واموالكم الى ان تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا ويعيد الرسول القول وربيعة يصرخ بأعلى صوته ليسمع اول القوم وآخرهم •

لقد بدأ رسول الله خطبة حجة الوداع بجملة مؤثرة اتجهت اليها افئدة المسلمين واصغت اليها اسماعهم بدأها بقوله : « أيها الناس اسمعوا قولي فأني لا أدري لعلي لا القاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف ابدا » •

ثم اخذ يرشدهم ويدعوهم الى الاستمساك بكتاب الله وسنة رسول الله وان يحافظوا على اموال الناس واعراضهم وانفسهم وان يردوا الامانات الى اصحابها ويبتعدوا عن أكل الربا وقتل النفس وان يعلموا ان المسلم اخو المسلم وان المسلمين اخوة فلا يحل لامرىء من اخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس فلا تظلموا أنفسكم • ونادى بالمساواة بين الناس • وقال ايها الناس ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، لا فضل لعربى على أعجمي الا بالتقوى ايها الناس ان الشيطان قد يئس ان يعبد بارضكم هذه ابدا ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم • ولما أتم خطبته توجه الى القوم وقال : اللهم هل بلغت ؟ فأجاب القوم من كل ناحية نعم يا رسول الله ! فقال الرسول : اللهم اشهد • ونزل من موقفه وصلى الظهر والعصر ثم قرأ آية القرآن الكريم : « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » بكى المسلمون عند سماعهم هذه الآية واغتبطت قلوبهم • بكى المسلمون حيث شعروا بفراق رسول الله ، واحسوا بفراغ عظيم لا يملؤه احد غيره واغتبطت قلوبهم بنعمة الاسلام واكتمال الدين •

تذكرت هذا الماضى المشرق بنور النبوة وقوة الاسلام وثبات العقيدة وتخيلت المسلمين يندفعون من جبل الرحمة اندفاع السهم من القوس

الشديدة وتخيلتهم في خيلائهم وعزتهم يتحادثون بهذه القواعد السامية والوحي المجيد يمشون فوق منبسط عرفة فوق رمالها الذهبية لا تظلهم مظلة ولا تقيهم واقية من حر الشمس او زمهرير الشتاء ولا توجد بينهم على بعد اذرع وخطوات حنفيات الماء تصب في الاحواض تخيلت هذه النفوس العامرة بالايمان ثم عدت الى نفسي واقفا بين مجموع الحاضر اشهد ذلة وانكسارا ، ارى الاكف مبسوطة بالادعية تطلب الغفران لكواهل منقلة بالاوزار وامام كل جمع قارىء يقرأ وهم يرددون ما يقرأ وما يقرءون الا أدعية مألوفة في كتاب مرقوم جمعت فيه ادعية لكل شعيرة من شعائر الحج فاذا عاين الحاج بيوت مكة فله دعاء واذا بدأ الشوط الاول من الطواف فله دعاء وفي الشوط الثاني دعاء حتى الشوط السابع واذا استطاع ان يحتضن الملتزم فله دعاء وعند مقام ابراهيم له دعاء . اما دعاء عرفة فهو دعاء طويل يقوله الحجاج بعد زوال الشمس في كبد السماء وبعد ان يجمعوا بين صلاة الظهر والعصر جمع تقديم ويقفوا عند جبل الرحمة أو عند الخيام او على بساط الرمل او الشوارع المفروشة بالاسفلت فان عرفة كلها موقف . ويقول الداعي في هذ االدعاء « اللهم انك وفقتني وحملتني على ما سخرت لي حتى بلغتنى باحسانك الى زيارة بيتك والوقوف عند هذا المشعر العظيم اقتداء بسنة خليلك واقتفاء بآثار خيرتك من خلقك سيدنا محمد (ص) وان لكل ضيف قرى ولكل وفد جائزة ولكل زائر كرامة ولكل سائل عطية ولكل ملتمس لما عندك جزاء ولكل راغب اليك زلفى ولكل متوجه اليك احسانا وقد وقفنا بهذا المشعر العظيم رجاء لما عندك فلا تخيب إلهنا رجاءنا فيك يا سيدنا يا مولانا يا من خضعت كل الاشياء لعزته وعنت الوجوه لعظمته اللهم اليك خرجنا وبفنائك انخنا واياك أملنا وما عندك طلبنا ولاحسانك تعرضنا ولرحمتك رجونا ومن عذابك اشفقنا ولبيتك الحرام حججنا . يا من يملك حوائج المسلمين ويعلم ضمائر الصامتين . يامن ليس معه رب يدعى ولا آله يرجى ولا فوقه خالق يخشى ولا وزير يؤتى ولا حاجب يرشى يا من لا يزداد على السؤال الا كرما وجودا وعلى كثرة الحوائج الا تفضلا واحسانا . يا من ضجت بين يديه الاصوات بلغات

مختلفة يسألونك عن الحاجات وسكبت الدموع بالعبرات والزفرات ملحين بالدعوات فحاجتي اليك يا رب مغفرتك ورضاء منك علي لا سخط بعده •• »

ويمضي الدعاء في صفحاته وجمله الرائعة بمجموعة من المطالب لو عمل الذى يدعو بها كما يلفظها لانتجت مجتمعا من ارقى المجتمعات • قرأت هذا الدعاء الطويل من اوله الى آخره مع جمع غفير من اخوتى المؤمنين ثم خلوت الى نفسي وذهبت أجول بين الخيام وفوق منبسط الرمال وانا اتذكر جمل هذا الدعاء الرائعة وارددها واريد ان اجملها بجملة او جملتين واخرج بها من الاثرة الى الايثار واسير مسيرة السلف الصالح المؤمن القوى فوجدتني لا اخرج عن جملتين اثنتين توجهت بهما الى الواحد الاحد الذى لا شريك له في ملكه وقلت : « اللهم امنح ابناء هذه الامة قبسا من نورك كيلا يضلوا واعطهم جزء من قوتك كيلا يذلوا » •

لقد وجدت في هاتين الجملتين ما يغنى عن طول الدعاء وكثرة الطلب وأنانية المطلب فان نور الآله كاف ان ينير دروب العباد واستمداد القوة من الجبار القادر فيه الكفاية لعزة امة والامة التى ترى دروبها وتعيش مرفوعة الكرامة تستطيع ان تقدم للانسانية ما يرفع شأنها وكذلك كان امر المسلمين في الماضى هداية رشيدة وقوة عزيزة قدروا بهما ان يضيفوا للحضارة البشرية ما جعلهم في سجل الخالدين •

عدت ادراجي الى خيمتي اذكر عهد الاسلام في وقفة محمد (ص) في حجة الوداع واتخيل الصحابة وقوفا ينتظرون آية من وحي الآله أو حديثا من فم الرسول وتخيلتهم قد انطلقوا من الجبل انطلاق السهم يريدون ان ينشروا فضائل الاسلام في ارجاء العالم ليمنحوا المظلومين حرية الحياة والمستذلين نعمة الاخاء والمساواة وينفروا طوائف ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون ثم انظر الى هذه الجموع الغفيرة ترفل بالنعمة بالماء الوفير والزاد الكثير والظل الظليل فأقول في نفسي : لماذا اجتمع هؤلاء القوم وعلى ماذا سيتفرقون وماذا فعلوا ؟

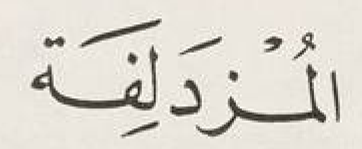
لقد جاءوا محملين بالاوزار وسيعودون الى ديارهم والله اعلم بذات الصدور •

وارحمتاه للمسلمين • لقد كنت اظن انهم انما جاءوا الى البيت العتيق ليذكروا الله ويشهدوا منافع لهم في ايام معلومات • ولكني رأيتهم سيعودون مثلما اتوا ثم اعود فأتخيل ربيعة يصرخ باعلى صوته يبلغ القوم بخطاب الرسول فيسمع اولهم وآخرهم وأقول في نفسي اما آن للمسلمين ان يذكروا هذا المشهد ويفعلوا لانفسهم موقفا مثل هذا الموقف فلو فتحوا لهم صندوقا في مدخل عرفات ووضع كل حاج في هذا الصندوق دينارا او ريالا فانهم في مدى خمسة اعوام يستطيعون ان يجمعوا مالا وفيرا يعد بالملايين ولاستطاعوا ان يأتوا بابرع مهندسي العالم فيبنوا ظلة ضخمة فوق جبل الرحمة تقيهم الحر والبرد ويبنوا مدرجا يسع نصف مليون من المسلمين ويضعوا في أرجائه مكبرات الصوت ويتبارى علماء المسلمين الاجلاء او علماء مكة من الفضلاء في شرح حقيقة الاسلام في عدة لغات ولكان للاسلام مظهر القوة ومظهر الاخاء ولعاد ابناء المسلمين هداة مرشدين يقون بلادهم شرور الالحاد وشرور الفساد ويمدونها بفضائل الاسلام من الصدق والوفاء والعدل والاخاء هكذا كانت تمر في ذاكرتي الفكرة تلو الفكرة وقلبي عامر بالايمان ولساني رطب بذكر الله اذهب واجيء حتى مالت ذكاء الى المغيب تكفكف اذيالها وتنتشر على رمال الوادى مطارفها الذهبية لتودع الحجيج بعد ان ملأوا الوادي بالتلبية والضجيج وطلب المغفرة • ونظرت الى الخيام فرأيتها تتهاوى والى الحبال والاوتاد تلف وتجمع لقد همد ما كان قائما وطوى ما كان منشورا وعجل الناس في لم امتعتهم وحزموا بسطهم وشدت الرحال واخذت رئات السيارات تتنفس بالشرر •

لقد بدأت النفرة ونفر الحجيج فلا تسمع ضجيجا ولا كلاما مزعجا انما تشعر بالغبطة والفرح تشعر انك اديت واجبا ضخما واتممت فريضة ركبت لها متن الهواء أو ثبج البحر أو قطعت الفيافي والوديان تشعر بالعودة والعيد تشعر كأنك بدأت حياة جديدة • انك مقبل على يوم تقدم في ضحوته

الهدي الى ابناء هذا الوادي غير ذي الزرع والضرع .

تجمعت هذه الامم المتباينة واصطفت الجموع وتحركت السيارات على الطرق الواسعة الممتدة من عرفة الى المزدلفة تمشي الهوينا في اتزان منظم لقد زحف الركب الاسلامي او الزحف المقدس في اقفاص السيارات وعلى ظهور الابل ومشيا على الاقدام كان السير بطيئا ولكنه منتظم وكان القمر في الليلة العاشرة من ايامه ولياليه يرسل اشعته الضعيفة ويعين الركب الزاحف في تبيان الطريق فبلغنا المزدلفة والقينا عصا الترحال في سدفة المساء .


المُزدَلِفَة

افضنا من عرفة حين انحدرت ذكاء الى المغيب وتوارت وراء الافق المخضب بالحناء ، وزحف مليون من المسلمين في حدود الظن منهم مئتان وستون الف نسمة في حدود اليقين في سجل مرقوم وجواز جازوا بـه الحدود من ارجاء العالم ، وآخرون لحقوا بهم من اعالي اليمن وهضبات نجد وجيرة البيت الحرام وكان هذا الزحف الرائع يبعث في النفس غبطة ويثير فيها الما ، يبعث الغبطة لهذه الشوكة العظيمة التي اندفع بها المسلمون في المشرق والمغرب ويثير الالم لهذا المظهر الذى يظهر به المسلمون اليوم في التخلف وراء ركب العالم •

لقد كان للمسلمين ارادة في مشرق الاسلام فاستطاعوا ان يحطموا الزمن ويغلبوه على امره ويقدموا الانسانية الى مكان رفيع في ربع قرن لم نصل اليه في قرن لو تركت تمشى وحدها الهوينا •

كان المسلمون فئة قليلة فغلبوا بقوة ارادتهم فئات كثيرة باذن الله ولو

كانت هذه الجحافل اللجبة التي ماجت بها دروب عرفات وشعاب المزدلفة تفعل مثل ما فعلته جموع المسلمين على قلتها مع الرسول في حجة الوداع في نشر العقيدة وتفسيرها والعمل بها لفتح التاريخ للاسلام صفحة ناصعة الجبين •

سرنا من عرفة نقصد المشعر الحرام ونذكر آيات القرآن الكريم :

« ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم فاذا افضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله لمن الضالين ، ثم افيضوا من حيث افاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم ، فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا ، فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » •

والمشعر الحرام هذا هو جبل المزدلفة يقف عليه الامام ويسمى قزح (بضم وفتح) وسمى مشعرا لانه معلم للعبادة وهو واد فسيح يبدأ من مأزمى عرفة وينتهى بوادي محسر (بكسر السين المهملة المشددة) تجتمع فيه جحافل الحجاج بعد الافاضة من عرفة يجمعون منه حصى الجمار على ما يقول رواة الاحاديث والاخبار • ولقد ذهب المفسرون في تبيان مقاصد الآيات الكريمة مذاهب شتى ، فقالوا انها نزلت بحق قريش حيث كانت في جاهليتها تتعالى على الناس فتقف في المزدلفة ويقف الحجاج في عرفة ، ولم يرض الله سبحانه ان تتميز قريش دون الناس بهذه المنزلة فامرهم ان يفيضوا من حيث افاض الناس ، وعندي ان الآيات واضحة عامة لا تختص باحد دون احد وهى خطاب للمؤمنين ولم يخاطب الله جل جلاله المشركين وانما يقول للمؤمنين « فاذا افضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ذكرا يليق بالخالدين الذين يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ولا يكتفون بذكر آبائهم في حظوظ الدنيا الزائلة بل عليهم ان يقفوا وقفة المتأمل الفاحص فيما تركوا وراءهم في عرفة في هذا المشهد العظيم والحفل الجامع الذي يعدّ أكبر مؤتمر ديني يأتمر به أهل هذه العقيدة السماوية

التي يمكن ان ينعم في ظلالها ابناء البشر في امن وسكينة لو اتبعوا قواعدها وساروا على هداها •

ما كانت المزدلفة بعيدة عن عرفة ولا بعيدة عن منى ولكن الذى يرى هذه الجحافل يدرك حكمة الوقوف بها وجمع الحصى والبقاء ولو لجزء من الليل على رواية او كل الليل على روايات اخرى كي يستطيع المسلمون ان يفيضوا الى منى الى المنحر وا لىمكة لطواف الافاضة فرقة بعد فرقة كيلا تزدحم الجموع ويحدث الضرر •

والاهم من هذا وذاك ان يقف المؤمنون بهذا الوادى ليرتاحوا بعد افاضتهم من عرفة ساعة النفرة وليجمعوا شملهم ويعيدوا النظر فيما فانهم والتأمل في اوضاعهم مرة ثانية ويهيؤا انفسهم للجلى من الامور وان يجعلوا الله امام اعينهم ويحمدوه ويكبروه على ما انعم عليهم ويدافعوا عن شريعته وقرآنه وان يمحوا الاثرة من نفوسهم فان الذين يأتون الى هـذا الموقف يجب ان يكون لهم من النضج والكمال ما يترفعون به عن حظوظ الدنيـا الزائلة ويركنوا الى حظوظ الخالدين الذين يمنحون الانسانية نعمة الحياة ذلكم هى الغاية من الاسلام •

فعند المشعر الحرام وقف النبى وصلى وارشد وعلم وذكر الله وجمع بين العشائين باذان واحـد واقامتين ووضـح للمسلمـين ما يعمـلون به في مستقبلهم ولكنهم لم يفعلوا من ذلك شيئا غير جمع الحصى والجمع بـين العشائين •

كان القمر في عنفوانه ينير لنا الطريق وكانت السيارات تتهادى في سيرها بنا وكانت الابل تمشي وئيدا وكان المترجلون يمشون على الحافة مثقلين باحمالهم حتى اذا وصلنا هذا المشعر الحرام ارتفعت اصواتنا بالتهليل والتكبير وذكرنا الواحد الاحد الذى لا شريك له في ملكه والقينا عصى الترحال وصلينا المغرب والعشاء وجمعنا بينهما بأذان واقامتين جمع تأخـير وشرعنا نجمع الحصى على ضوء القمر نغمس اصابعنا في الرمال نبحث عن أحجار صغار بقدر الحمصة أو تكبرها بقليل وطالما غمسنا الاصابع الى عمق

يزيد على طولها فتخرج ايدينا مملوءة بالرمل والحصى فنترك الرمل يخرج من فروج الاصابع ونستبقى حصوة أو حصوتين ثم نعيد اليد تارة اخرى وكان كل همنا ان نجمع من الحصى ما يعيننا على رجم الشيطان وما يمكن وضعه في كيس صغير نحمله معنا • وبينما كنت منهمكا في عد ما وصلت اليه جاء رجل يعصر اصبعه يسأل عن طبيب يداويه فقد لسعته العقرب وهو يجمع حصاه ثم جاء اخر يشكو مثل شكوى صاحبه فكففت عن الجمع خشية ان يصيبني مثل ما أصاب القوم وعددت حصاي فاذا به يزيد عما أريد •

كانت الليلة صافية الاديم والقمر مشرقا وضاح الجبين كان يذرع كبد السماء مسرعا يريد أن يتوارى وراء الافق وكانت نسمات الهواء تحمل في اجنحتها بردا لاذعا اخذ يشتد رويدا رويدا حتى صار لا يقيه ازار الاحرام ورداؤه وأخذ الظلام يزحف وراء القمر ولم يتركه حتى توارى وراء الافق ولف الظلام هذه الجحافل الزاحفة وأخذ الناس يلوذون بظلال سياراتهم أو يدخلونها ومن كانت له سيارة خاصة به دخلها واقفل نوافذها وبين اقفال النوافذ وفتحها فرق عظيم فاذا أقفلتها على نفسك تصبب العرق من جبينك واذا فتحت نافذة واحدة هجم عليك برد لاذع لا تلبث معه قليلا حتى تنشف خياشم التنفس •

لقد صبرت على هذه الحال حتى ذهب الهزيع الاول من الليل ثم شرعت أتذكر أقوال الفقهاء فأخذت بأولها وذلك ان أمكث في المزدلفة جزءا من الليل ثم افيض منها من حيث يفيض الناس وأن أسير الى منى لارمي جمرة العقبة بسبع حصيات ثم أقصر وانحر واذهب أطوف طواف الافاضة وتذكرت قول بعض الفقهاء ان أول طواف الافاضة يكون بعد منتصف الليل وان كان يفضل بعضهم هذا الطواف في ضحوة النهار من يوم النحر وترددت في اخذي الاسهل من أقوال الفقهاء أو التلبث حتى أصلي الفجر •

وغلبني الرأي في أن الدين يسر فلا يجب الايغال فيه وما دامت هذه الجحافل تغط في نومها وما دامت لا تريد ان تشهد منافعها عند المشعر الحرام

ولا تنظر في أمر المسلمين ولا تلتفت الى هذا المؤتمر العظيم وما دامت هذه الجحافل ايقنت ان الحج عرفة وان بقية المناسك ما هي الا متممات ووقفت عند هذا الحد من أداء الفريضة فلا تتعداها الى سواها ولا تريد ان تفهم غاياتها واهدافها فان عليّ اذن أن أسلك أي طريق شئت في اتمام ما فرض الله وان آخذ بأي رأي من آراء فقهاء المسلمين الذين ثبتوا أصول الشريعة الاسلامية وأنموا فروعها •

وقفت عند هذا الحد من التفكير في أمري ثم التفت الى هذه الجموع الهاجعة التي بردت مفاصلها فاستسلمت للكرى وقلت وارحمتاه للاسلام لقد أبدع محمد بن عبدالله للعقيدة الاسلامية عقلا جبارا يتصرف في قواعدها فيجعلها صالحة لكل زمان وكل مكان • فما بال هذا العقل توارى وراء الحجب ؟ لقد سعدت هذه العقيدة عندما كان العقل يفهم أنه لن يستطيع أن يسعد الا في التضحية ولن يستطيع ان يصل القمة الا اذا تخطى الصخور الناتئة ولن يستطيع أن يشير باصبعه فيطاع الا اذا ثبتت قدماه على الذروة •

ان العقل الذي يريد أن يصل الى الذروة يحتاج الى المفاصل المتحركة التي تقدح الشرر لا الى المفاصل الباردة المتجمدة التى لا تطيق حراكا وان ينابيع العقل لا تنبط بالحكم والفكرات الناضجة الا اذا استيقظت الحواس وتحركت الاطراف ان النائمين أموات وهل تخلق الرمم البالية أمة تنبض عروقها بالحياة أن للاسلام عقلا جبارا وعلى المسلمين أن يركنوا اليه •

إلى منى لرمي الجمرة الأولى

جمرة العقبة

وفي غلس الليل البهيم وعلى هدى الشريعة الاسلامية واقوال فقهاء المسلمين والحجاج نيام طلبت من السائق الحاج المحرم ان يستيقظ وينهض حتى نترك المشعر الحرام ونذهب الى منى فاجاب وتوكلنا على الله وارتفعت أصواتنا بالتلبية والدعاء ونبضت رئات السيارة بالتنفس واخذت تتهادى في مسيرها وانبعث شعاع نورها يضيء جوانب المبيت بين سيارات رابضة واجسام ممدة حتى اذا وصلنا الطريق العام اخذنا سمتنا الى منى وفتحت قدر اصبعين من نافذة السيارة وخلفنا وراءنا المزدلفة نبغي رمي الجمرة الاولى جمرة العقبة والجمرات هنا مجتمع الحصى من جمره بمعنى جمعه وكل جمرة ترمى بسبع حصيات صغيرة كل يوم من الايام الثلاثة أو الاثنين وتمتاز جمرة العقبة منها انها ترمى قبل ذلك في يوم النحر •

ورمي الجمار من ذكريات النسك المأثورة عن ابراهيم الخليل وعامة أعمال الحج ذكريات لنشأة الاسلام الاولى وهنالك أقوال أخرى يرويها

رواة الاخبار منها ان الرمي تقليد لما فعله ابراهيم الخليل عندما وسوس اليه الشيطان بمعصية ربه وعدم ذبح ابنه اسماعيل وتقليد لما فعله اسماعيل عندما وسوس اليه الشيطان بمعصية أبيه ولكنني عندما عدت الى مدارسة الآيات الكريمة في القرآن المبين لم أجد معنى تحتمله الآية بمثل هذا المعنى فقد قال ابراهيم لابنه : « يابني اني أرى في المنام اني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ » فقال اسماعيل : « يا ابت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين فلما هم ابراهيم أن يفعل سمع هاتفا انا كذلك نجزي المحسنين وان هـذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم » فما دخل الشيطان ولا وسوس ولا تحرك ولا تنفس وكانت القصة طاعة للرب من الاب وادباً من الولد للوالد انتهت بتقدير عظيم وامتحان ناجح ظلت نتائجه سارية المفعول تنتقل في اصلاب الاجيال جيلا بعد جيل وسوف تستمر الى يوم يبعثون .

وصلنا منى وانتحت بنا السيارة مكانا خاليا وركد فؤادها فترجلنا وسرنا نبغي جمرة العقبة بقلوب عامرة لم تنفذ اليها وسوسة الشيطان واردنا أن نستقبله بالحصى والتكبير والتهليل قبل ان يخنس ويدخل القلب ويحول بيننا وبين عبادة الرب ولم نزل نلبي حتى وصلنا مكانه الاول فاذا به عمود مرتفع يحيط به حوض يتساقط فيه الحصى واذا بعدد يتجاوز بضع مئات سبقونا اليه تولوه بالرمي بحصى صغار أدركت فيها حكمة الشارع فان بعض السواعد الشديدة تتجاوز في رميها هامة العمود فتقع على هامات الحجيج وعلى وجوههم (ونظاراتهم) فرميت أول حصاة واردت ان اقطع التلبية معها كما هو المأثور غير اني أخذت بالحديث الشريف ان النبي (ص) كان يرمـي الجمرة ويكبر مع كل حصاة فلما انتهينا من ذلك التفت الى السائق الحـاج وسألته ان يدلنا على المذبح وسارت بنا السيارة في طريق لاحب بين خيام مضروبة تنتظر المفيضين من المزدلفة وبين سيارات كبيرة رابضة على جانبي الطريق حتى وصلنا الى مكان لم تستطع السيارة ان تنفذ منه فترجلنا وسرنـا وسط رمال وحصى وحجارة في ظلام لا تتبين فيه وقع اقدامنا ثم دخلنا مكانا فسيحا افضى بنا الى فضاء واسع تربض عليه الاغنام جيء بها لتقاد طائعـة

على ذمة الفداء والغذاء واتماما للمناسك واجابة للدعاء وفي هذه الهدأة من الهزيع الاخير من الليل أقبلنا على هذه القطعان نتخير منها الفداء وتلفت حولي فلم أجد غير حاج واحد علمت انه أخذ بما أخذت به من يسر في الشريعة فضحى ومشى وتوكل على الله وقدم هديه الى أهل هذا الوادي وجاءني نفر من الرعاة أو الباعة يعرضون عليّ خرافهم فوقعت عيني على رجل يقود خروفين اثنين سمينين وعرض ثمنهما فما جادلته وما ساومته لاني وجدت في كل واحد منهما مصداق الآية ووجدت في كل واحد منهما فداء وذبحا عظيما وطلبت ان ينحرهما بيده ويتصرف بهما كيفما يشاء ويختار فانهما هدي وكفى • وعدنا الى السيارة وأخذنا سمتنا الى الكعبة الى البيت العتيق واخذت السيارة في هذه المرة تنهب صدر الارض ونسمات الهواء الباردة تداعبنا ونداعبها كلما اشتد علينا حر السيارة وضاق النفس والليل في أخريات ساعاته وشفتاه السوداوان اخذتا تنفرجان رويدا رويدا عن ثغر الفجر الباسم ثغر يوم عيد الاضحى والقلوب رطبة بذكر الله والايمان يضيء جوانب الجوانح كما تضيء النجوم المتلألئة صفحة السماء والنفس طائرة مجنحة تريد أن تسابق السيارة في وصولها الى البيت العتيق غير انها مقيدة بالنوافذ والمقاعد • وما هي الا دقائق معدودات حتى وصلنا الى الكعبة الى بيت الله الحرام ولما أردنا ان نقف بالقرب من باب الصفا ونترجل رجعت سيارة أخرى علينا فدعمت سيارتنا دعما بسيطا ومهما كان الامر بسيطا فانه يؤثر في سيارة مطهمة فخمة جديدة مثل سيارتنا وقد وجدت في خلق السائقين الحاجين ما يمثل التأدب بآداب الحج فقد وقف كل منهما ينظر الى صاحبه كأنه يلومه فقال صاحب السيارة الداعمة انني مستعد ان أزيل الضرر فقبل سائق سيارتنا الحاج واشترط ان يكون ذلك أمام مسؤول من الشرطة ولا أعرف لماذا ؟ وجاء في الحال ضابط المرور فأخذهما الى المركز وتركناهم وذهبنا نطوف بالبيت طواف الافاضة وكان المفيضون من المزدلفة قلة يسهل معهم الطواف والوضوء بماء زمزم ورأيت منهم من لا يكتفي بالوضوء بل يصب على رأسه وجسده الماء فتوضأنا وطفنا وسعينا وقصرنا وتوجهت الى البيت ودعوت ربي بدعائي

الذي اخترته لنفسي وقلت : « اللهم أعط المسلمين جزءً من نورك حتى لا يضلوا وامنحهم جزءً من قوتك حتى لا يذلوا » ولما تركت الصفا والمروة أخذت جموع الحاج تموج في أرجاء البيت والادعية ترتفع الى عنان السماء والمطوفون يسيرون أمام كل رعيل من الحجاج والحجاج منهم من يرمل ومنهم من يمشي الهوينا ومنهم من يحمل على كرسي واشتد الزحام وصار صعبا على المرء ان يخترق هذه الجدران البشرية المتراصفة المتدافعة فحمدت الله على اني أديت نسكي حيث أريد دون ان يزحمني زاحم أو يدفعني دافع ووصلنا السيارة فلم نجد سائقنا ولبثنا ننتظره حتى عاد من مركز الشرطة وقال : ان السيارة لم تكن ملكي وان عليّ أن أصلح العطب وما دام العطب وقع من غيري فانني أردت أن اثبت ذلك بمحضر أمام جهة مسؤولة يكون مصداقا لقولي وادعائي وطلب منا ان ننتظره لكي يطوف ويسعى ففعلنا وعاد الينا وقد أكتملت حجته • هذا هو الحج قد أكتمل بوقوفنا بعرفة وانتهينا من مناسكه فاقمنا بمزدلفة الى ما بعد منتصف الليل ثم هللنا وكبرنا ولبينا ودعونا عند المشعر الحرام ورمينا الجمرة الاولى بسبع حصيات خسىء بها الشيطان وجنده وأخرسنا وساوسه ثم نحرنا وطفنا وسعينا وارتوينا من ماء زمزم وها نحن اولاء نعود الى منى ننتظر شروق الشمس عن صباح يوم عيد الاضحى هذا العيد الذي نطلق عليه العيد الكبير في عرف الطفل الصغير والرجل الكبير ولكنني ما رأيته كبيرا في عيون المسلمين الذين ينظرون الى حاضر العالم الاسلامي وماضيه لقد رأيته صغيرا في عيون هؤلاء الذين يحي بعضهم بعضا ويبتسمون ويجاملون ويدعون ان يعود على العرب والاسلام بالخير والسعادة واالرفاه وهم يعلمون جد العلم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ولا تبنى مصانع تحطم الذرة وتلين الحديد وتسبك الصلب وتصنع الآلة وتغزو أجواء الفضاء ان الدعاء مطية الجبناء والرجاء مركب البلداء وان الدماغ واليد هما الذان يصنعان نتائج الاعمال وان اللسان لا يأتي الا بالاقوال •

لقد طر جبين الفجر الصادق ولمع ضياؤه في الافق الصافي واخذت ذكاء تطرز مطارف ثوب النهار بحمرة الحناء ووقفت وراء نافذة الغرفة انظر الى

هذا المشهد الجميل والصباح المشرق وأجول بناظري في هذه الخيام الرابضة االهادئــة التي لا تنبض فيها الحياة وأعلم انها خالية فان الحجاج لم يعودوا اليها بعد ثم انكس رأسي فوق صدري واطلق لخيالي ان يجنح في الفضـاء فاتخيل يوما من الايام ارى فيه او ترى اجيالنا المقبلة فيه علماء الذرة وعلماء الفضاء وعلماء الشريعة وفطاحل الشعراء والادباء والخطباء يغشون مجامعهم في منى بعد ان عرضوا فيما بينهم بحوثهم ومختبراتهم وتبادلوا الآراء واستعان بعضهم ببعض في ظلال جبل الرحمة تخيلتهم يتصافحون ويهنىء بعضهم بعضا وينشرون بيانهم السنوي على العالم الاسلامي بما فعلوه وما وصلوا اليه • هكذا كنت اتخيل هذا اليوم اشهد فيه جموع علماء المســلمين واشــهد عزة الاسلام وعبقرية العرب فاتعزى به عن مثل هذا اليوم الذى لم يتكشف الا عن تضرع وخشية ولم تنفرج فيه لمة الليل الا عن شمس ضاحية محرقة لا تجد فيها غير هذه الجموع المزدحمة الرابضة في الخيام •

لقد وضح أمام ناظري كل شيء وايقنت ان سر تأخر المسلمين يرجـع الى انهم لم يأخذوا بمبادىء الاسلام لقد كان المسلمون يعرفون قيمة الزمن وكانوا يعرفون ثمن العمل ويعرفون الحـق ويتواصون بالصـبر ويعملون الصالحات فما لانت لهم قناة ولا تراجعوا لقد زحفوا على العالم بيدهم القرآن فأناروا أرجاءه وزحفوا على الظلم فاطفأوا نيران الشرك وأخمدوا أوارهـا علموا الناس الحق ففهموا معنى العدل وعلموا الناس المساواة فاختفى الظلم وعلموا الناس الجد في العمل فانتجوا حضارة عربية اسلامية لا تزل تشرق من عليائها بين حضارات الامم •

يَوْمُ العيد

أشرق يوم عيد النحر وتفتحت ابتسامة الشمس المضيئة فوق ذرى الجبال وبسطت سرورها على الوهاد والشعاب والبطاح وتهللت وجوه الناس بالبشر وبدأ تبادل التحيات الطيبات المباركات بين القوم وفرح الرجال والنساء مثلما فرح الاولاد والبنات وتلونت الثياب بعد ان كانت لونا واحدا كانت بياضا ناصعا وشكلا موحدا ،كانت ازارا ورداء لا فرق بين رجل ورجل في هذا النوع من الكساء وعادت مختلفة الالوان والاشكال عادت انيقة لماعة فضفاضة كاسية وضيقة مقرطقة وصرت ترى الوان الامم في وجوهها وثيابها وتبصر علامات الثراء والجاه على وجوه القوم وفي ملابسهم وسلوكهم ومكانتهم في مسالك الحياة ومضايقها •

وكان حقا ان تتهلل الوجوه بالبشر فقد تطهرت القلوب من الحقد والحسد وتلاقى في الايام الفائتة الاعداء والاصدقاء والاقارب والابعدون وسألوا الله جل جلاله المغفرة وحسن الختام لقد أدى المدين دينه وقضى

فريضة كانت مكتوبة عليه واختفت الاوزار التي كانت تثقل الكواهل وخفت الاجسام والارواح واذا خف الحساب وقضى المدين دينه وفرغ من واجب مفروض عليه مرحت نفسه والنفوس المرحة أقدر على الاخاء وأكثر اجابة للعدل والمساواة وغفران الزلات واطوع في الاذعان للحق ، وقد علمتنا التجارب أن الجرائم والآثام بنات اليأس والكآبة ولأمر ما جاء في الأثر يكاد الفقر أن يكون كفرا فان الفقر من دواعي اليأس والكآبة والغنى سواء أكان غنى النفس بالقناعة أو غناها بالمال من دواعي الانبساط والتفتح للحياة ولأمر ما دعا ابراهيم ربه ـ ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ـ •

لقد كان واديا غير ذي زرع ولا ضرع وكان الهدي من أول وجانب الحج ليزيل الفقر ويدخل السرور فتمرح النفوس وتطمئن القلوب فتقيم الصلاة وتشكر الرب •

ولقد رأيت في هذا اليوم وجوها طافحة بالبشر في قسمات الفقير وقسمات الغني لقد امتلأت عين الفقير من أشلاء الهدي المبعثرة المتناثرة في جميع الارجاء ومن سخاء أهل البر والتقوى الذين يجدون في الحج المقدرة والاستطاعة وطفحت قسمات الثري لانه أجاب داعي الله وأيقن في نفسه ان في ثرائه الاستطاعة التي تريدها الشريعة •

لقد أدينا الفريضة وقمنا بالشعائر والمناسك ولكننا هل بلغنا المقاصد العظمى من الحج ان للحج في جوانحي مثلا عليا والمثل العليا صعبة المنال انها أعز من بيض الانوق فلقد تباعد ما بين مشرق الاسلام وماضيه وحاضره اليوم لقد كنت اوثر الا ينتهي الحج بهدي يترك في العراء ليفرح به فقير يستهويه قتار الشواء او تجتذبه رائحة القدر أو يجد في جلد شاة يسلخها دريهمات معدودات يستعين بها على شؤون الحياة •

لقد كنت اوثر ان تكون مقاصد الحج أعلى من هذا وذاك كنت آمل أن يكون الحج مؤتمرا وان يكون لهذا المؤتمر من العزة مثل ما كان للاسلام

في حجة الوداع وان يكون له من الهداية والارشاد مثل ما كان ينبعث من النور والهداية من غار حراء •

تركت هذا الخيال المجنح يطوي جناحيه ونزلت الى عتبة الدار حيث كانت السيارة تنتظرنا ثم تحرك فؤادها ومشت بنا تتهادى بين هذه الجموع الزاخرة المرحة وشقت طريقها الى القصر الملكي وهناك وجدنا جموعا من سراة المسلمين الوافدين من ارجاء العالم فيهم السياسي الوزير والموظف الكبير والفقيه والعالم والتاجر وكثير من الناس ودخل القوم ودخلنا وفق ترتيب منظوم لتحية رئيس موكب الحج في عام ١٣٨٣ الامير فيصل ولي العهد ونائب الملك تحية العيد وهي عادة مألوفة للحجاج في هذا اليوم من أيام عيد النحر •

وعادت بنا السيارة واخذت سمتها الى مضرب خيام سفارة الجمهورية العراقية حيث وجدنا حجاج العراق يحيي بعضهم بعضا في وجوه ضاحكة مستبشرة ثم زرنا مخيمات حجاج العراق واحدة بعد الاخرى وكانت على كثرتها قد جمعت ابناء العراق من جميع ارجائه وتركنا هذه المخيمات والسيارة تمشي بنا الهوينا بين جموع زاخرة وأشلاء الهدي المتناثرة وقتار الشواء الذي تملأ رائحته جوانب الفضاء والقدور التي تغلي بأطايب اللحوم والاطراف والفضلات المطروحة حول المواقد هنا وهناك وبين الخيام وعلى أبوابها كانت الارجل والرءوس مبعثرة وفضلات الفرث متناثرة وفي جيئة وذهوب ترى رجالا يحملون بايديهم قطعا من اللحوم المختلفة ترى رجلا يحمل فخذ الهدي وآخر يحمل نصفا منه وثالثا قد اعجله عمله فقطع فخذين معا دون ان يسلخ الجلد عنهما ورابعا يسوق حمارا محملا بالذبائح المسلوخة جلودها وقد سألت عن هذا الذى يحمل على حماره اربع ذبائح سمان مرة واحدة فقالوا انه رجل من البادية انه يأخذ هذه الذبائح فيقددها ويملحها ويتركها لحرارة الشمس حتى تجف وتكون له ذخيرة طوال أيام الشتاء أو طوال أيام السنة يخرج منها ما يكفيه لوجبة الطعام وقد تكون هذه المجموعة كافية له أو يعود فيأخذ مجموعة ثانية •

ان النفوس اذا جاعت تقضم العظم وتمضغ الجلد واذا امعنت بالشبع عافت أطايب الاكل واسرفت وبذرت وليست كل النفوس تفعل هذا فان النفوس الحية المهذبة لا تقبل مثل هذا التبذير ان المبذرين اخوان الشياطين • ليت كل من في البادية من الفقراء يفعلون فعل صاحب الحمار فيقددون لحوم الاضاحي ويختزنونها ويخلصون السنة الناس من القول فيها وادمغتهم من التفكير في شأنها •

كانت هذه الاشلاء المبعثرة والذبائح المتناثرة حديثة الذبح والتقطيع لا تنبعث منها رائحة ولا ترى عليها ذبابا فان فتيانا أشداء يحملون أدوات التبخير يطلقونها في الفينة بعد الفينة في الشوارع والمنعطفات فيبيد دخانها صغار الحشرات ويخلصون الناس من شر مستطير يقطعون دابره ولا يتركونه ينقل الجراثيم بين اجنحته وارجله •

كان هذا الاسراف والتبذير في لحوم الاضاحي موضع تفكير العقلاء من أصحاب الحل والعقد فان هذه الثروة الهائلة فيها غذاء هائل لفقراء هذا الوادي غير ان عادة هؤلاء الفقراء ظلت تنتقل معهم في أصلاب الزمن جيلا بعد جيل لم تتغير يمشون بها على سبيل واحدة كما تمشي النملة في سبيلها يأخذون أطايب بعض الهدي ويتركون الباقي ليد الحدثان تفعل به ما تشاء ان هذا بطر في النعمة واسراف في الثمرات التي رفع ابراهيم يديه الى السماء يدعو ربه من أجلها فاجابه ففاض الوادي بالخيرات والثمرات وما رأيت يوما من الايام امتلأت به عين الفقير شبعا وريا مثل هذا اليوم ولكن هذه العيون لا تنظر الى الآفاق البعيدة •

كانت الشمس تذرع السماء وكانت حرارتها هادئة وكانت الظلال حول الجدران لطيفة النسائم وكان كثير من الحجاج يستظلون بظلها ويستروحون بها من وهج الشمس وكانت الاسواق مفتحة ومترعة دكاكينها بالبضائع التي تواردت الى منى من اقاصي المعمورة بل اجتمع بعض باعة المدينة المنورة وباعة مكة المكرمة في هذه السوق الجديدة وشرع الحجاج

يتزودون بالهدايا المباركة من الارض المقدسة الى ذوي القربى والاصدقاء ويتأهبون للعودة ولكن ما زالت الجموع الزاخرة تتدفق على منى في ضحوة يوم العيد وتسير افواجا الى جمرة العقبة لرمي الجمار وكان الزحام على أشده غير ان البشر كان يطفح على وجوه القوم • لقد اختفى الغضب في هذا اليوم وتوارى عن الوجوه في أسواق منى وحول الجمرة الاولى ولقد أحببت ان يدوم هذا الاختفاء ليتوارى وجه الغضب عن العالم الى الابد وان يأخذ الانسان بيد أخيه الانسان •

ما اروع تعاليم محمد (ص) في تهذيب النفوس • لقد أغدق على نفوس الامة الاسلامية هباته التي أكرمته بها السماء فتبددت ظلمة النفوس واشرقت القلوب بنور ربها وتعالى الانسان الى صفوف الملائكة في صفاء الروح والايثار وصار الشيطان خناسا يكنس في مكانس الريب وصار التعوذ بالله منه شعيرة من شعائر الايمان •

أيكون اذن هذا االعمود المرتفع وسط حوض صغير يتساقط فيه الحصى رمزا للروح المثقلة بالاوزار روح الشيطان الممتلئة بالحقد والحسد والشر والغضب وتكون هذه الاحجار السبعة رمزا للاوزار التي تثقل كاهل الانسان وتكون تلك التكبيرات التي ترافقها في كل رمية نغما هادئا يذكر الانسان بعظمة الخالق ويسر في اذنه بان آدم كائن صغير في هذا الوجود العريض الضخم الذى لا تعرف حدوده ، فاذا قال الحاج مع كل حصاة الله أكبر أدرك انه كائن أصغر فيدرك نفسه ويتواضع ولا يختال في الارض مرحا ولا يبلغ الجبال طولا •

لقد خزم محمد بتهذيبه كبرياء النفس وغرورها وبسط لها في الهداية صراطا مستقيما فمشت نفوس المسلمين في مشرق الاسلام تنشيء وتبدع لان النفس المغرورة تجللها البلادة ويظل انفها في الفضاء كمثل السنبلة الفارغة تظل واقفة حتى تجف وتصبح هشيما تذروه الرياح ، والنفس المتواضعة يميل بها تواضعها فتبصر الارض وتفحص ما تحت قدميها لتثمر كمثل السنبلة المملوءة يميل بها الحب الى الارض يبحث عن مكان الاثمار والانماء •

لقد حرر محمد (ص) النفوس من الغضب والحسد والكبرياء وربى الارادة الفاضلة التي لا ترى لذتها الا في الايثار والعدل ولا تستطيب النوم الا اذا فتحت بابا من أبواب المعرفة ووضعت رجلها على درجة من درجات سلم الطموح ان في اجتثاث الغضب والكبرياء من النفوس وانتزاع الحقد من القلوب وتربية الارادة بين يدي العقل تكوين شخصية الانسان وهكذا ربى محمد شخصية المسلم •


الأضاحي

بدأ تشريع الفداء وبدأت معه الاضحية ونجم من وراء ذلك عيـــد الاضحى لـكثرة ما يضحى فيه وبدأت مشكلة كبيرة هي مشكلة الاضاحي وتعقدت حين بدأت افئدة الناس تهوي الى هذا الوادي ويتكاثر عددها وظلت هذه المشكلة تنتقل في أصلاب الزمن باسم ما خصصت له وهي ان الهدي لله تتناوله ايدي فقرائه الذين يعيشون حول البيت العتيق ويستظلون بظلالـه فلا تمتد اليه الا يد فقير محتاج فاذا اكتفى هذا الفقير وشبع بطنه فقــد تم كل شيء • وتركت هذه الضحايا قلت أو كثرت في العراء للتفسخ والاندثار وتفريط في ثروة ما بعده تفريط •

لقد تقاربت رحاب العالم حتى أصبح للمسافر اضيق من كفة الحابل وصار المسلم في الصين والهند وسيبريا الذى كان يقطع الطريق في أشهـر معلومات يقطعه اليوم في أيام معدودات وتكاثر حجاج بيت الله الحـــرام وازدهر الوادى واثرى أهلوه وقل فقراؤه وكثر الفداء حتى بلغ هذا العام

ما يقرب من نصف مليون رأس في حدود الظن من الضأن والمعز والبقر والابل وتفتحت عيون الناس على هذا العدد الضخم وصار التفكير في شأن هذه الحيوانات المتناثرة في العراء موضع اهتمام العالم الاسلامي وأولى الحل والعقد في هذه البلاد وأخذ كثير منهم يترددون في ابداء آرائهم ، أتترك هذه الكميات الكبيرة والثروة العظيمة مطروحة في الارض تأخذ منها أيدي الفقراء اوشالا وتطرح الباقي لآفات الطبيعة تفسخها وتجعل منها خطرا على الصحة ثم تعيدها ترابا تذروه الرياح لا لشيء الا ان الشريعة خصتها بالفقراء وليس لاحد ان يتدخل في شأنها أم يتخذ بشأنها ما هو الاصلح فيكبر نفعها حتى يغمر العام كله ؟

وصار تنفيذ خطة عملية يتأرجح بين الاحجام والاقدام وكان الاحجام متأثرا بالرأى العام الاسلامي الذى لا يستند الى أصل الشريعة وانما يستند الى أن هذا الهدي ملك للفرد الذي أهداه وخرج من يده الى يد أخرى يتعلق بها حق الغير وهو رأى ضعيف لا يقف أمام المنطق لان الشريعة الاسلامية اسمى من ان تقف بجانب التبذير والتفريط واسمى من ان تقف موقف الجمود وهي الصالحة لكل زمان والتي يمكن تطبيقها في كل مكان وهي التي تجعل اتخاذ التعليل بالمصلحة دليلا من أدلتها وبعبارة اوضح هي التي تراعي المصلحة العامة عند النظر في الاحكام والبت بها اذ كانت المصلحة العامة ترتكز على المنطق وتتفق مع روح الشريعة والعدل ولا تعارض دليلا من أدلتها وان تكون من الضروريات المقتضية للمحافظة على الدين والنفس والعقل والنسل والمال وما تتطلبه الحاجة لصلاح المعيشة •

أفليس التفكير في شأن هذه اللحوم وتوابعها التي ستتولاها ايدي البلى من مقتضيات المحافظة على المال ومقتضيات الحاجة لصلاح معيشة الفقراء ؟

لقد وضعت الشريعة الاسلامية قاعدة أصولية سامية نافعة تلك هي المصالح المرسلة والمصالح المرسلة يعرف تطبيقها ولاة الامر والسلطة التي تنفذ أحكام الشريعة وتوجه العمل وجهته الصالحة ومن ذلك جواز الاستفادة بلحوم الاضاحي • ولقد صدرت فتوى بهذا الشأن من علماء الدين في المملكة

العربية السعودية وعلى أثر صدور الفتوى أصبح التفكير جديا في شأن الهدي وتألفت اللجان وتقدم الخبراء بتقاريرهم واشترطوا فيما اشترطوه الاحصاء الدقيق الواجب اتخاذه في بدء الامر لمعرفة مقدار ما يضحى به في كل عام فان عدد الضحايا منوط .بوفرة عدد الحجاج الذى يختلف بين عام وعام وانه غير احصاء دقيق ومعدل معلوم لا يمكن الاقدام على مشروع ضخم مثل هذا المشروع الذي يكلف القائمين به مالا وفيرا دون مقابل فانه مادام لله وللصدقات فانه سيبقى لله وللفقراء في ظلال الحرم •

انه يحتاج الى خبرة ولابد لهذه الخبرة من الاختصاصين في صناعة اللحوم أو المخلفات والاستفادة منها ولابد لكل ذلك من مصانع تشاد ودوائر تؤسس ولابد لحجاج المسلمين ان يقبلوا بالرأي النافع في هذا الشأن فان واقع الامر شهدناه بأعيننا ورأينا كيف تبدد ثروة تبديدها ليس من الخلق الكريم وتبذيرها لا تعترف به شريعة من الشرائع ورأينا كيف يمكن أن تكون هذه الاشلاء المتناثرة خطرا على صحة أهل البلاد وصحة الحجاج لولا تلك التدابير الصحية المتخذة التي تحول دون وقوع الخطر • ان كثيرا من الحجاج لا يكتفون بفداء واحد بل يفدي أكثر من ذلك وقد يختص لنفسه ولاصدقائه وذويه بواحد ويترك الباقي للفقراء وعلى الفقير أن يعلم أن الله لا يحب المسرفين فاذا تناول وشلا أو ذبيحة من المجزرة التي ستعد لهذا الامر أو تناول أكثر من ذلك بحيث يكفيه أيام التشريق الثلاثة في منى فليكتف بذلك فانه اجدى عليه وعلى فقراء المؤمنين من بعده • لقد رأيت كثيرين يحملون أربع ذبائح فعلمت انهم يجففونها ويخزنونها للعام كله أو بعضه وانني لا اجد حرجا على هؤلاء فان التجفيف طريقة من طرق الاقتصاد التي تعين على الاستفادة من المشروع وهذه نعمة ساقها الله الى رب عائل اسرة هي في حاجة اليها •

لقد كان العرب يسوقون الهدي الى بيت الله الحرام ويضحون وياكلون ويتركون ما بقى للفقراء أو يتولون أمورهم بأيديهم ويجففون اللحوم وينتفعون بالجلود واصواف الغنم وشعر الماعز ووبر الابل ويقدد فقراؤهم

اللحوم ويسمون ذلك قديدا • والقديد من أطيب المدخرات في بلاد الغرب •

ان الاقدام على مشروع الاستفادة من لحوم الاضاحي اقدام سام وسيجد بعض العقبات ولكن تهيئة الرأى الاسلامي العام في صحته من وجهة الشريعة والمصلحة العامة والنفع الكبير الذى يعود على الفقراء ستخفف كل صعوبة وتزيل كل عقبة وسينظر العالم أجمع الى المسلمين نظرة فيها الاجلال والاحترام فيما اذا نجح هذا المشروع في جواربيت الله الحرام •

انا في زمن عرفت فيه قيم الاشياء وانه لا يوجد شيء في الوجود الا وتكمن فيه اشياء تعين على انبثاق فوائد أخرى منه وان في شريعتنا ما يعين على ذلك وافضل ما في صفات المسلم ارادة الخير ولقد ربى محمد (ص) ارادة المسلمين على الاقدام في انجاز العمل الصالح وانتظار الثمرة التي لا تراها العين بعد • وكل أعمالنا الصالحة يهدف اقدامنا عليها الى رضا الرب واستظلالنا في ظل الرحمة ودخول الجنة وهي ثمرة تصدق عقولنا بوجودها ولا تراها اعيننا • هكذا ربيت ارادة المسلم وقد علقت الارادة بالقدر خيره وشره فالقدر مكتوب والمقدر صائر لامحالة واذ آمن المسلم بالقدر أقدم دون تردد لانه واثق من النجاح فيما اذا كان النجاح مقدرا واذا كان الفشل مكتوبا فلا يهتم بوقوعه لانه مقدر ولكن عليه ان يقدم في كلتا الحالتين وعلى هذا التأسيس اندفع المسلمون في مشارق الارض يبدعون وينشئون فان الابداع لا يأتي الا بالارادة الصامدة والعزم الاكيد ان الانانية تموت اذا كان الشخص يحمل بين جنبيه ارادة قوية واذا اراد المسلمون ان يعطوا الفداء اسمه الكامل وهو التضحية فليمحوا اذن من صدورهم الانانية المطلقة ويعينوا على انجاز هذا المشروع وليعلموا ان في الضحايا تضحية •

ان على المسلمين ان يشقوا حجب الدهور التي غطت عيونهم وينظروا بعد ذلك فضائل الرعيل الاول من العرب المسلمين كيف صعدوا ذرى المجد وكيف علموا الناس مكارم الاخلاق وكيف أخمدوا نيران الشرك وأخمدوا أنفاس الظلم وفتحوا لابتى باب الحرية لقد علموا الناس الكرم والوفاء وعلموا الناس صدق الحكم ومعرفة مصائر الامور •

ان أفضل شيء في فعال المرء هو أن يدخل السعادة في قلوب الفقراء وابدع شيء في الحياة ان يرى صاحب المعروف عين من احسن اليه تلمع بالشكر والثناء ان الهدي هبة من الغني الى الفقير وخير ما في الهبة حسن تقديمها • وعلى المسلم ان لا يقدم هديته جيفة تلقى في العراء •

ان الهدي فداء لاوزار احتملتها الكواهل التي كانت تنوء بحملها فلماذا لا يكون الهدي ساميا في لفظه ومعناه ولماذا لا يقدد أو يجفف أو يجمد ويوزع على الايتام في المعاهد وعلى الفقراء في بطون الوديان وعلى شعاف الجبال لماذا لا تباع جلود الهدى واخلافه وعظامه فتحول الى دراهم وتنفق في سبيل الخير والبر وانشاء الملاجىء للايتام والعجزة وابناء السبيل كل ذلك ممكن وكل ذلك في مقدور المسلمين ان يتعاونوا جميعا على تحقيقه انه منوط بقوة الارادة التي تفعل الخير ومنوط بالعزم وصدق النية وسيأتي اليوم الذي يفرح به المؤمنون ويحتفل العالم الاسلامي بمصانع الهدي التي تقام بجوار بيت الله الحرام وسيأتي اليوم الذي يفهم فيه الحاج مقاصد حجه ويقدم هديا صالحا في واد ذى زرع •

أيامُ التشريق الثلاثة

مضى يوم النحر يوم عيد الاضحى وتلته أيام التشريق وهي الايام الثلاثة التي يمكث فيها الحجاج في منى لرمي الجمرات الثلاث وكانت الايام مشرقة والجو لطيفا هادىء النسمات والناس يسيرون في الشوارع جيئة وذهوبا ينتظرون أن تزول الشمس عن كبد السماء كي يشرعوا في رمي الجمرات الثلاث بادئين من الجمرة التي تلي مسجد الخيف فيرمي الحاج كل جمرة بسبع حصيات ويكبر مع كل حصاة ويقف عند كل جمرة يدعو ما يشاء ولا يقف عند جمرة العقبة • وهكذا هو ترتيب هذه الشعيرة من شعائر الله قرب المسجد الحرام ولكن كيف تستطيع الوقوف أو كيف تستطيع أن ترمي الحصيات بهدوء وسلام بين هذه الالوف المؤلفة والامواج البشرية المتتابعة والحماسة البالغة ببعض الذين يجهلون مناسك الحج ومقاصده والذين يظنون أن الشيطان كامن في هذا العمود المرتفع المطلي بالجص وان الشر كل الشر في هذه الكومة التي يحيط بها حوض تتجمع

فيه حصيات الحجاج حتى بلغ الامر بهؤلاء أن يقذفوه بكل ما يرونه تحت أرجلهم ظنا منهم أنهم غلبوه على أمره وقهروه فلا يوسوس في صدورهم بعد ولا يحيد بهم عن الطريق المستقيم . ولم يعلموا أن النفوس التي تعودت على الشر هي مكمن الشيطان وهي التي يجب ان ترجم ورجمها لا يكون بهذه الحصيات وانما بتهذيبها وفطامها عن فعل رذائل الامور .

وفي وسط هذا الازدحام على المرء ان يسرع ولا يبطيء حتى يصل الجمرة الثانية فيفعل مثلما فعل بالجمرة الاولى ولكن انى له الاسراع والتدافع يحيط به فيفقد المرء صاحبه الذى كان يسير معه أو يمسكه بثوبه أو يده كي لا يفلت منه فاذا انفلت فلا يستطيع اللحاق به الا عند الجمرة الثانية حيث يلقى مالقيه في الجمرة الاولى . انها مشقة وانها متعة أن ترى الناس يتسابقون الى قذف الشيطان بحصيات سبع فتدرك ان هؤلاء انما يريدون أن يقتلوا الشيطان الكامن في نفوسهم . وكلما رأيت رجلا بالغا في الحماسة في قذفه حصياته علمت أن وزره أثقل من رأس هذا العمود الذى يكمن تحته ابن شيخ الابالسة . مسكين ابليس سبب له آدم المعصية فطرده الله من الجنة فصار (فوضويا) متطرفا مثله كمثل اولئك الفاشلين في الحياة الدنيا اذا فشلوا في أعمالهم ركنوا الى الفوضى واستقبال الآراء الوافدة المتطرفة ولا يطيب لهم العمل الا بالهدم .

لقد تركنا الجمرات الثلاث وطاب لنا ان نسير في الاسواق وفي هذه الظلال الجميلة التي تتخللها نسمات عذاب من نسمات الصحراء الباردة وبين الباعة والحجاج المشترين الذين لا يشبعون من جمع الهدايا الصغيرة والكبيرة التي يشتاق اليها المستقبلون عند عودتهم الى بلادهم فلقد بلغ الهدي محله فلابد من هدي آخر يبلغ محلا آخر .

لقد انقلبت منى الى سوق تجارة كما كان العرب يفعلون قبل الاسلام يأتون اليها ويقيمون أسواقهم للتجارة والشعر والتكاثر والتفاخر أما اليوم فقد أقامت سوقا للتجارة فحسب وفقدت سوق القريض والنقد والتفاخر والتكاثر وفقدت شيئا كنت أتمناه ولا أزال أرجوه ولعله يحقق لقد

كنت أرجو أن يعود المسلمون من عرفة بعد تقرير أهم ما يدور في خلد علمائهم ويجلسوا في لجان متفرعة يتدارسون أحدث ما يحتاج اليه المجتمع الاسلامي في تكوينه وتقاربه وتحابه ويضعون الحلول للمعضلات الاجتماعية التي تتطلبها الحضارة ويتبادلون الرأى في أشد الامور تعقيدا في الحياة الاقتصادية والسياسية التى تواجه الامم الاسلامية .

وطاب لي أن اتجول بين الخيام وأرى مضارب الحجاج فانه مشهد رائع قل أن تظفر به الانفس الا في مثل هذه الايام الحرم الآمنة ، انك تشهد الامم الاسلامية بلغاتها وأجناسها ونظمها وطباعها وعاداتها لقد تهيأت لاداء الفريضة ومنها من شدت حيازمها فنظمت أمرها وجعلت للحج أميرا على رأس بعثة تقوم على تنظيم شؤون الحجاج الذين يعودون اليها وأخذت ترعاهم كما ترعى الام البرة أولادها فلا يفقدون شيئا ولا يغبنون في معاملتهم مع شركات النقل ولا تحدث لهم مشاكل في الطواف والسكن فهم آمنون مطمئنون مستندون الى امارة والى نظام الدولة في البلاد يرتاحون الى حجهم ولا يجدون فيما ينفقون حرجا .

إِمارَة الحَجّ

لقد بلغ حجاج العراق في هذا العام بعددهم ما ينيف على أربعة عشر ألفا كان من الممكن ان تكون قافلة سياراتهم منتظمة مريحة مثل قوافل بعض الامم الاسلامية فان امارة حج للعراق ولجنة خاصة تشرف على شؤون الحج تؤلف في كل عام مما يضاعف عدد الحجاج العراقيين ويرغبهم في زيارة بيت الله الحرام ويحفظهم من وقوع مشاكل لا قبل لهم بها تنقذهـــم من تعسف شركات النقل وخروجها على الانظمة وقوانين الدولة وتخلصهم من (الحملدارية والعكامة) والدلالين الذين يبتزون أموالهم ولا يقومون بخدمة ترضيهم وتحفظ كثيرا منهم من الضلال وفقدان الاوراق وضياع الامـوال وتكون مع الامارة بعثة طبية وبذلك تتعاون هذه البعثة مع الامارة والسفارة على تذليل الصعاب والنظر في شؤون كثير فيؤدي الحاج مناسكه مثل مـا يؤديها اخوانه المسلمون من رعايا الامم الاخرى •

وان امارة الحج ليست بدعة فقد انشئت في مشرق الاسلام ففي السنة

التاسعة من الهجرة وفد الى مكة حجاج المدينة من المهاجرين والانصار والقبائل تحت امارة ابي بكر (رض) فكان أول أمير للحج في الاسلام وانتهى أبو بكر الى مكة وفيها المشركون يؤدون مناسكهم على ماورثوه من تقاليد آبائهم والمسلمون على ما أبان لهم أبو بكر وانهم لكذلك اذ وافاهم علي بن ابي طالب (رض) مندوبا من المدينة ليعلن للناس نزول الوحي بسورة براءة فيها : ألا يحج بعد عامهم هذا مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وألا عهد لمشرك ولا ذمة الا أحدا كان له عند رسول الله عهد وعهده الى مدته وان الله أمر بجهاد الشرك ممن نقض من أهل العهد الخاص ومن كان لا عهد له فأجله أربعة أشهر يرجع فيها كل قوم الى مأمنهم ثم لا عهد لمشرك بعدها •

ومما يروى عن مواكب الحج وامارته أن الركب العراقي أستأنف حجه سنة ثمانمئة وست عشرة واصطحب محمله المعتاد وهداياه الى اشراف مكة وصدقاته الى فقرائها وقد دعى له بالبقاء والعز على قبة زمزم في ليلة الجمعة من اليوم السادس عشر وكان لحكومة العراق ترتيب خاص في مسجد مكة يجتمع فيه بعض القراء المرتبين فيقرأ القارىء منهم جزءا خاصا من المصحف ويقرأ آخر غيره وغيره كذلك وبذلك يختمون القرآن ثم توزع العطايا المرتبة على أصحابها سنويا وقد احتفل بهذا المجلس في تلك السنة بعد أن قطع عدة سنوات وهو دليل على أن موكب العراق كان مستمرا حتى حدثت حوادث قطعته عن الاستمرار فلما زالت عاد كما بدأ واستأنف هداياه وصدقاته واعطياته •

وهذا نوع من الصلة الوثقى بين أهل مكة واطراف الممالك الاسلامية فيها تقارب وتحابب ولكنها من طراز آخر كان يقتضيه مجتمع ذلك الوقت وفي هذا العصر الذى تغيرت فيه تقاليد المجتمع في كل مكان واقتضت الضرورات والمصالح نوعا آخر من التعارف والتآلف والتعاون والبحث والدرس والخروج من كل ذلك بنتائج في المادة والمعنى تعود على المسلمين في اقطارهم المختلفة أصبح اقتضاء امارات الحج واتخاذها سبلا غير تلك السبل من ألزم الامور لاداء فريضة الحج ومن ذلك أن يكون الامير من سراة

القوم ومن علمائهم وفي موكبه جلة من العلماء يتأبطون بحوثهم ودراساتهم ومناهج حلقات دراسية في كل شأن من شؤون البلاد يتبادلون وجهات النظر ويعرضون نتائج أعمالهم وبحوثهم في مؤتمر عام في موضوعات مدروسة ذات نفع عام وتؤلف الكتب وتنشر النشرات وتوزع على الحجاج في لغات متعددة وآراء ناضجة وواضحة ويعود القوم مثقلين بالفوائد الكثيرة .

ولا بأس أن تحمل هذه المواكب من الهدايا ما يقدم لعلماء مكة وسراتها ومن الاموال والصدقات ما يوزع على الفقراء فيجمع القوم بين تالد عزهم وطريف مجدهم ويصبح للحج رونق مشرق تظهر فيه عزة الاسلام وقوته .

لو فعل المسلمون هذه الفعائل الفاضلة لما ظهرت بدعة في الاسلام ولا نبطت نحلة تحرف معانيه عن مقاصدها ولا ضعف الاسلام هذا الضعف الذي لم يره وليس من طبيعته ولكان لمبادئه قوة لا تقف أمامها أية مبادىء وافدة غريبة عنه ولتمتع الشباب المسلم بالعزيمة الصادقة والفكر الوقاد المبدع .

الطوافة والمطوفون

الطواف والسعي ركنان من أركان الحج بل هما من أهم ما يعنى بـه المسلمون ويتأهبون له • والطواف أربعة أنواع طواف القدوم ويسمى طواف التحية وطواف الدخول وكيفية ادائـه ان الحاج اذا وصل الى مكة ترك امتعته في مكان امين ودخل من باب السلام - باب بنى شيبة - ثم يدعو الله بدعاء مكتوب في الكتب الكثيرة المتوفرة حول الحرم التي تبرع بكتابتهـا الادباء والفقهاء ثم يقصد الحجر الاسود فيقبله ان استطاع فان لم يستطع استلمه فان عجز عن ذلك اشار اليه بيده ومن امـام الحجـر الاسود يشرع في الطواف حول الكعبة فاذا اتم سبعة اشواط صلى ركعتين عند مقام ابراهيم •

ومثل طواف القدوم طواف الافاضة ووقته نصف الليل من ليلة النحر بعد النزول من غرفة وافضل أوقات أدائه ضحوة النهار من يوم النحـر ويمتد وقته الى آخر شهر ذي الحجة فان اخره عن ذلك لزمته فـدية

وصح حجه .

وطواف الوداع وسمى بهذا الاسم لانه توديع البيت العتيق . وطواف التطوع وهو مستحب لكل حاج اذا دخل المسجد الحرام ان يغتنم الفرصة فيطوف حول الكعبة اما السعى فهو سبعة اشواط ايضا يبدأ بالصفا ويختم بالمروة وذلك ان يقطع الحاج المسافة بين الصفا والمروة سبع مرات سيرا على الاقدام الا اذا كان غير قادر فيسعى محمولا ويدعو الله ما يشاء في سعيه . هذا كل ما يخص الطواف والسعي في اداء فريضة الحج ولو وقف الامر عند هذا الحد لكفى ولكنهما مرتبطان بالمطوف الذى يقود الجماعة ويرفع اكفه بالدعاء فتردد اقواله فهو القائد وهو الدليل وموجد المأوى والطعام والمعين على السفر والاقامة والمساعد في المرض والصحة . وما كانت مهنة المطوف موجودة في الجاهلية ولا في صدر الاسلام فان الحاج يؤدى شعائره بنفسه ويدعو لنفسه دون قيادة او دلالة واخال ان الازدحام لم يكن قبلا ولا بلغت كثرة الحجاج في صدر الاسلام مثل هذا العدد اللهم الا في حجة الوداع فقد ذكر التاريخ انها بلغت مائة الف مسلم وهو عدد اهتزت له ارجاء الجزيرة ومهما بلغ العدد كثرته فلا حاجة لمطوف .

ويقول رواة التاريخ ان مهنة المطوف نشأت في عهد الشراكسة بمصر وذكروا ان السلطان قايتباى من ملوك الشراكسة حج في عام ٨٨٤هـ وان القاضي ابراهيم بن ظهيرة تقدم لتطويفه وتلقينه الادعية ومن هنا نشأت هذه البدعة وصار المطوفون يلقنونها العرب والاعاجم الذين لا يحسنون العربية . والحقيقة التى لا مرية فيها ان كثيرا من المسلمين لا يحفظون مناسك الحج مع بساطتها وتذهلهم هذه المشاهد الرائعة فيعتصمون بمطوف يقودهم فمنهم من يردد دعاءه ومنهم من يتركه يقول ما يشاء وينتهى متى ما يشاء وقد رأيت كثيرا من المطوفين يقودون عددا كبيرا متماسك الايدى كيلا يفلت منهم احد وسط هذا الزحام وهم يتبعونه وتبقى هذه الصفة ملازمة لهم في طوافهم وخروجهم مشيا على الاقدام في منى او سيرا اليها من مكة في مستهل الحج وكثير من المطوفين يمشون تحت ظلال راية ذات

لون خاص مكتوب عليها اسم المطوف لكي تكون هداية لمن يضل من هذا الجمع المترابط • وقد اخبرني بعض الرواة ان المطوف اصبح لقبا يرثه الابناء عن الاباء او يكتسبه الشخص بعد ان يمضي عليه في هذه المهنة خمسة عشر عاما وبعد ان يدفع مبلغا معينا ضريبة المهنة للحكومة •

والمطوفون حول البيت الحرام ينقسمون كما اخبرني بعض الرواة الى ثلاثة أقسام • منهم قسم يختص بحجاج العرب وحجاج جنوبي أفريقيا وايران وقسم آخر يختص بحجاج الهند وباكستان والقسم الثالث يختص بحجاج جاوا واندونوسيا والفليبين والملايو • وقرأت في صحيفة البلاد التي تصدر في البلاد المقدسة انهم ستة طوائف لقد كانت مهنة المطوف طوافا حول الكعبة وسعيا بين الصفا والمروة والوقوف على عرفات ثم رمي الجمرات وتقديم الفداء ولم تتعد هذه الشعائر غير انها تعدتها الى أكثر من ذلك فنشأت عن ذلك مشكلات لازال اصحاب الحل والعقد يفكرون في حلها • فقد استغل اسم المطوف دلالون في البلاد التي يفد منها الحجاج يوهمون انهم سيجدون لهم مطوفا ويذكرون اسما من الاسماء وينالون من الحاج الذي لا يعرف أحدا غير الله والذى جمع مالا ليستطيع اداء الفرض الذى أوجبته عليه العقيدة فيسلم ماله الى دلال يظن به ظن الخير وهؤلاء الدلالون يعملون عند بعض شركات النقل في العراق مثلا ويرافقون الحاج الى بيت الله الحرام متحلين صفة ـ الحملدارية ـ ويأخذون من هذا الطائع لله مبلغا معلوما لقاء خدمة يعده بها ولكنه لايبالي ان ينقض عهده مادام ملأ جيبه ويقع كثير من الحجاج المغلوبين على أمرهم في شرك هؤلاء وأمثالهم •

فاذا كانت هذه مشكلة لحجاج العراق فانها ايضا معضلة بجوار بيت الله الحرام فالفت لجنة وقدم مشروع وبحث الامر بشأن المطوفين ورفع مستواهم حتى يستطيعون ان يؤدوا أعمالهم على أكمل وجه وكان المشروع المقدم عين الحد الاعلى من الحجاج بالنسبة لكل مطوف في الطوائف الستة الموجودة الان أما المطوفون فانهم يشكون أمرهم من الدلالين مثلما يشكو الحجاج من الدلالين والمطوفين وفي كلتا الحالتين يحتاج الامر الى علاج فان

مقاصد الحج نبيلة يجب ان لا تشوبها شوائب وان تعين لجنـــة تقوم على شؤون الحجاج كل عام في العراق أمر فيه فائـــدة ومنافع كثيرة للناس •

لقد كان المطوف حين نشأت هذه المهنة في جوار البيت العتيق القاضي ابراهيم وكان الرجل الذي طاف به القاضي السلطان قايتباي واستمرت هذه البدعة تنتقل في أصلاب الزمن حتى أصبحت مهنة يعيش عليهـــا كثيرون وتنتظرها اسر في البلاد التي يسير منها الحجاج والتي يفدون عليها وكـــان المأمول ان يضيف الدلال والمطوف الى أجر الدنيا أجر الآخرة وان يأخذوا أجر الحاج حلالا طيبا •

ان الحاج لا يخسر فهو قد اعد هذا المال لينفقه في سبيل الله ولـــكنه يعز عليه ان يغبن • انك اذا اوليت الحاج يدا فقد اعنته على فريضة الله وانها لـــكرامة ينعم الله بها على المؤمنين الصادقين من عباده انها كرامة لا تباع لا تشتري بالذهب ان التعامل بها لا يكون الا بين نفس طيبة وقلب طاهر •

ان فضيلة الاسلام تكمن في تربية النفوس وتربية الارادة الصادقة التي تتغلب على الصعاب ان كل ما يتصل بهذه الفريضة يجب ان يكون صافيـــا ومعينا على أدائها • ان المرء باصغريه قلبه ولسانه فاذا منح الله الانســـان قلبا قويا صافيا ولسانا طيبا فقد وطـأ له أكناف الدنيا وأقبل عليه الحظ يحيط به من كل جانب ولهجت الالسن بذكره وطابت النفوس الى التقرب منه والتعامل معه • القلب الطاهر هو الحسب النبيل الذى ينتمي اليه المرء وان الهجين الذي لاحسب له في الدنيا هو الذى يغبن الناس ويتلون في الحياة • ان كل شيء في الحياة باطل الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحـــق وتواصوا بالصبر لقد اتجهت تعاليم الاسلام الى الصدق وجعلت الدين المعاملة وسلوك المرء مع اخوانه من بني آدم وجعلت الارادة الصادقة قائدا يقود المؤمن الى فعل الفضائل فان الارادة القوية هي شخصية المسلم ولذلـــك لم يتعب المؤمنون في حياتهم في صدر الاسلام لان الارادة كانت قوية وكانت شخصية المسلم متفوقة فكان مجتمعا فاضلا مستريحا واذا ضعفت الارادة بدأ التعب على المجتمع لان الذي تسيره ارادة الغير يضل متعبا في حياته •

اذا اختلت المعاملة بين أفراد المجتمع انحط المجتمع عن مستواه الذى ارادته له الحياة وتعبت كل ارادة في تسييره وارجاعه الى صوابه ولذلك اتجهت تعاليم الاسلام الى نقطة واحدة هي الاعتزاز بالشخصية • وجاء القرآن الكريم بالعزة والكرامة في قوله « ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون » وظل المسلمون في علوهم وسموهم حتى ضعفت ارادتهم وشخصيتهم •

اركان الحج وشعائره ومقاصده

كل ما في الحج شعائر معدودات في أشهر معلومات واركانه اربعة الاحرام والطواف والسعي والوقوف بعرفة أما الاحرام فيكون من الميقات وهو مكة لاهل مكة وذو الحليفة لاهل المدينة وذات عرق لاهل العراق ولمن يمر بهذا المكان ورابغ لاهل مصر ولبنان وفلسطين والمغرب • وقرن المنازل لاهل نجد ويلملم لاهل اليمن ولمن يمر بهذا المكان وعند الاحرام يلبس المرء ثوبى الاحرام وهما الازار والرداء ومن المستحسن ان يكونا نظيفين ابيضين وان يلبس نعلا غير مخيط فاذا احرم الحاج صلى ركعتين بنية الاحرام ويلبي يقول لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك •

والطواف هو أن يطوف المحرم حول الكعبة سبعة اشواط يبتدىء بالشوط الاول من الحجر الاسود جاعلا بناء الكعبة على يساره ويدعو الله ما يشاء أو يقرأ من القرآن ما يحفظ •

أما السعي فانه يأتي بعد الطواف وذلك أن يسعى الحاج بين ربوة الصفا وربوة المروة سبع مرات أى سبعة أشواط مبتدئـا من الصفا يهلل ويـكبر ويدعو الله ما يشاء •

والركن الرابع هو الوقوف بعرفة وهو الركن الاساسي في الحج لقول النبي (ص) « الحج عرفة » ويرى جمهور العلماء ان وقت الوقوف يبتدىء من زوال اليوم التاسع الى طلوع فجر اليوم العاشر من ذى الحجة في أى مكان من عرفة ومن الافضل ان يكون عند الصخرات الكبار المنبسطة في اسفل جبل الرحمة وهو المكان الذى وقف فيه النبي في حجة الوداع •

هذه هي أركان الحج في ابسط اشكالها ويبدأ الحج من يوم التروية وهو اليوم الثامن ويسير الناس في اليوم التاسع الى عرفة من منى ثم ينفرون في المساء الى مزدلفة ويقيمون فيها جزءً من الليل أو يبيتون فيها يذكرون الله عند المشعر الحرام ثم يفيضون الى منى لرمي حجرة العقبة بسبع حصيات صغار • ويقطع الحاج التلبية مع أول حصاة ثم يذبح ماشاء من النعم ويتحلل ويحلق ثم يطوف بالبيت دون رمل ولا سعي ويسمى هذا الطواف طـواف الافاضة واول وقته نصف الليل من ليلة النحر بعد النزول من عرفة وافضل وقت يؤديه في ضحوة النهار ويستحب فعله في أي يوم من ايام النحـر وتعجيله أفضل واذا زالت الشمس من اليوم الثاني يرمى الجمار الثلاث بادئا بالجمرة التي تلي مسجد الخيف فيرمي كل واحدة بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة ويقف عند كل جمرة داعيا ماشاء ولا يقف عند جمرة العقبة •

فاذا كان اليوم الثالث رمى الجمار بعد الزوال وفعل ما فعله في اليوم السابق واذا أراد ان يتعجل العود نفر الى مكة قبل الغروب وانطلع الفجر وهو يمنى لزمه الرمي وجاز قبل الزوال •

فهل هذا كل ما في الحج ؟؟ انتقال وطواف وسعي ووقوف واقوال وافعال وزيارة الى الـكعبة والى أماكن تجاورها • وهل هذا كل ما يقصده الشارع من الحج • لقد ضعف الاسلام وضعف المسلمون وقصرت مداركهم عن مقاصد الحج فصار الحج في نظرهم آخر فريضة تؤدى بعد ان استمروا

على أداء فريضتين اثنتين فقط فريضة الصلاة وفريضة الصيام وتناسوا فريضة الزكاة دون مبرر وصار لا يحج من المسلمين الا شيخ أو شاب جاءبوالديه أو باحدهما برا بهما أو لعجز أو كبر •

ان مقاصد الحج كبيرة واعظم مما يتصوره الضعفاء العاجزون انها مظهر من مظاهر قوة الاسلام قبل كل شيء وحسبك ان ترى ذلك فيما وقع في السنة السادسة للهجرة عندما اراد النبي (ص) زيارة مكة فاخبر المسلمين انه يريد العمرة واستنفر الاعراب حول المدينة ليكونوا معه خوفا من ان تردهم قريش عن عمرتهم فابطأ الاعراب وتخلفوا وقالوا : « شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا » فخرج النبي بمن معه من المهاجرين فلما علمت قريش بمقدمه ثارت ثائرتها واجمعت رأيها على ان يصدوا المسلمين عن مكة وتجهزوا للحرب واعدوا خالد بن الوليد في مئتى فارس طليعة لهم ليصدوا المسلمين عن التقدم ولكن النبي أصر الا ان يزور الحرم رغم كل مقاومة وأمر اصحابه بالنزول اقصى الحديبية فجاءت رسل قريش تستطلع عن سبب مجيء المسلمين فاخبرهم النبي باننا لم نقدم لقتال أحد ولكننا جئنا معتمرين وان قريشا قد نهكتهم الحرب فان شاءوا ماددتهم مدة تترك الحرب فيها ويخلون بيني وبين الناس ورجع اليهم عروة بن مسعود سيد ثقيف وكان أحد سفرائهم فقال لهم : « والله ما رأيت ملكا قط يعظمه اصحابه مثلما يعظم أصحاب محمد محمداً ، اذا أمرهم ابتدروا أمره واذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه واذا تكلم خفضوا أصواتهم اجلالا وتوقيرا • ويحدون النظر اليه تعظيما له وانه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ولقد رأيت معه قوما لا يسلمون لشيء ابدا فانظروا رأيكم » •

ولكن قريشا أصرت على رأيها ولم ينفعها النصح • ولما رأى النبي اخفاق سفراء قريش ارسل سفراءه وكان ممن ارسلهم عثمان بن عفان فحبسته قريش ثلاثة أيام وشاع في القوم خبر قتله مع العشرة الذين كانوا معه فوقف النبي خطيبا بين قومه وقال : « ان كان حقا ما سمعنا فلن نبرح الارض حتى نناجز القوم البيعة • البيعة ايها الناس !! » •

فتوافد الناس يبايعون الرسول ونزل قوله تعالى : « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق ايديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن اوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » • فلما علمت قريش بهذه البيعة وبثبات النبي على عزمه اطلقت سراح عثمان ومن معه وارسلت رسلها لعقد معاهدة مع النبي فاستبشر النبي (ص) بذلك • وكان حديثه لسفراء قريش لم لا تمكنوننا من البيت نطوف به ؟ فاجابه احدهم « والله لا يتحدث العرب اننا أخذنا ضغطة » • ولكن لك ما تريده في العام القابل ثم تم الامر على الصلح لترك القتال وان توضع الحرب عشر سنين وان يأمن بعضهم بعضا وان يرجع المصطفى عنهم عامهم هذا ويأتي في العام القابل ويخلوا له مكة ثلاثة أيام والا يدخلوا الا بالسيوف في قرابها وعلى انه لا يأتيه رجل وان كان على دين الاسلام الا رده اليهم والا يردوا اليه من جاءهم من عنده ومن اراد ان يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل • ومن أراد الدخول في عهد قريش دخل فيه ولما تم الامر ولم يبق الا كتابة المعاهدة وثب عمر بن الخطاب فجـــاء الى ابي بكر وقال له : « اليس هو برسول الله ؟ قال : بلى ! قال : أو لسنا بمسلمين ؟ قال بلى ! قال فعلام نعطى الدنية في ديننا ؟ فقال أبو بكر يا عمر انه رسول الله وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه حتى تمــوت فاني اشهد انه رسول الله • وهذا مثل رائع من أمثلة مقاصد الحج أراد النبي بالعمرة اظهار قوة الاسلام وجمع المسلمين في مؤتمر عام في أقدس بقعة ليري قريشا قوة الاسلام وعزه وليجعل من ذلك فرصة الانضمام أكبر عدد من قريش مكة والعرب حولها • ووقفت قريش تدافع عن كيانهــــا وتواقف الفريقان وانتهى الخلاف باعتراف قريش بقوة الاسلام وعقدت معاهدة بين الطرفين وادرك المسلمون بعد نظر النبي في هذه العمرة •

لقد قصد الشارع بالحج ان يكون ملتقى المسلمين من سائر اقطـــار العالم الاسلامي في مؤتمر عام يتباحثون به في شـــؤونهم ويقوم خطباؤهم وشعراؤهم وادباؤهم بعرض آرائهم في الادب والسياسة والاجتماع ويطلع بعضهم بعضا على أحوال الامم الشاسعة البعيدة ويبينون ما عليه هذه الامم من

العادات والاخلاق ويتجاوزون هذا الى ابعد من ذلك فان العصر عصر العلم والطب والفلك والاختراعات والاكتشافات عصر المبادىء المختلفة والموجهة قواها لمحاربة الاسلام انه عصر الفضاء والذرة وعصر القضاء على الاستعمار انه عصر الشعوب وحق تقرير المصير والشأن كل الشأن للسياسة المتيقظة والدعاية القوية التي تؤثر في الاسماع وتصل الى القلوب فتكتسب الاصدقاء والاسواق التجارية وتغزو المناطق الاقتصادية ان الاجتماع والتشاور في الامور العامة والخاصة للمسلمين المقصد الاول من الحج •

ان على المسلمين ان يعلموا ان الحج ليس هو الفريضة الاخيرة التي ينتظرون أداءها عند اقترابهم من حافات القبور انها من أول الفرائض لوضع خطوط المستقبل ولتكوين الكيان الاجتماعي والسياسي فهي ان فرضت على المسلمين فانها لم تفرض الا على ذوى الاستطاعة والمقدرة وان الاستطاعة لا تقدر بالمال فقط • ان الاستطاعة هي القوة والفتوة والشباب ان الاستطاعة بالعلم والفكر هي المقصود من الحج ولو علم المسلمون مناسكه ما هي الا وسائل للاجتماع لما تأخرت بهم الحال الى هذا الوضع ولو تداول المسلمون أمرهم لما باع جهال فلسطين أرضهم لليهود ولما قدر الاستعمار ان يساعد الصهيونية العالمية فتثبت أقدامها في أرضنا المقدسة ولما بقي مليون عربي سبعة عشر عاما في العراء يفتك بهم الجوع وتتناوب عليهم قساوة الحر والبرد فتفيض اعينهم من الدمع حزنا على ملك مضاع لم يحافظوا مثل الرجال عليه •

نِظَامُ الحُكْمِ فِي عَهْدِ النُّبُوَّةِ

كان عهد النبوة عهد الوحي الالهي وكان نظام الحكم ساريا وفق ما تراه السماء في تكوين مجتمع فاضل يستطيع حمل الرسالة على وجهها الاكمل وكان البت في الامور يستند الى القرآن الذى كان الفيصل الاول في القضايا بأجمعها ومصداق ذلك ما جاء في الآية الكريمة ـ وان احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك فان تولوا فاعلم انما يريد الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون •

وجاء في آية أخرى ـ ان الله يأمر بالعدل والاحسان ـ وفي أخرى ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ـ •

وفي آية أخرى ـ يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين ـ •

ومع هذا كله فلقد كان المبدأ الاول في نظام الحكم كرامة الانسان واعلان حقوقه فيما جاءت به هذه الآية ـ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في

البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ـ •

ومن هذه المبادىء التي تؤمن بالعدل وكرامة الانسان انبثقت شريعة عادلة حفظت حقوق الناس في الحرية والمساواة والعدل والاخاء وانعدام الطبقات وحررت شعوبا من الوثنية وانبتت حضارة يحفها الامن والاطمئنان على الانفس والاموال والثمرات وحالت دون استغلال الفرد لاخيه واسست مجتمعا شعاره ـ الكل للفرد والفرد للكل ـ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ـ وانطلقت طاقات الابداع في الامة العربية في مجالات العلم والادب والفن والصناعات وطفقت المجتمعات البشرية في كل وحدة من وحداتها تنشد مثل هذه الكرامة التي استهل بها الاسلام عهده وكانت الشورى ابرز مظاهر نظام الحكم في هذا العهد ـ وشاورهم في الامر ـ فكان لمحمد ـ ص ـ مجلس شورى وكان أعضاء هذا المجلس يدعون النقباء منهم أبو بكر وعمر وعلي وحمزة وجعفر وابن مسعود وحذيفة بن اليمان وابو ذر والمقداد وكان أبو بكر يسمى وزيرا وهو أول لقب في الاسلام ظهر في نظام الحكم وكان لبيت المال موكلون يكتبون وارده فكان كعب بن عمر صاحب المغانم وكان حذيفة بن اليمان يخرص النخل وكان العلاء بن عتبة يكتب بين الناس في مياههم ودورهم وكان له ديوان يشبه ديوان الخارجية وكان عبدالله بن الارقم صاحب هذا الديوان يتلقى رسائل الملوك ويجيب عنها وكان له ديوان أشبه بديوان العدل ويقوم بهذا العمل المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير يكتبان المداينات والمعاملات وديوان يشبه ديوان الاعلام والارشاد يقوم بالدفاع عن الدعوة وكان يقوم بذلك شاعره حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك يستقبلون الوفود ويجيبونهم عن التنافر والتفاخر والتكاثر وكان للنبي ديوان اشبه بديوان الترجمة ويقوم بذلك زيد ابن ثابت يترجم عن الفارسية والرومية والقبطية والحبشية والعبرية وقد عين الرسول الولاة وعين لهم الاجر وكان أجر والي مكة في زمن النبي ثلاثين درهما في الشهر وكان النبى يختار الولاة ويرسلهم الى أرجاء الجزيرة ولا يقع اختياره الا على الرجل القوى الامين الذى يتحمل المسؤولية ويبت في

الامور على وجهها الصحيح ولا يخشى في الله لومة لائم • أرسل معاذ بن جبل واليا على اليمن فقال له : ـ بم تقضي يا معاذ ان عرض لك قضاء ؟ قال اقضي بما في كتاب الله • قال فان لم يكن في كتاب الله قال اقضي بما قضى به الرسول ، قال فان لم يكن فيما قضى به الرسول قال اجتهد رأى ولا آلو • قال معاذ فضرب صدرى وقال : الحمد لله الذى وفق الرسول لما يرضى الله ورسوله ـ •

وجاءه أبو ذر يبغي وظيفة يقوم بها • فقال : يا رسول الله الا تستعملني ؟ فضرب بيده على منكبي ثم قال : يا أبا ذر انك ضعيف وانها امانة ويوم القيامة خزي وندامة الا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها ـ •

وهكذا تجد أن الرسول لا يرى في الولاية غير تكليف كبير لا يمكن ان يحمله الا على من كان أهلا له ، فان الكفاية هي حسب المرء ونسبه وكان يقول اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به • وفي صحيح مسلم ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش رعيته الا حرم الله عليه الجنة ، وفي هذا الحذر الشديد والاختيار الدقيق كان النبي (ص) يتوخى ان تكون صلة الوالي مع رعيته صلة الاب بالابناء يرعاهم ويحدب عليهم ويقوم بشؤونهم على وجه أتم وعدل أشمل ولم يكن في عهد النبوة بيت للمال تجمع به الاموال والغنائم فاذا اصاب القوم مغنما فهو مقسم بين ابناء الامة ينال منه الجميع على تفاوت اقدارهم في خدمة الامة : للفارس نصيبان وللراجل نصيب وللايم الارملة نصيب والمقعد والعاجز لا يغادر منهم صغيرا ولا كبيرا الا اعطاه حقه ولم يكن للمال مشكلة بينهم بل كانت القاعدة الاصولية هى التي تحل المشكلة وهى ـ ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة •

وأما الجيش فكان النبي (ص) يقسم الالوية لمن يشاء وكان له لواء أسود وفيه هلال ابيض وقد دون الرجال في ديوان خاص فاذا نادى للزحف تبعه المقاتلة ومن تخلف منهم كان ينظر في أمره فان كان تخلفه عن عذر لامه النبى وان كان تخلفه عن عمد قاطعه الجماعة واجتنبوه ولا يكلمه أحد

وكانت الشريعة تنزل على محمد (ص) بطريقة الوحي فاذا أراد تقرير أمر اجتماعي أو سياسي انتظر نزول الوحي حتى اذا نزل أمر كتابه أن يضيفوه الى القرآن وقد يكون تقرير الامر عن طريق الحديث النبوي أو الفعل الذى يقوم به ويكون كل ذلك شريعة ومنهاجا وأول ماتجهت اليه عناية الرسول هو توحيد صفوف الامة داخل الجزيرة فاتخذ سياسة حكيمة باستقبال الوفود من أرجاء البلاد وادخل في روعهم انه بشر مثلهم ـ انما أنا بشر مثلكم ـ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ـ •

وانه قد أعد نفسه لاستقبالهم واجابة مطالبهم وشرح الشريعة الاسلامية بما يشرح صدورهم فاقبلت عليه وفود القبائل من كندة ونجران وقضاعة والبحرين وكان يحادثهم ويتبسط في القول ويسمع آراءهم ويصغي الى ما يبسطونه من القول في عقائدهم وما انصرف عنه وفد الا والايمان يملأ قلوبهم بان عهدا جديدا ينتظر الجزيرة العربية ويعم العالم أجمع • ومن هذه الوفود ـ وفد تجيب ـ وهي قبيلة من كنده وكان عددهم ثلاثة عشر رجلا ساقوا معهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم ففرح رسول الله بهم واكرم مثواهم وقالوا يا رسول الله انا سقنا اليك حق الله فقال لهم ردوها فاقسموها على فقرائكم : قالوا ما قدمنا عليك الا بما فضل من فقرائنا • فقال أبو بكر : يا رسول الله ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا الوفد فقال الرسول : ان الهدى بيد الله عزوجل فمن أراد الله به خيرا شرح صدره للدين •

وأخذ الوفد يسألونه عن القرآن والسنن ففرح بهم وبقوة ايمانهم • ولما أرادوا الرجوع الى أهليهم جاءوا اليه فودعوه ثم ارسل اليهم بلال الحبشي وأجازهم بارفع ما كان يجيز به الوفود ثم قال الرسول هل بقي منكم أحد ؟ فقالوا غلام خلفناه على رحالنا وهو احدثنا سنا • فقال : ارسلوه الينا فأقبل الغلام وقال : يا رسول اني من الرهط الذين أتوك آنفا فقضيت حوائجهم فاقض حاجتي •• فقال الرسول ما هي حاجتك فقال والله ما أخرجني الا ان تسأل الله ان يغفر لي ويرحمني ويجعل غنائي في قلبي

فقال الرسول : اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه ثم أمر له بمثل ما أمر لـكل رجل من أصحابه •

هذا وفد جاء ليهتدي وجاء بالهدايا باسم الصدقات للفقراء والمساكين ففرح النبي بهم وبهداياهم ولكنه طلب منهم ان يعيدوها الى فقرائهم فأكدوا للنبي (ص) انها مما فضل عن الفقراء وانهم تركوهم لم يحتاجوا هـذا العام • فانظر الى هذا المجتمع الفاضل الذى كان النبي يريد ان يكونه وقد فعل وأيده الله فقد كانت النظرة الاولى فيه لـكرامة الانسان وللفقراء من بني آدم وايجاد التحابب بين الاغنياء والفقراء كي لا يكون هناك حقـد وحسد ولكي تثبت عقيدة الاسلام التي جاءت بالمساواة والاخاء والمحبة وقد زودهم النبي (ص) بالجوائز كما تفعل الملوك حين تفد اليها الوفود ليتألف قلوبهم ويجمعهم على الكلمة الواحدة كلمة التوحيد ليجعل من الجزيرة العربية قوة متماسكة تستطيع أن تحمل رسالـة الاسلام الى العالم واضحـة صريحة وتستطيع ان تدافع عنها •


الْقُرْآن

القرآن هو دستور الاسلام ونظام الحكم في عهد النبوة وصدر الاسلام ومنبع الشريعة الاسلامية فيما بعد أنزل على محمد (ص) وجاء به الروح الامين جبريل من عند الله سبحانه وتعالى في مئة واربع عشرة سورة تحتوي على ستة آلاف ومئتين وثلاثين آية تشتمل على سبع وسبعين ألفا وتسعمئة واربع وثلاثين كلمة مكونة هذه الكلمات من ثلاثمئة ألف وثلاثة وعشرين ألفا وستمئة وواحد وعشرين حرفا . أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير معجزة النبوة في الفصاحة والبيان والمثل الاعلى في سمو الاسلوب وسبك الآيات وتوافق جرس الكلمات سوره التي نزلت بمكة جاءت قصيرة موجزة جامعة باسلوب بديع مسجع داعية وموجهة الى وحدانية الله وصفاته ، محذرة ومنذرة الغرض الاول منها دعوة المشركين الى الايمان وتبصرة المسلمين في انفسهم وفي خلق السموات والارض وحثهم على الالتفاف حول الرسول والايمان بالله ورسوله والبشرى بالجنة

والتخويف من النار والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وضمان المستقبل في الدنيا والآخرة • وقد نزل القرآن منجما في ثلاث وعشرين سنة منها ثلاث عشرة سنة في مكة نزل اثناءها نحو من ثلاث وتسعين سورة • وعشر سنوات في المدينة نزلت فيها السور الباقية وكانت آيات القرآن تنزل متفرقة حسب مقتضيات الاحوال وما يتطلبه تكوين المجتمع الاسلامي وسميت هذه الاحوال باسباب النزول واذا كانت الآيات المكية اتخذت سبيلها في الدلالة على وحدانية الله وصفاته فان الآيات المدنية كانت طوالا وكان أسلوبها متسلسلا ليس فيه من السجع مثل ما تجده في الآية المكية وبين العهدين اختلاف كبير فالعهد المكي كان يستند الى المحاجة ونشر الدعوة وضرب الامثال والتنديد بالاوثان والابتعاد عن عبادة الاصنام أما العهد المدني فكان عهد استقرار قويت فيه شوكة الاسلام واتجه الى التشريع وتثبيت نظام المجتمع فتحددت بذلك أركان الصلاة ووضحت مناسك الحج وشرعت حقوق الاسرة في الميراث والزواج والطلاق واعتاق العبيد ووضعت قواعد المعاملات المدنية وشرعت الحدود الجنائية في السرقة والقتل والزنى والخروج على النظام العام وحرم شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ولعب القمار وتعاطي الربا ووضعت الاحكام المتعلقة في الغزوات والحروب وتنظيم المغانم وقسمتها وفروض الزكاة وتبع ذلك معاملة العبد واليتيم وابن السبيل في رفق ولين •

وكان صحابة رسول الله يحفظون القرآن عن ظهر قلب كما كان الكتاب يكتبون لرسول الله بعد الفراغ من الوحي ويثبتونه على عسب النخل والحجارة البيضاء وقد أعلن ختامه في السنة العاشرة من الهجرة وقبل وفاة النبي بثلاثة اشهر وتم جمعه وتدوينه اثر غزوة اليمامة حيث قتل من قرائه سبعون حافظا ففزع المسلمون واشفقوا ان يذهب القرآن بذهاب حفظته فجاء عمر الى ابي بكر وطلب منه ان يجمعه قبل ان تذهب به حوادث الايام فتردد ابو بكر وقال : « كيف افعل أمرا لم يفعله رسول الله ولم يعهد الينا فيه عهدا » وتم الرأى بعد ذلك على جمعه وعهد بالامر الى زيد بن ثابت وكان أحد كتاب الوحي فجمعه من المكتوب في العسب

والحجارة وصدور الحفاظ وجعله صحفاً أودعت عند ابي بكر ثم عند عمر من بعده ثم كانت هذه الصحف عند حفصة بنت عمر زوج النبي (ص) وفي سنة ثلاثين من الهجرة الموافقة لعام ستمئة وخمسين ميلادية أمر الخليفة عثمان بن عفان أن يكتب بلغة قريش حيث نزل بها في سبع نسخ وبعث الى كل أفق بواحدة منها أرسل الى مكة والشام والكوفة والبصرة والبحرين ووضع نسخة في المدينة وهي مصحفه المسمى بالامام • وكان ذلك مصداقا لقوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »•

وكان لاسلوب القرآن السامي أثر بليغ في تهذيب لغة العرب وهو على ما هو عليه من سلاسة اللفظ وتوافق نغم العبارة ودقة الاداء وثروة المعاني وقوة المنطق يعتبر معجزة المعجزات في اللغة ويعتز الكتاب المجيدون في ان ينظموا درة من درره في أساليبهم وكتاباتهم فاذا وفقوا الى ذلك كانت فاصلة من فواصل الحكم والجمال في العبارة • واذا رتل ترتيلا بمخارج حروفه وتلاحق الفاظه وتجويد آياته أثر في النفس تأثيرا عميقاً فتسمو الانفس بمعانيه وتلطف بمواعظه وارشاده وتنصاع لاحكامه والقرآن على رفعة مكانته بين قلوب المسلمين يعتبر ثروة أدبية كبرى حفظت لغة العرب من الضياع رغم الحوادث التي مرت على الامم الاسلامية ففرقتها أيدي سبا ومزقت وحدتها الفكرية بل لا يزال هو الحارس الامين على التفاهم بين الامم العربية التي تفصل بينها البحار والجبال والحواجز التي احدثتها فعائل الامم الغازية والطامعة ولولا القرآن لاصبحت لغة العرب لهجات ظلت تتباعد حتى صارت لغات مستقلاً بعضها عن بعض فاذا صعب اليوم على العراقي ان يفهم لهجة أخيه المراكشي والجزائري في الكلام والحديث فانه لا يصعب عليه أن يفهم لغة الكتابة التي يكتبان بها لانها لغة القرآن والقرآن بعد ذلك كله صار فيما بعد منهلا عذبا واسعا للتشريع الاسلامي اذ ان أحكام الشريعة الاسلامية مهما تعددت فيها الآراء وتشعب الاجتهاد في فروعها فان أصولها ثابتة في ثنايا آياته وسوره • ولقد بلغ القرآن الذروة في غاياته ومقاصده في تشريع الحج فهيأ للدعوة الاسلامية أن تقوى وتنتشر

وتعم أرجاء المعمورة بما اوجده من اخاء ومساواة ومحو للفوارق بين الاجناس والالوان فالزنجي أخ المسلم الابيض اذا تقابلا في الحج تصافحت يداهما ووجد كل واحد منهما عونا صادقا في أخيه وهكذا أصبح جماعات المسلمين تفد من السنغال وليبريا ونيجريا ومن الصين والهند وجاوا والفرس والترك والعرب الفقير منهم والغني تحت ظلال الاسلام سواسية ومن عجيب الامر انه في موسم الحج لا تعرف الرجل الا في الكلام والسؤال فان الازار والرداء قد ساويا بينهما لقد قضى الحج على فوارق الجنس واللون والقومية بين المسلمين واعطى للمسلم شخصية سامية رفيعة تحب الانسانية وتحب القوة كما تحب السلم وترعى الفقير وتحترمه كما ترعى الغني وتحترمه ولن تجد مسلما يملأ الايمان قلبه ذليلا لانه يركن دوما الى العزة حيث ايمانه قوي ومن يخش الله لا يخش عباده أبدا فان في خشية الله الترفع عن الرذائل وايتاء الموبقات ومن كان مترفعا عن فعل ذلك كله يظل مرفوع الجبين موفور الكرامة . والقرآن يؤكد دوما في ثنايا سوره وآياته على كرامة الانسان ومكانته في الوجوه ويحذر من الشرور واساءة الاعمال ويرفع من الفضائل وقيم الرجال الذين يمشون وراء الفضيلة .

حفظ القرآن شخصية الاسلام وحفظ القرآن لغة العرب ومجدهم ومجد الاسلام في سمو مقاصده ونبل معانيه وظل ولا يزال منبعا فياضا للشريعة الاسلامية ومثلا للاساليب الراقية ومعلما أمينا في اللغة العربية « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

القرآن يربّي شخصية المسلم

سلك القرآن في بناء شخصية الفرد سبيلاً واضحاً مستنداً الى قاعدة اساسية في النظام الاجتماعي الاسلامي وهي توحيد الاله الذي يعبده المؤمن بأنه واحد لا رب سواه ولم يكن له ابن أو بنت وليس له أب أو أم وهو المقصود الاول في الحياة الدنيا والآخرة بل ليس له مثيل في عالم الامكان « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » . ومن لوازم هذه القاعدة الاساسية الايمان برسوله محمد الذي أرسله الى الناس كافة ليبلغ ما أنزل اليه من هذه الآيات الكريمة التي تتضمن شريعة تهدف الى اسعاد مجتمع . ولكي تثبت هذه العقيدة اتخذ القرآن وسيلة الترهيب والترغيب وضرب الامثال وحكاية القصص عن الغابرين في صدر الدعوة الاسلامية فكانت السور المكية تتجه الى وعيد المشركين الذين يعادون النبي ويسعون في الفساد بين الناس والذين لا يطعمون الفقراء ولا يحثون الناس على اطعامهم ويضمرون الشر ويمنعون المنافع ولا يقيمون الصلاة

في جد واهتمام وبعبارة أخرى لم يتمكن الايمان من قلوبهم والذين لا يصدقون بيوم الدين والذين يطعنون في أعراض الناس ويمشون بالنميمة ويعتزون بأموالهم ويتفاخرون ويتكاثرون بها وباولادهم والذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا اعطوهم نقصوا الكيل والميزان هؤلاء ومن يقتدي بهم لن يتكون منهم مجتمع فاضل ان هؤلاء لهم كتاب مرقوم ولن يستطيعوا أن يكذبوا هذا الكتاب لانه ثابت وموجود في اليوم الآخر وسوف يقدم لهم ويقال لهم هذا الذى كنتم به تكذبون .

شدد القرآن في بناء الشخصية على التبكيت بهذه الصفات الفاسدة ليبعد عنها المؤمن المنتظر وهدد الفرد بالقارعة التي تقرع قلوب الناس يوم القيامة يوم يصيرون حيارى ضعفاء لا يدرون ما يفعلون كأنهم الفراش المنتشر الذي لا يعي كيف يقع في اللهب ويزداد في تهويل يوم الحساب الذى تتفتت فيه الجبال الراسخة وتتطاير ذراتها تطاير شعرات الصوف المنفوش في مهاب الرياح في هذا اليوم يكون مقر ضعاف النفوس في الدنيا المتمرغين على اقدام الاصنام الذين يعبدون الحجارة المنحوته ويسعون في الارض فسادا ويشركون بالله الهاوية هذه الهاوية التي لا قرار لها والتي ليست غير نار حامية .

ويقرع اسماعهم « بالحاقة » « والواقعة » ويصف هول القيامة وصفا مرعبا في يوم زلزال الارض وتشققها يوم تخرج اثقالها من الموتى ويأخذ هؤلاء يسأل بعضهم بعضا عن هذا الحادث الجلل عند ذلك تجيبهم الارض عن اخبارها وتنطق ان ربك اوحى لها ان تشقق ليخرج الناس سراعا ليروا أعمالهم فيرى صاحب الخير عمله ولو كان ذرة ويرى صاحب الشر عمله مهما صغر ويزيد القرآن في التهويل باختلال نظام الكون واصطفاق الشمس بالقمر وانهيار الكون الشمسي من أوله الى آخره وزوال عالم الامكان واذا زال عالم الامكان تبدلت المقاييس وصار بصر الفرد حديدا فيرى الحقيقة الواضحة يومئذ لا ينفع الندم ويستمر القرآن في التهديد والوعيد لمن يتمادى في ارتكاب الذنوب طوال حياته ويؤكد مقسماً بالنفس اللوامة «بالضمير الحي»

الذي يؤنب صاحبه ويلومه بأن الله قادر على اعادة الانسان بل قادر على أرجاع أدق عضو في تركيبه وهو البنان .

ويضيف القرآن الى هذا كله قصص الاقوام الذين عصوا انبياءهم فيذكر قصة نوح مع قومه اندرهم وأمرهم ان يعبدوا الله ربهم فتمادوا في الضلال فرجع نوح الى ربه وقال « رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي الا فرارا واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا » ولقد وجه نوح افكار قومه الى تكوينهم بقدرة الله من طور الى طور ولفت نظرهم الى كيفية خلق الله السموات وجعل القمر منيرا في هذا العلو الشاهق والشمس سراجا وهاجا ثم تعمق نوح معهم وبين لهم ان اصلهم من هذه الارض انبتهم الله فيها نباتا ثم يعيدهم ويخرجهم منها اخراجا وقد بذل نوح جهدا عنيفا مع قومه فتمادوا في العصيان فلم يجد بدا ان يتجه الى الله ويقول : « رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا » وظلوا عاكفين على عبادة اصنامهم لا ينفكون عن التمرغ على أقدام « يغوث ويعوق ونسرا » ولم يكتفوا بذلك لانفسهم بل اضلوا كثيرا غيرهم . رب لاتذر على الارض منهم أحدا .

ضرب القرآن هذا المثل من الامم الغابرة يبين علاقة النبوة في تكوين المجتمع ومركز محمد من رسالته في ايجاد مجتمع فاضل وعطف القول على اولئك المؤمنين الذين ينضوون تحت لواء الاسلام والذين أنار الايمان قلوبهم والذين لا يسعون في الارض فسادا والذين اذا مروا باللغو مروا كراما فيكرمهم ويرفع شأنهم فهم الابرار في عليين الكتاب المرقوم الذى تشهده الملائكة وهو السجل الذى تسجل به الاعمال الصالحة والمآثر الخالدة لعباد الله الصالحين الذين منهم يتكون المجتمع الفاضل فيعمرون الارض ويملؤونها عدلا ومحبة واخاء اولئك الذين لهم جنة نعيم على الارائك ينظرون تعرف في وجوههم نظرة النعيم من رحيق مختوم وهم متكئون على الارائك لا يرون في الجنة شمسا ولا زمهريرا دانية عليهم ظلال الجنة يطاف عليهم

بآنية من فضة ويلبسون حللا فاخرة من سندس خضر واستبرق • وفي هذا الوصف البديع يبرز القرآن مكانة الشخص الفاضل •

في هذا الوعد والوعيد وفي تهويل يوم القيامة ولفت نظر الانسان الى أسرار التكوين والخلق ومشاهد الطبيعة والتذكير بالامم الخالية التي لم تطع رسلها وبيان ما يناله اهل النار في الدرك الاسفل من الهاوية وما يناله المؤمن الصابر المحتسب الذى يشع نور الايمان في قلبه من نعيم مقيم في ظلال الجنة يقصد القرآن الى خلق المؤمن الصادق الصالح للمجتمع والى ايجاد ضمير حي في تكوين الانسان يريد ان يخلق نفسا لوامة تلوم صاحبها عند الخطأ وتكرمه عند الصواب هذه النفس اللوامة التي قصد القرآن الى ايجادها للمؤمن الصادق هي الشرطي الذى يقف من المؤمن موقف الحارس الامين يلومه على الخطأ ويثيبه على الصواب هذه النفس اللوامة أو الضمير الحي التي رباها الاسلام بين جوانح المؤمنين أغنت نظام الحكم في عهد النبوة عن تكوين جهاز الشرطة ورجال الامن فشخصية المؤمن عالية لانه يرى الكرامة في الدنيا بقوة الايمان وينظر العزة في الآخرة فهو بين الابرار والشهداء والصديقين وفي هذا التكوين النفسي البديع نبت المجتمع الاسلامي الفاضل وصار المؤمن قدوة في المثل العليا فدخل الناس في دين الله افواجا وبعد ان استطاع القرآن ايجاد الضمير الحي أو النفس اللوامة الحارسة على سلوك المؤمن في الحياة الدنيا التفت الى هذا الانسان الفاضل فتوجه بالايات الكريمة « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » • وبذلك اكتملت شخصية الفرد المسلم بعد ان ضمن له القرآن كرامته في الوجود واعلن حقوقه كاملة غير منقوصة ، فهو الفاضل على كثير من المخلوقات في هذا الكون وهو الذى ينال الطيبات وهو الذى يضرب في الارض برا وبحرا بحرية كاملة وهو الذى يتصرف بما حوله من الوجود في نطاق تلك القيود التي لاتعدو مصالحه والصالح العام فالانسان المؤمن في نظر القرآن انسان حر كريم مبدع لا يتخذ له غير أخوة مثله مبدعين انه مع الابرار والشهداء والصدقين انه لا يمكن ان

يسير مع الهدامين انه مؤمن وهو أخ المؤمن يشد أزره ويعينه على صعاب الحياة انه يحمل العقيدة في قلبه ويدفع عنها بلسانه ويذب عن حياضها انه راع في بيته راع في عمله انه مسؤول عن أية رعية يرعاها لانه كريم على الله ولانه مفضل على كثير ممن اوجد الله في هذا الكون •

لقد ضرب النبي (ص) مثلا ساميا في تكوين المجتمع حيث بدأ في تربية شخصية أصحابه الذين يعملون معه وتربية المؤمن الصادق وبذلك استطاع ان يبرز النفس الانسانية فبرزت كرامة الانسان •

القُرآن وَالأُسرَة

بعد ان فرغ القرآن الكريم من تكوين شخصية الفرد ووثق صلته بخالق الكون وربى فيه ضميرا حيا وجعل هذا الضمير الحي رقيبا عتيدا عليه يلومه على الخطأ ويثيبه على الصواب انتقل الى تكوين الاسرة وبدأ بصلة الولد بوالديه لان الوالدين هما ركن الاسرة والولد ثمرة جديدة تمد الكون بالحياة ، على نسبة ما بين القديم والحديث من تباين في استقبال الحوادث شرع القرآن تنظيم الصلة بين ركني الاسرة وما ينتج عنهما برفق ولين فأوصى الولد أن يحسن الى والديه واذا أوصى القرآن فان في وصيته تشريعا يستند الى ثواب وعقاب قد يكون في الجنة والنار احيانا واحيانا في اقامة الحدود وفي كلتا الحالتين وضع القرآن أوامره ونواهيه وقد يعلل هذه الاوامر والنواهي أو يتركها مجملة ولكنها مفهومه وفي وصية الولد بأحسانه الى أبويه ذكره ان الام حملته في جهد ومشقة ووضعته في جهد ومشقة وتعبت فيه مدة الحمل والفصال لثلاثين شهرا واستمرت في تربيته الى ان بلغ أشده

وتركه القرآن فيما بعد ذلك الى أن بلغ اربعين عاما : « حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب اوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وان أعمل صالحا ترضاه واصلح لي من ذريتي اني تبت اليك واني من المسلمين ، اولئك الذين تتقبل منهم أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيآتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون » .

« والذي قال لوالديه : اف لكما اتعدانني ان اخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان ويلك آمن ان وعد الله حق فيقول ما هذا الا اساطير الاولين اولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين » .

ما كان تشريع القرآن منصبا على البر بالوالدين والانفاق عليهما واعانتهما على تحمل اعباء الحياة لانهما احاطاه بعنايتهما وسهرا عليه الليالي وتعب الاب في العمل وتعبت الام في الحضانة ، كلا ! لم يكن هذا المقصود من هذا التشريع انما كان التشريع يرمي الى ابعد من ذلك كله ، انه يرمي الى ايجاد اسرة مؤمنة طيبة لها شخصية اسلامية فالولد ثمرة جديدة في الحياة له انطباعه الخاص الذي يمشي معه في نموه وتكامله وهو في طور الطفولة غيره في طور المراهقة وغيره في طور الرجولة انه يختلف عن أبويه اللذين خلقا في جيل غير جيله وعاشا عيشة تختلف عن عيشته وهما مختلفان في البنية مختلفان في التفكير انه شاب يتدفق حيوية وقد يكونان شيخين لحب جنباهما واحدودب ظهراهما وقد لا يكونان كذلك ومهما يكن من أمر فهما مختلفان في استقبال مشاهد الحياة والاخذ عنها .

وفي ظهور الاسلام برزت هذه الاختلافات في الاسرة الواحدة فقد يؤمن الابوان ويستمر الولد على شركه وقد يؤمن الولد ويستمر الابوان على شركهما ومن هذه النافذة سلك القرآن في تشريعه مسلك الايصاء بالاحسان الى الوالدين فاذا آمن الابوان والولد لا يزال مشركا طلب القرآن برفق ان يحسن الى أبويه وان خالفاه في عقيدته وايمانه الى ان يتبين له الامر وتنضج عنده الفكر ويصبح رب أسرة ويبلغ سنا تؤهله أن يميز الصحيح من الخطأ

ويعطي حكما صادقا وقد أوصلها القرآن الى سن الاربعين وهي سن الكهولة ونضج الرجولة بل سن النبوة • سلك القرآن مسلك الرفق في هذه الوجهة من التشريع لان الامر مقصور على الاسرة لا يتعداها الى حقوق شخص ثالث غريب عنها وان الرابطة بين الولد والوالدين أساسها السبب الظاهر في وجود الولد وأساسها قوة وضعف من جهة الولد وضعف من جهة الوالدين وقرن هذا النوع من المعاملة أو الصلة بعبادة الرب وفصل ذلك بآيات أخرى «وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر احدهما أو كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما » فالاحسان الى الوالدين مقرون في المثل بعبادة الرب وقد وضع القرآن حدودا للشرك هي عقوبة الجحيم واشار من طرف خفي الى ان من يسيء الى أبويه عقابه عقاب المشرك الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر ولم يتخذ القرآن سبيل القسر ووضع الحد في هذه الصلة العظيمة حفظا لتربية الشخصية واستقلال الرأي وافساح المجال لمواهب الثمرة الجديدة أن تبرز فالوالد لا يقسر ولده على أمر وانما يكتفي أن يبين له ذلك ويضعه بين يديه ولا يتعدى أن يقول له في سياق الجدل والمناقشة عن العقيدة اكثر من قوله « ويلك آمن » ثم يترك له الحكم والتصرف في الامور وقد يكون الاب قويا عنيفا فينتج عن قسره ولده كبت مواهبه ومحو شخصيته وهذا مما لا يريده القرآن الذى وجه عنايته لتربية شخصية المؤمن • وقد فصل ذلك في محاورة لقمان لابنه وهو يعظه ويقول له : « يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم » وطلب منه اقامة الصلاة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والا يتكبر وان يخفض صوته عند الكلام ولا يختال في مشيته متبخترا ثم يلفت نظره الى الكون وما بث الله فيه من عجائب المخلوقات ليرجع عن غيه ويثوب الى رشده وليعلم انه سوف تمر عليه في حياته حالات الضعف كما مرت عليه حالات النشاط في عنفوان شبابه •

فكل ما يقصده القرآن ايجاد اسرة مؤدبة مؤمنة مرتكزة على المحبة والرحمة ومتى ارتكزت الاسرة على هذه الاصول الانسانية فلا حاجة لعقاب

ولا حاجة لحدود فاذا ضعف الاب رفق الابن بوالده واذا اشتد ساعد الولد ورأى في نفسه القدرة على تحمل المصاعب والبت في الامور لطف القرآن عنفوانه وطلب منه ان يخفض لابويه جناح الذل من الرحمة وان يدعو ربه ان يرحمها كما رحماه ورباه • سلك القرآن هذا المسلك من التشريع في تكوين المجتمع ليتفادى كثيرا من الاجهزة الادارية والقضائية وليكتفي بسمو الاخلاق الكريمة والصلة المرتكزة على المحبة والرحمة وخاصة في الاسرة وبذلك خفض كثيرا من الاعباء والواجبات في اداء الرسالة وهيأ لها مجالا واسعا في نشر العقيدة بهدوء واطمئنان لقد انتصرت الرسالة المحمدية على الذات باعطائها دروسا واضحة في تصور الوجود•ووجه النفوس الى القوة الجبارة فيما وراء الغيب تلك القوة التي ترغم الكائن الحي على الانقياد والخضوع بما تعرضه من بدائع الخلقة والتكوين وتجعل من شخصية المؤمن قاضيا ومنفذاً للشريعة في هذا الاسلوب الأدبي لتكوين مجتمع أفضل ، استطاعت الرسالة المحمدية ان تخلق في كل مؤمن ارادة كامنة تستطيع أن تضحي وتستطيع ان تتحكم وتبدع وتبعث من تمكن فيه ان يجتاز العقبات مهما كان شأنها حتى يصل الى الحقيقة في هذا الوجود ومن هذه النقطة برزت شخصية المؤمنين في ظلال نظام الحكم في عهد النبوة •

رَوابِطُ الأُسْرَة

انتقل القرآن الى توضيح روابط الاسرة التي هي نواة المجتمع الاسلامي المنتظر والينبوع الدافق الذى يفيض بمادة الامة ابان نشأتها وبعده • ونزلت الآية الكريمة في مستهل سورة النساء : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيبا » •

كان مستهل هذه الآية دقيقا في تعبيره في وضع نواة الاسرة والاشارة الى تكوين بني الانسان من طينة واحدة خلق منها الرجل مثل ما خلق المرأة وهما مصدر الذرية وعلى هذا المصدر أن يجعل خوف الله فوق كل شيء ويحترم صلة الرحم ففي ظل هذه التقوى وفي ظل صلة الرحم تكون الاسرة المسلمة • وهذا هو شأن القرآن يعطي الحكم ويضع القواعد ثم يشفع ذلك بالوعد والوعيد ليضمن تنفيذ التشريع • ان تشريع الاحوال الشخصية وتنفيذ التشريع ليسا بالامرين الهينين فاذا لم

يكن للمجتمع الملحد وازع سلطاني لم يستقم تشريعه أما المجتمع المؤمن فان تشريعاته كلها تستقيم وتسير وفـق ما وضعت له في ظلال رقابة الخالق •

من هذه النقطة انطلقت آيات القرآن توضح الصلات بين أفراد الاسرة نفسها فحفظت أول ما حفظت حق اليتيم لضعفه ولكيلا يعتدي عليـه أحـد ورخصت في تعدد الزوجات رخصة فيها شرط يصعب تحقيقه • فلقد رخص القرآن أن يجمع الرجل بين زوجتين أو ثلاث زوجات أو أربع واشترط أن يكون العدل أساس هذا الجمع فاذا لم يتحقق العدل فان الرخصة غـير مباحة وبذلك استطاع ان يحفظ كرامة البيت وكرامة الاسرة ويحرسها من الانشقاق والحقد والعداوة •

كان الايمان في فجر الاسلام قويا فلا حاجة لوازع سلطاني ذى سيف مسلط على رءوس الناس يتوخى العدل بين الزوجات وكان يقـوم مقـام ذلك النفس اللوامة أو الضمير الحي الذى رباه محمد (ص) في نفوس القوم وكانت تقوى الله ومخافته تدعم الضمير الحي فاذا اقدم المؤمن على استعمال هذه الرخصـــة أقدم وهو واثق من نفسه ان يعدل وكانت المؤمنات في مكانة رفيعة من الايمان والادب الاسلامي والخلق العربي من حيث خشية الله والوفاء وكرم النفس واصالة الرأي •

أوصى الشرع باليتيم خيرا واوصى بالمرأة خيرا ووثق صلة الرحم بين الاسرة في تشريع الارث وقسمة الاموال التي هي مصدر الخلاف والشر فحدد نصيب المرأة زوجا وبنتا واما واختا وحدد نصيب الرجل زوجا وولدا وأبا واخا وجدا وانتقل من هذا التحديد الى ذوى القربى الى دائرة اوسع فــلم يتركهم ولم يترك اليتامى والمساكين اذا حضروا القسمة وقوى هذه الفروض والوصايا بآية من أروع الآيات « تلك حدود الله ومن يطع الله ورسولـه يدخله جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك الفوز المبين • ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عـذاب مهين » •

هذه الآية هي السند القوي وهي دائرة التنفيذ لهذا التشريع •

ولقد حرم القرآن ان يتزوج الولد زوج أبيه لانها بمثابة أمه وحرم الامهات والبنات والاخوات والعمات والخالات وبنات الاخ وبنات الاخت والامهات المرضعات والاخوات من الرضاعة وأم الزوجة وبناتها من زوج آخر كما حرم ان يتزوج الرجل زوج ولده حرم الجمع بين اثنين لو كانت احداهما رجلا لا يجوز له ان يتزوج بالاخرى • ثم احل القرآن ما وراء ذلك • على أن يبتغي المؤمنون ذلك باموالهم محصنين غير مسافحين •

واذا اختلف الرجل والمرأة لم يذهبا الى قاض في فجر الاسلام ولم يذهبا الى مركز شرطة ليحل الخلاف بينهما وانما يستند صلاح الاسرة الى اختيار حكم من أهله وحكم من أهلها ليدرسا الخلاف ويصلحا بينهما • « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا » فان تم الاصلاح انتهى الامر عند هذا الحد وعادت حياة الأسرة الى حالتها الطبيعية الاولى وان لم يتم ذلك جنح الفريقان الى الطلاق وقد عالج القرآن هذه الحالة علاجا انسانيا ساميا ولم يترك المرأة ريشة في مهب الريح ولم يقيد الرجل بجعل حياته مغمورة بالالم واليأس • فالطلاق في شريعة القرآن مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان وفي هاتين المرتين يحق للرجل ان يعود الى اسرته تارة أخرى اذا عضت اسنانه اصبع الندم وقد اعطاه التشريع فترة كافية للتفكير في الامر واذا وجد الالتقاء صعبا أوقع الطلاق مرة ثالثة وعند هذا الحد ينتهي كل شيء ولن ينفع الندم حيث سدت الشريعة في وجهه كل أمل الا الامل الاخير وذلك اذا تزوجت المرأة فمات عنها زوجها الثاني أو حدث اختلاف بينهما فتفرقا وفق أصول الشريعة المرعية في القرآن ورغب المطلقان الاولان أن يعودا الى سالف حياتهما الطبيعية وبلغ بهما الندم مبلغه عند ذلك يمكن العودة حيث جرب كل منهما مصاعب الحياة واخذ درسا وعبرة من حوادث الايام •

وقد حفظ القرآن حقوق المرأة في المهر فلا يحل للرجل ان يأخذ

منه شيئا بعد الطلاق الا اذا أرادت المرأة ان تفتدي نفسها وتخلص من عصمة الزوجية لامر يخصها عند ذلك لا شأن للشريعة بذلك ما دام الامر برضاها •

وقد حدد الشرع للوالدات المرضعات مدة الرضاعة بحولين كاملين وعلى الزوج أن ينفق وعالجت الشريعة حق المرأة بعد العقد وقبل الزواج ففرضت لها نصف المهر وشددت آيات القرآن على الرجال في معاملة المرأة بالامتناع عن الاكراه وبالتسريح الجميل وتلطيف الصلة بالمعروف والتفضل بالمتاع الوفير من قبل الاغنياء عند الفراق • كل اولئك وضع الاسرة موضعا يليق بكرامة الانسان •

وضع الاسلام بناء الاسرة على قواعد العدل والرحمة ووثق الصلات بين الولد والوالد وبين الام والبنين بين الزوج والزوجة وجعل صلة الارحام في مقدمة هذا البناء وابتعد عن كل ما يورث الحقد والحسد •

اذا تكاملت الاسرة في نظامها وشرعت قواعد الارتباط بين اعضائها اجتازت الدولة متاعب الخلاف واصبحت مشاكل المجتمع تحل نفسها بنفسها وبرزت الشخصية المبدعة من بين أفراد هذا المجتمع لتقول كلمة الفصل في تحديد خطوط الحياة الفاضلة •

لقد كان محمد (ص) مبدعا اختارته العناية الربانية ليأخذ بيد العالم ويخلصه من الآلام والشرور وان يجنح بهم الى هذه التربية الفاضلة تربية تمكن المرء من التغلب على ذاته لكيلا يندم عندما يضحي لغيره ولكي يفرح عندما يدخل السرور على أخيه • فطفر العالم الاسلامي هذه الطفرة الواسعة في تكوين مجتمعه ، وتوارى عنه شبح الخوف وحلت محله الحقيقة التي تشع بالنور هي حقيقة الفضيلة • ان الخوف سر تدهور الامم اذا لم يصاحبه الامل وقد استطاع النبي ان يقضي على الخوف والقلق بالامل الواسع واللطف وفي وضع عقوبة الدنيا والتشديد في وضع العقوبة في الآخرة • والامل اذا ملأ الصدور اندفعت المواهب للابداع واستعدت النفوس للتضحية وعلى أساس التضحية والمحبة وضح محمد (ص) قواعد

الاسرة الاسلامية فحفظ للمرأة حريتها وكرامتها وحفظ للرجل حريتــه وكرامته وعزز الزواج بالاعلان وشهادات الشهود وقيد الطلاق بالازمنــة والحدود والتأمل والتفكير وفصل المحـكمين كيلا تنهـار الاسـرة بين عشية وضحاها بعد ان احكمت بناءها •


بِنَاءُ المُجْتَمَع

ثبت القرآن وحدانية الآله في قلوب المؤمنين واطمأنت الرسالة المحمدية الى ثبوت العقيدة فشرعت تبين كيف يمكن أن يسير المجتمع في حياته فيما يباح له وفيما يحرم عليه وكيف يمكن ان تماسك اجزاؤه ولكنه لم ينفك عن ذكر الوحدانية ونكران الشرك عند وضع الاحكام والقواعد التي يضعها • فالشرك في نظر القرآن وفي هدف النبوة سر تأخر الامة والوحدانية هي الغاية السامية التي ترتفع بالامة الى العزة والقوة وان الجاثي على قدم الصنم عبد ذليل وان الفكر الذي يؤمن بقوة جبارة خلقت ملكوت السموات والارض حر عزيز والحرية والعزة صفتان من صفات الرجولة المكتملة التي ترتفع بالمرء عن صغائر الاعمال وتسمو به الى امتلاك ناصية الفضائل ومن هذه الناحية خاطبت الرسالة مجتمع المؤمنين بتلاوة ما حرم الله وما نهى عنه وما أمر به •

لقد نهى عن الشرك بالله وأمر بالاحسان الى الوالدين ونهى عن قتل

الاولاد خشية الاملاق ووعد بالرزق لهم ولابويهم وشدد على الابتعاد عن اتيان الفواحش جهرا أو سرا ثم نهى عن قتل النفس بوجه عام الا بالحق وهو القصاص الذي فيه حياة المجتمع وتماسك نظامه ثم أمر بعدم الاقتراب من مال اليتيم الضعيف الذى يكون في ظلال وصي قوي الى ان يبلغ أشده فيعطي ماله وأمر ان يوفوا الكيل ولا يخسروا الميزان وأن تكون المعاملة بينهم مرتكزة على العدل وان يبتعدوا عن الجور والظلم • ومن القواعد الاساسية في نظام الحكم في هذا العهد العدل في الشهادة وصراحة القول على نفس الانسان واقربائه ويلتحق بذلك الوفاء بالعهد وان يسلكوا سبيل هداية القرآن ويأخذوا بمبادئه السامية فلا يلتفتوا الى آراء وافدة فتفرق الكلمة وتفرق بهم السبل وتختلط عليهم المبادىء ويدب الخلاف في صفوفهم فيضعفوا « ان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » •

وحرم القرآن البغي بغير الحق وحرم الزنا كيلا تفسد الاسرة فيفسد المجتمع وحرم الخمرة أم الخبائث مثلما حرم لعب القمار وهما في نظر القرآن من الامور الهادمة للبناء الزارعة للحقد والبغضاء الصارفة المؤمنين عن فضائل العقيدة وواجباتها « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون » •

واستمر القرآن في النهي والامر لاجتناب هادمات المجتمع تارة يذكر اقامة الحدود واخرى يهدد بالوعيد بعذاب الآخرة وسخط الرب فالسارق تقطع يده نكالا بما كسب الا من تاب من ظلمه واصلح فان الله يتوب عليه ويغفر له ولم يبت القرآن في قطع اليد مادام في نفس السارق أمل للرجوع والتوبة والسير في نظام المجتمع وفق شروط الحياة الفاضلة • وسرد القرآن حدود القصاص في اعتداءات أخرى على الانسانية فالعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة

له ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون » •

وهكذا استطاع القرآن أن يجد مخرجا لهذه الحدود المشددة وما كان هذا التشديد الا لكيلا يفلت الزمام وتصبح الامور فوضى لا رادع لها ولا ضابط يضبطها ويلطف الامر ويفسح المجال أمام الجاني ومن وقعت عليه الجناية فاذا قلع رجل سن احد من المؤمنين فان لهذا حقا ان يقلع سن المجرم • ولو بت القرآن في هذا الامر وجعله واجبا لا مخرج له لكان في الامر عسرة شديدة غير ان ادارة القرآن الممتازة فتحت بابا واسعا للصلح وجعلت لهذا الصلح ثوابا في الآخرة وكرما في الدنيا فان الذى يعفو عن صاحبه المجرم سيكون هذا العفو كفارة له عن ذنوبه في الآخرة فضلا عن سموه في الدنيا •

وانتقل القرآن الى اولئك الذين يسعون في الارض فسادا ويقطعون سبل المارة ويسلبون أموالهم ويهددون حياتهم بل يهددون أمن الدولة ويقلبون نظام الحكم لكي تنتشر الفوضى ويعم الشر في أرجاء البلاد فوضع حكما شديدا جعل جزاءه آخر ما يكون من العقاب جعله القتل أو الصلب على الاعواد أو قطع الايدي والارجل من خلاف أو النفي من البلاد وخلاص الوطن من فسادهم وأردف ذلك باللعنة التي يرافقها الطرد وما يتبعه من خزي عظيم • وكل ذلك اذا كان هؤلاء في عنفوان قوتهم وشدة مقاومتهم واستمرارهم في محاربة الله ومحاربة العقيدة وتماديهم في تقتيل الناس وسلب أموالهم وتهديد الامن فاذا اصبح هؤلاء في قبضة السلطة واصبحت السلطة قادرة على التنكيل بهم والقصاص منهم فلها ذلك وفق ما حدده القرآن وان ثابوا الى رشدهم وتابوا واصلحوا انفسهم فان الله غفور رحيم هنا يقر القرآن نظام العفو العام وهنا يظهر امتياز نظام الحكم الصادق لكي يطمئن المجتمع الى أن ولي الامر مثله كمثل الاب الرحيم اذا انتفض عليه أمر الاسرة وخرج بعض افرادها عليها لا يستطيع ان يتخلى عن زاوية بين جوانحه تكمن فيها عاطفة الشفقة والرحمة على الخارجين فاذا عادوا الى صوابهم وجدوا في ظلالها أمنا وراحة •

ان أروع جمال في أنظمة الحكم هو ألا تلجأ السلطة الى تجربة العضلات مع المجتمع وانما تجنح دوما الى الارادة القوية التي يقودها العقل ولا يوجد شيء أجمل من ان تنزل القوة الى الرحمة عند المقدرة •

هكذا عالج القرآن نظام الحكم في عهد النبوة شدة في غير عنف ولين من غير ضعف • ثواب في الآخرة ، وكرامة في الدنيا وعقاب في الآخرة وخزي وعار في الدنيا •

ومن هذه القواعد العامة استطاع النبي محمد (ص) ان يكون هذا المجتمع المثالي في عهده دون ان يحتاج الى درجات المحاكم والتشكيل الاداري جاءته آيات من ربه فهمها المسلمون وآمنوا بها وعملوا بما جاءت به دون أن يكون على رءوسهم سيف مسلط أو رقيب عتيد غير رقابة النفس اللوامة أو الضمير الحي والعقيدة الراسخة بان هذا الدين دين السعادة والرفاه دين الاخوة والعدالة والمساواة • وما دام هناك حساب في الآخرة فان المؤمن يخشاه ومادام ثواب في الآخرة فان المؤمن يرجوه وبين الخوف من العقاب والرجاء بالثواب انتظم الامر في عهد النبوة •

بَيْتُ المَال

دخل الناس في دين الله أفواجا وكثر عدد المسلمين ومنهم الموسر والمعسر وتكون الجيش الاسلامي واشتدت الحاجة الى المال لانه قوام النظم الاجتماعية ولانه المعين الاول في الدفاع عن العقيدة الاسلامية في اسناد الجيش واعالة الاسرة التي يتركها معيلها اذا ركب جواده للجهاد في سبيل الله ونشر عقيدة السماء وفتح الابواب لها لتأخذ طريقها الى القلوب فيخرج الناس من الظلمات الى النور ونزلت الآية الكريمة بالامر الصادق : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم والله سميع عليم » .

واصبحت الصدقة فرضا على المسلم الموسر وصار للمسلمين موضع تجمع أموال الصدقات فيه وكان أكثر ما في بيت المال منها الماشية فقد كانت في عهد النبي (ص) ما يقرب من اربعين الفا من الابل والخيل وغيرها وكانت لها مراع خاصة بها وميسم توسم به وكان النبي يتولى ذلك بنفسه وكان

محلها في البقيع يحفظها العاملون عليها الذين لهم حصتهم منها وكان للصدقات أمراء وعمال يبعثهم الرسول الى انحاء البلاد ليجمعوها ويأتوا بها وقد بعث عدي بن حاتم الى طيىء ليجمع الصدقة منهم كما بعث العلاء بن الحضرمي الى البحرين وعلي بن ابي طالب، الى أهل نجران وبعث غيرهم الى كل أرض دخلها الاسلام ولما بعث معاذ بن جبل الى اليمن واليا وقاضيا قال له ـ انك تأتي قوما من أهل الكتاب فادعهم الى شهادة ان لا اله الا الله واني رسول الله فان هم اطاعوك لذلك فاعلمهم ان الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فان هم اطاعوك فاعلمهم ان الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من اغنيائهم فترد على فقرائهم فان اطاعوك لذلك فاياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب وقد أمره الا يتعرض الى خيار الاموال ونفائسها التي تضن بها الانفس واوضح له انه لا يجوز للحكام والعاملين على الصدقات أخذ كرائم الاموال واعطاءها الفقراء •

وقد جمع القرآن الامر بالفريضة مع التأكد من ثبوت العقيدة شأنه في كل تكليف يكلف الله به عباده وامر نبيه ان يقبل الصدقات من الموسرين مقرونة بدعائه واستغفاره ففي هذا الدعاء والاستغفار تطمئن القلوب وترتاح النفوس وهو بمثابة وثيقة تقدم للمؤمن الموسر المتصدق للدلالة على طهارة النفس وتوجهها الى طاعة الله •

وقد حددت هذه الفريضة تبعا لعدد الماشية ونوعها وحددت على الفضة بالدرهم وعلى الذهب بالمثقال وعلى الثمار بالعشر ونصف العشر وفقا لطبيعة الارض وطريقة ريها ووضع حد تقف عنده الفريضة فلا يؤخذ من مقداره شيء وكل المقادير والحدود مفصلة تفصيلا في كتب الشريعة الاسلامية وكانت هذه الصدقات توزع على من جاء ذكره في الآية الكريمة « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والموءلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » •

فالفقير هو المحتاج الذى يمكن ان ترتفع كرامته بمعونته من بيت المال من هذه الصدقة فلا ينزل الى السؤال ومثله المسكين الذي لاشيء عنده وهو أشد حاجة من الفقير • وتعطى للعاملين عليها وهم الذين يتولون جمعها وحفظها وخزنها وكتابة دواوينها ورعاة الانعام منها • اما المؤلفة قلوبهم فقد كانوا كثيرين وهذه الكثرة مختلفة الانواع والاشكال سواء أكانوا مسلمين أم مشركين ولا يمنع ان يؤلف قلب من حسن اسلامه وايمانه لمكانته في قدمه فيعطى مالا يتناسب مع مكانته وتؤلف قلوب بعض كبار القوم ضعفاء الايمان حتى يقوى ايمانهم وقد فعل النبي ذلك مع بعض الطلقاء من اهل مكة الذين اسلموا وفيهم المنافق وضعيف الايمان وقد حسن اسلامهم وقوى ايمانهم بعد ذلك ونوع آخر من هؤلاء المؤلفة قلوبهم قوم من المسلمين يسكنون الثغور والحدود يعطون أيضا من أموال الصدقة أملا في دفاعهم عن المسلمين اذا هاجمهم العدو وفريق آخر يؤلف قلبه ويسترضى لمكانته بين قومه ولتأثيره فيهم في جباية الزكاة ممن لا يعطيها الا بنفوذهم وجاههم كذلك تعطى للمشركين الذين يرجى منهم الايمان فتؤلف قلوبهم اكراما لمنزلتهم بين قومهم وقد أسلم في هذا السبيل كثيرون وحسن اسلامهم •

ومن الذين فرض لهم القرآن فريضة في أموال الصدقة المكاتبون وهم العبيد الارقاء يدفع عنهم بيت المال فتفك رقابهم ويصبحون احرارا وفي هذا منتهى السمو في العقيدة الاسلامية التي حاربت الرق حربا بأقوى الطرق حاربته ببذل المال بغية اعطاء الحرية وحاربته بالثواب ثواب الآخرة وجعلته كفارة لليمين •

وهناك جهة أخرى يصرف عليها من أموال الصدقات أعني (الغارمين) وهم المدنيون الذين اصابتهم جائحة أو تحملوا حمالة فلم يستطيعوا دفع ما عليهم من الديون في بيت المال يؤدي عنهم ديونهم •

والفريق الآخر المفروض لهم نصيبهم من بيت أموال الصدقات الغزاة والمرابطون على الثغور في سبيل اعلاء كلمة الله الذين ليس لهم اسم في ديوان الجند أما ابن السبيل فهو المنقطع في سفره وليس لديه مال يقوم

أوده او يستطيع به ان يعود الى بلده هذه الفريضة التي شرعها القرآن الكريم مقصورة على هذه الصنوف اما النبي واما بيت النبوة فليس لهم ان ينالوا من أموال الصدقات شيئاً ولو كانوا عاملين عليها •

في هذا النمط العالي من الضمان الاجتماعي استطاع الاسلام ان يكف عيون الفقراء عن أموال الاغنياء ويحفظ التوازن بين طبقة موسرة وطبقة معسرة وقد كان يعطي للفقير ما يكفيه وأحيانا يرفعه الى مرتبة الاغنياء فيصبح يتصدق وقد بلغت بعض الاعطيات مائــة بعير لشخص واحد وفي ترفع النبي وترفع آل بيته عن أموال الصدقات امان واطمئنان للناس في ان هذه الفريضة ما شرعت الا لهذه الصنوف وان انعام الصدقة وأموالها محفوظة لهم لا تمتد اليها أعين غيرهم • حل محمد مشكلة المال بهذه الطريقة المبسطة تارة بالوعيد واخرى بالثواب مع العفة والترفع من ان يناله منها شيء فهو الرائد والمرشد وهو ظل ظليل على المؤمنين يقيهم شرور الفرقة ويحملهم على الجماعة • لقد كانت انعام الصدقة في زمن الرسول من الـكثرة بحيث يخيل للمــرء انه لا يوجد فقير في عهد النبوة وان الناس بعافية وخير وان الاسرة مكفولة اذا ذهب عائلها الى الحرب أو مات واستمر هــذا الحــكم الرائــع وهذه الالفة والمحبة بين الفقراء والاغنياء أيام الرســـول لا تشوبه شائبة وظلت المجموعة العربية الاسلامية تمثل مجتمعا فاضلا ليس فيه حقد أو حسد وليس فيه تخمة في ناحية وآلام وحسرة في ناحية أخرى •

ان المال عزيز عند صاحبه لا يفرط فيه بسهولة والفقر يكاد ان يكون كفرا والعناد في جهة واليأس في جهة أخرى يولدان حقدا أسود في طبقات المجتمع ولن يحلها الا عدل وفي هذا الطراز الرفيع من التشريع أمر النبي عماله على الصدقات ان لا يتعرضوا الى كرائم الاموال لانها غالية ثمينة على أصحابها وأن يتركوا الاموال طبيعية تجري على اذلالها •

وقد كانت العقيدة الاسلامية تفعل فعلها في نفوس القوم فكان فريــق يقدم الصدقات طوعا وهو مؤمن انها ستصل الى الله تعالى ومنهم من كان يقدمها كرها فلما توفي النبي (ص) ظن كثير من العرب ان هذا التشريع

خاص بزمن الرسول وان الامر الذي جاء في الآية الـكريمة « خـذ » لم يوجه الا اليه وانه انتهى بوفاته وامتنع كثير منهم عن أدائه واعتبروا مرتدين عن عقيدة الاسلام وقد وقف الخليفة الاول أبو بكر وقفته المشهورة وقـال قوله القاطع في حروب الردة وفي شأن الصدقة : « والله لو منعوني عناقا وفي رواية عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله لاقاتلنهم على منعه » .


الرّبا

كانت التجارة والحركة المالية في مكة والمدينة مزدهرة وكان للتجار فيهما رحلة الشتاء والصيف وكان اليهود في يثرب من العناصر المتمولة التي تضارب بالاموال والتجارة وكان الربا له المكانة الاولى في العلاقات الاقتصادية في المجتمع وله الاثر القوي في الاستغلال وتدمير البيوت القائمة وتحطيم الاسر وكان النبي قد أرسل ليكون مجتمعا فاضلا فلما فاجأهم برسالته وجدهم قد غطسوا في حمأة من الظلم والاحتكار وكان القرآن ينزل تباعا لصياغة هذه الامة وجعلها خير أمة اخرجت للناس وفي غمرة هذا التكوين كانت معاملات الربا تجرى في عنف وقوة وفي طريقة غريبة فكان الرجل منهم يكون له دين على آخر الى أجل فاذا حل الاجل يقول المدين أخره عني وأزيدك على مالك فيفعلان وكان لهم معاملات في الماشية والانعام طريقة وفي النقد طريقة فاذا كان الربا في النقد ولم يكن عند المدين ما يؤديه وكان الدين مئة مثلا فانه يكون في العام المقبل مئتين وفي العام الثالث

اربعمئة وهكذا والمفسرون يقولون هذا هو الربا المضاعف • وهو الربا الذى نهى القرآن عن التعاطي به ومهما يكن من شيء فانه ظلم واستغلال يترفع عنه الدين الاسلامي الذى حارب الاحتكار والاستغلال ونزلت الآية الكريمة في ذلك :

« يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون واتقوا النار التي اعدت للكافرين واطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » •

وضع القرآن قاعدة الحكم وعززها في الترغيب والترهيب والانذار والتبشير وجعل مخافة الله في رأس القاعدة واعد النار للذين يكفرون باحكام القرآن وجعل الرحمة منوطة باطاعة الرسول فيما يبلغ به عن ربه ووصف المرابين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل بالضغط واستغلال حالة الحاجة والفقر وصفا رائعا يفهمه فصحاء العرب الذين يأسرهم هذا التصوير البديع في الآية الكريمة : الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » فالمرابون في نظر القرآن لا يدركون معنى الانسانية ولا الغاية من تكوين المجتمعات الفاضلة فهم لا يقومون باعمالهم هذه ولا يفعلونها الا كمثل ما يفعل ويقوم به المجنون الذى لا يدري ماذا يصنع كأن به مسا من الجن فقد معه عقله وادراكه فالانسانية كريمة على الله والذي يستغلها خارج على أوامره ونواهيه بعيد في تصرفه عن تصرف العقلاء المؤمنين الصادقين • وفي هذا التصوير البديع ابرز القرآن النفوس الجشعة التي تستذل غيرها وتضيق عليها رزقها وتحول نعيمها بؤسا وشقاء وفي تهديد شديد قمع نوازع الطمع من هذه النفوس وارشدها الى طريق الصواب وعزز ذلك بالآية الكريمة : « واحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وامره الى الله ومن عاد فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » • ولم يجعل القرآن خيارا للمرابين فيما يفعلون فشدد النكير على الذين يتمادون في افعالهم وجعل النار مثوى لهم خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب وامرهم ان يتركوا ديونهم من دون توقف وان يتوبوا

من هذه الجريمة المنكرة : « يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » .

لقد نزلت هذه الآيات البليغة المحكمة عندما تمكن الايمان من قلوب المسلمين وأصبح الخروج على العقيدة من أشد الامور على النفوس الصادقة نزلت بعدما التأم شمل المسلمين وصاروا قوة يرهبون عدو الله وعدوهم ونعموا بعدالة الاسلام واستظلوا بظلاله وصاروا اخوة في الايمان يشد بعضهم ازر بعض فمن ذا الذي لم يتب ؟؟ ومن ذا الذي يريد أن يكون في حرب وخصام مع الله ورسوله ؟؟ ومن يجرؤ ان يخرج على أحكام هذه الشريعة الغراء ؟ فاذا تاب وهو تائب لا محالة وانه مؤمن يصلح نفسه والله يتوب على عبده التائب واذا تحقق ذلك وتاب المرابون بعد تحريم الربا وبقي الدين فلا يمكن ان يستمر ولا يكتسب حقاً شرعياً بل يعود الدائن على مدينه برأس ماله فلا يظلم احد واذا كان المدين معسراً فلا مانع ان ينتظر الدائن حتى يكون الذي عليه المال في حالة من اليسر تمكنه من أداء ما عليه . بل ذهب القرآن الى ابعد من ذلك لقد جعل في العفو على رأس المال وربحه صدقة لها ثواب عند الله .

وقد وقف النبي (ص) وقفته المشهورة ونادى بأعلى صوته : « الا وان ربا الجاهلية موضوع واول ربا ابدأ به ربا عمي العباس بن عبدالمطلب لكم رءوس أموالكم لا تظلمون » . وبهذه الخطبة الجامعة استطاع النبي (ص) ان يمحو الربا من مجتمعه الفاضل الذى كونه في مشرق الدعوة ورباه على التعاون وحثه على الانفاق في سبيل الله وقارن بين الربا الماحق الذي يهدم الاسر ويزرع الحقد والضغائن في القلوب وبين الصدقة والزكاة التي تتطهر بها النفس من رذائل البخل والحرص وتزرع في القلوب المحبة والالفة فلا ترتفع عين الفقير الى ثروة الغني ولا يكمن الحسد والحقد والحسرة في جهة والثراء والنعمة في جهة أخرى .

الربا في الجاهلية أنواع كثيرة وطرق متعددة في ادائه ووفائه والروايات

مختلفة في تحديده ومهما يكن من شيء فهو زيادة يأخذها رب المال من المحتاج قسرا ولم يكن هذا القسر بالعصا انما الحاجة الملحة هي التي اجبرت المحتاج ان يلتجىء الى الثري ليأخذ ما يستطيع ان يقوم به أوده أو يرفع به عمله أو يتخذ به مشروعا يعود بالنفع عليه فيخسر أو يربح أو يتلف ويعود لا مال عنده ويتجمع عليه الدين اضعافا مضاعفة فيتدمر ويهلك ويذل وكفى بالفقر والذلة فساداً للمجتمع •

حطم القرآن قيود الربا وامتدح البيع • وقد كان البيع وحده مصدر الكسب ونماء الثروة في عهد النبوة فلم تكن هناك مصانع ولا توجد شركات تجارية وانما كان أكثر سبل انماء الثروة هي السبل التي تتخذ في معاملات الربا وكانت تستند الى جهود فردية ففرد يكتفي باتخاذ طريق الربا وسيلة لانماء ثروته وفرد يكتفي بالبيع ان عواقب الربا وخيمة ونتائج البيع والمقايضة دون غبن عظيمة ومباركة والبائع الامين رابح محبوب والمرابي المستغل ذليل مكروه وحرم الدين الاسلامي الربا ووضع مقابل ذلك ما يشبه الضمان الاجتماعي لقد جعل بيت المال وموارد الصدقات عونا كبيرا يمون منها ابن السبيل والفقير المحتاج وتفك رقبة المعتق المكاتب من بيت المال اذا لم يكن لديه ما يعينه على ذلك ويدفع دين المدين الذي تلف ماله وكاد يضيع مركزه الاجتماعي • وكانت الثقة والصدق هما الاساس الاول في استقامة هذا التنظيم •

لقد هد القرآن ركنا من أركان التبادل التجاري في ذلك العهد وهو الربا الذى كان مصدرا لاثراء غير مشروع وكان فاحشة وساء سبيلا وبذلك استطاع الرسول (ص) ان يحول في هذا التنظيم نفوس العرب من الجشع الى الكرم ومن الانانية الى الايثار ومن الكره الى المحبة ومن التفرق الى الالفة لقد استطاع ان يصغر الثراء والمال في أعين المؤمنين وان يكبر الانفاق في سبيل الله ومعونة الفقير والعفو عن المدين وجعل من هذه التعاليم نورا يشع بالفضائل وبسط أمامهم طريقا واضحا يقودهم الى مجتمع فاضل واختار لهم نظاما ليس له حارس غير الايمان الصادق بالله وبنبوة محمد آمن

المؤمنون بما انزل على الرسول واتبعوا صراطه المستقيم فصفت نفوسهم والنفوس الصافية تركض الى الفضيلة ركضا وهكذا قبل المؤمنون هذا الحكم العنيف بصدور رحبة ولم يمانعــوا لانهم يخشون حــرب الله ورسوله ويؤمنون بان الجنة مثواهم وان جهنم مثوى للـكافرين •


العقود

حرصت الرسالة على تكوين شخصية المؤمن وعلى تربية ارادته سواء أكان ذلك بتوجيهه الى النظر في ملكوت السموات والارض وما بث فيهما من دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض أم بتفكيره في نفسه وما خلق الله فيها من بدائع الحواس ودقـــائق تركيب الاعضاء وترغيبه في حياة فاضلة تنتهي به الى جنة عرضها السموات والارض أو تحذيره من نار موقدة تطلع على الافئـــدة كي يستطيع في ظـــلال هذه الشخصية القوية والارادة الحازمة ان يتصرف تصرفا حرا يحمل معـــه مسؤولية النتائج وقد مهدت الرسالة بهذا كله لتخرج على المؤمنين بالاوامر والنواهي في الـكف عما حرم الله والعمل بما أحله وتنظيم الصلات بـين الافراد بعضهم مع بعض ومع الخالق مع جهة أخرى وأهم شيء في هـذا التنظيم العقد أو العهد والايفاء به فان العقد رابطة يرتبط بها الشخص مع شخص آخر باتفاق ارادتيهما على انشاء حق أو على انهائه ومثلما يرتبط

به الشخص مع أخيه يرتبط به أيضا مع خالقه وقد عنى القرآن عناية خاصة لما له من الاثر في حياة المجتمع وفي صيانة العقيدة « يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود » « اوفوا بعهدي أوف بعدكم » « واوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا » وفي مبايعة الرسول على الايمان بالله وبرسالته نزلت الاية الكريمة : « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فانزل السكينة عليهم واثابهم فتحا قريبا » ونزلت آية أخرى مماثلة لهذه في حق النساء بمبايعة الرسول على الايمان بالله وبرسوله والعمل بما انزل من القرآن الكريم على نبيه • وجاء في الحديث : « لا امان لمن لا امانة له ولا دين لمن لا عهد له » كان الوفاء من ابرز صفات العرب وهي خلة كريمة فارسل الله رسوله في هذه الامة ليتمم مكارم الاخلاق فيها وليجعل هذه الصفة التي ينتظم بها أمر المجتمع من الخلال الكريمة التي يجب أن تتصف بها الامة الاسلامية والبشرية جميعها ويسود الاخاء والمحبة والعدالة والصدق ويعم الامن والسلام بين الناس •

ان العقد الذى شرعته الرسالة المحمدية عام يشمل عقدة الشركة وعقدة الزواج وعقدة الحلف والمعاهدات والاتفاقات على مستوى فردى أو مستوى دولي • وفي كتب التشريع والقوانين الحديثة أحكام مبسوطة بسطا واضحا ومتشعبا وترتكز عليها صلات الناس وحفظ الحقوق وانتظام المعاملات وقد تعددت أشكاله بتعدد اساليب الحضارة ولكنه لايزال في جوهره واركانه في كونه التزاما يجب الوفاء به وفي كونه ارتباطا يجب توثيقه لئلا يخيس به أحد الطرفين فينشأ الخلاف ويحتاج فيما بعد الى القضاء وفض النزاع وعلى ذلك ضرب الله مثلا لعباده في شأن المداينة وهي أكثر قضايا المجتمع تعقيدا واولها فيما يحدث به الخلاف بين الناس فاذا وقعت المداينة الى أجل مسمى بين شخصين فان عليهما ان يكتبا بذلك وان يقوم كاتب عادل لا يميل الى أحد الطرفين فيجعل له حقا على آخر لا يعرف به وان يكون هذا الكاتب عالما بشروط المعاملات واصول الشريعة التي تحفظ الحقوق بين الطرفين موضحا لا ابهام في كتابته بحيث تحتاج الى

شرح يوضح الحق عما التبس به من الباطل فالكاتب بالعدل الذى جاءت به الآية الكريمة يراد به الرجل العالم الذى يكون بمثابة القاضي الذي يبت في الامر من اوله دون الحاجة الى الرجوع اليه مرة أخرى •

ووثقت الآية هذه الكتابة باشهاد شاهدين من المؤمنين الصادقين واوجب على الشاهدين الحضور اذا احتاج الامر اليهما في فض الخلاف وأكد القرآن تأكيداً جازماً على الكتابة وأمر أن لا يتكاسل المتعاملان في شأنهما مهما كان العقد على الحق صغيرا كان أم كبيرا فان في ذلك مايبعد عن الريبة والشك وأمر القرآن بالابتعاد عن الضرر سواء أكان هذا الضرر لاحقا بالمتعاقدين أو الكاتب بالعدل والشاهدين واوضح ان أى شيء من هذا القبيل يجرى في أية معاملة فانه خروج على الدين وعلى العقيدة ومعلوم ما يتأتى عن هذا الخروج من نتائج غضب الله وعقابه • ولكيلا يكون حرج في الاوامر والنواهي التي وردت في هذه الآيات رخصت الشريعة الاسلامية عند السفر وعند عدم وجود كاتب عدل ان يصار الى الرهن وهو ان يوثق العقد برهن عند احد الطرفين فاذا عادا الى مقرهما فعلى من أخذ الامانة ان يعيدها الى صاحبها وشدد القرآن النكير على من يكتم الشهادة في شأن العقود والمعاملات ووصفه بأنه آثم وان عمله لا يخفى على الله وعند الله تجتمع الامور • « يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أولا يستطيع ان يمل هو فيملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احداهما فتذكر احدهما الاخرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ولا تسأموا ان تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله ذلكم أقسط عند الله واقوم للشهادة وادنى الا ترتابوا الا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها واشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل

شيء عليم وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى أئتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم » •

اشتملت الآية الاولى من هاتين الايتين على خمسة عشر أمرا ونهيا وفي كل هذه الاوامر والنواهي حفظ الحق وتكريم شخصية المؤمن واحترام ارادته ان تزل وفي انحراف الارادات عن الحق انهيار لنظام المجتمع لقد وثقت الحضارات الحديثة استقامة الارادة وصدقها بالسلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية وعززت ذلك بالقوات وشرطة الامن واستطاع الاسلام في مشرق الدعوة ان يكون مجتمعا فاضلا مبنيا على العدل والمساواة والصدق والوفاء بتربية الضمير والارادة وتكوين الشخصية والثواب المرتجى في الآخرة والترهيب من العقاب المنتظر بعد البعث •

لقد وجد النبي ان خير النتائج في تنظيم الامة هذا الطراز في النظام الذي اختارته العناية الالهية واعانته على اتمامه • وجد ان الارهاب في الدنيا لا يمكن ان يدوم وان العنف في الحكم سرعان ما يزول فدعا الى المجادلة بالتي هي أحسن كما وجد ان يدفع الخصم بالتي هي أحسن •

لقد وجد ان الحرية في التصرف اذا كان مستندا الى الايمان خير من التقييد فيها اذا كان مستندا الى الشرك فالمؤمن يستند الى ركن متين والمشرك لاسند له في الحياة • ان الذي يعبد صنما منحوتا من حجر لا يمكن ان تتربى بين جنبيه روح يسهل عليها ان تتخلى عن الربا المضاعف اذا بلغ اضعافه مضاعفة ولا يسهل عليها ان ترجع الى رأس المال بسهولة أو تنظر المعسر الى ميسرة • ارتفع الاسلام بالمجتمع في جميع طبقاته من الامية الى تنظيم حضارة مبنية على الترابط بالعقود والوفاء بالعهود وشرع لذلك تشريعات متعددة تناولت الفرد والمجتمع والدولة •

مَشْرُوعِيَّة القِتَال

بين جبل النور والبيت العتيق هبط جبريل بالوحي الآلهى :ـ وانذر عشيرتك الاقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين •

وفي ضحوة مشرقة وقف محمد (ص) بين ظهراني عشيرته يدعوهم الى الرشاد ودين الحق ويقول : (أيها الناس ان الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ولو غررت الناس ما غررتكم والله الذي لا آله الا هو اني لرسول الله اليكم حقا والى الناس كافة والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتجزون بالاحسان احسانا وبالشر شرا وانها للجنة أبدا أو النار أبدا وانكم لاول من انذر بين يدي عذاب شديد) • فهزهز محمد بهذا النداء افئدة قريش وزلزل ارادات صناديد العرب وطفقوا ينظرون اليه نظر المتحير في أمره والمتعجب من حدث جلل لا يعرف مدى أثره وكبر عليهم ان يخرج من بينهم رجل يريد أن يجتث ما كان يعبد آباؤهم من أعماق صدورهم ومناط حواسهم وأخذتهم العزة

بالاثم ولكنه لم يأبه بهم لانه كان يريد بهم خيرا •

أراد أن يقول لهم انني بعثت فيكم لاحملكم رسالة الفضيلة الى أنفسكم والى البشرية جمعاء وجئت لامحو من نفوسكم عنجهية الطبقية وابني بكم مجتمعا فاضلا فيه العدل والمساواة والقوة والعزة والرحمة والاخاء ولاجعل منكم اخوان صدق لافضل فيكم لاحد على أحد الا بالتقوى وصدق الايمان • فلم يسمعوا وأصروا واستكبروا استكبارا فعارضوه وقاوموه والتف حوله جمع قليل بادىء الامر واسروا النجوى خوف ايذاء قريش ولطف النبي معهم الدعوة واخذ يدعو الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالتي هي أحسن ، فلم ينفع بهم وسدرت قريش في غلوائها وأمعنت في ايذاء المسلمين واضطرت فريقا منهم للهجرة الى الحبشة وما كان المؤمنون يستطيعون الجهر بالقول ولا الظهور في العبادة حتى آمن فريق من أشداء قريش بينهم حمزة وعمر فقال عمر حين أسلم (يا رسول الله ألسنا على الحق ان متنا أو حيينا ؟ قال محمد : بلى ! والذي نفسي بيده انكم على الحق ان متم أو حييتم فقال عمر (والله لا يعبد الله سرا بعد اليوم والذي بعثك بالحق ما بقى مجلس كنت أجلس فيه بالكفر الا أظهرت فيه الاسلام) • وأدركت قريش الخطر الذى يهدد مصالحها وازدادت في امعانها بالايذاء بمن وقع في ايديهم من المسلمين واضطر النبي الى الخروج من مكة واضطر المسلمون أن يتبعوه ويتركوا متاعهم وأموالهم وأهليهم وكعبتهم وراءهم ظلما بغير حق وظل فريق آخر لا يستطيع الهجرة واستمر اتصال المؤمنين بمكة باخوانهم في المدينة وكان المكيون يفترصون الفرص للالتحاق بمن سبقهم من المهاجرين هربا من ايذاء المشركين ويتظلمون الى اخوانهم من شدة الايذاء فيقول لهم النبي اصبروا فانني لم أؤمر بالقتال وانما أمرت بالصبر واشتدت شوكة المسلمين باخوانهم الانصار وتكونت عندهم السرايا فأخذ النبي يبعث سراياه الى خارج المدينة وكان على هذه السرايا حمزة بن عبدالمطلب وعبيدة بن الحارث وسعد بن ابي وقاص وأحيانا يكون النبي بنفسه على سرية منها ولم تشتبك هذه السرايا

مع قريش ولكنها أفادت من اتصالها بالقبائل التي تمر عليها في سيرها فعقدت معهم محالفات وضمنت معونتها اذا دعت الحاجة اليها وخشيت قريش أن يتسع نفوذ النبوة فلا يستطيعون أن يتغلبوا على المسلمين بعد ذلك وأمعنت في الايذاء وتهيأت للاعتداء وأصبح أمر الدعوة مهددا بخطر لا يمكن دفعه الا بالدفاع عنه فنزل الوحي على الرسول بهذه الآيات : (اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز). كانت هذه الآيات أول آيات أباحت في الاسلام الدفاع عن العقيدة وشرعت القتال وأجازت للمؤمنين قتال المشركين الذين أخرجوا المؤمنين من ديارهم بغير حق اللهم الا قولهم : ربنا الله ونبذهم ما سواه من الاصنام والآلهة وفي اباحة القتال أخذ المشركون يهيئون أنفسهم لمقاومة دعوة الاسلام وشرع المؤمنون يعدون لهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل يرهبون عدو الله وعدو المؤمنين وأمر الله عباده بالانفاق في سبيل الله ومضاعفة ثواب ذلك اضعافا في اليوم الآخر وأخذ المؤمنون يتسابقون في بذل أموالهم لاعلاء كلمة الاسلام : (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم). ولم يكن القتال الا آخر معالجة يركن اليها المؤمنون ولم يكن الا دفعا للشر ولم يكن الاستعداد له الا لايقاف الخصم عند حده . (فقاتل في سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا ووضع التشريع الاسلامي شروطا وحدودا للقتال . فهو دفاع لا اعتداء وهو مقابلة الخصم بما يفعل : (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) وقد فرض الله القتال فرضا على المؤمنين عند اشتداد الخطر وعند تجاوز العدو وأوضحت الشريعة في مشروعية القتال ان الخصم انما يقاتل ليرد المؤمنين عن دينهم وانه مصر على هذه الفكرة ومستمر على الخصام والقتال

وحذرت المؤمنين من التراجع والاستسلام (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فاولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة واولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

وفي هذا الوعيد الشديد قويت نفوس المؤمنين فاندفعوا يقاتلون في سبيل الله خصما ضخم العدد والعدة مستميتا في سبيل الحفاظ على اصنامه وتقاليده وكان المسلمون قلة فخشوا على انفسهم هذه الكثرة فنزلت الآية الكريمة : (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وان يكن منكم مئة يغلبوا الفا من الذين كفروا بانهم قوم لا يفقهون) . ومع صدق الايمان وقوة العزيمة دخل الخوف في نفوس المؤمنين ووجدوا ان العشرين لا يستطيعون أن يقفوا أمام مئتين من الاعداء ووجفت قلوبهم من هذا العدد الضخم ولم يستوعب عقلهم أن يكون المؤمن بعشرة من المشركين فجاء الوحي بآية أخرى (الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا فان يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين باذن الله والله مع الصابرين) فاطمأنت نفوس المؤمنين واصبح الواحد منهم باثنين وقبلت حواسهم هذه الفكرة قبل ان تقبلها عقولهم .

وأكد الاسلام في مشروعية القتال على ناحية أخرى واراد بها وحدة الامة ووحدة الهدف والاستقرار للانصراف الى بناء المجتمع واداء واجبات الرسالة : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) .

ومثلما شرع القتال للحفاظ على العقيدة كذلك شرع للذود عن أسر المسلمين وعن ضعفائهم ونسائهم واولادهم الذين يستذلهم المشركون ظلما وعدوانا وحرض النبي على انقاذ مثل هذه الجماعات من مخالب الشرك والظلم : (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا) .

وربط القرآن مشروعية القتال بقوة الشخصية وتنظيم المجتمع فالذين

يقاتلون في سبيل اللهﻫم الذين آمنوا برسالة محمد التي تهدف الى اقامة حياة فاضلة مستندة الى العدل والمساواة والاخاء وحفظ الدين ان تعصف به الفتن فيضطرب المجتمع اما الكافرون فهم الذين يقاتلون في سبيل الطغيان والشرور واقامة الباطل مقام الحق والظلم مكان العدل ومتى ما ساد الطغيان تحكم اولياء الشيطان من الناس ومتى تحكم اولياء الشيطان اضطرب المجتمع وانهارت اركانه ومثل هؤلاء الذين يقاتلون في سبيل الطاغوت اولئك الاقوام الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يدينون دين الحق هؤلاء كتب الله عليكم في شأنهم أن تقاتلوهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

وملأ التشريع قلوب المؤمنين بالثقة وأكد لهم أن الحياة والموت أمران مقدران لن تغيرهما حرب أو سلم (اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) فالمؤمنون لا ترهبهم قوى الشر ولا يهابون موتا ولا تغرهم الحياة . وطلب التشريع من المؤمنين في هذه الوجهة من نظام الحكم أن يطيعوا اوامر الله واوامر رسوله وان يتقوا الفتنة وان يذكروا الله حين كانوا مستضعفين في الارض يخافون أن يأخذهم الناس من كل جانب فآواهم ورزقهم من الطيبات في ظلال الامن والاستقرار (واذكروا اذ انتم قليل مستضعفون في الارض تخافون ان يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) .

لقد أراد الوحي الآلهي أن يخلق أمة وينشيء مجتمعا فاضلا ولن تنشأ أمة أو يخلق مجتمع الا في ظلال ارادة قوية وعزم صادق وحيوية مبدعة ولا ابداع الا اذا كانت الشخصية تتمتع بالكرامة التي يحفظها العقل والسيف ولكن الشريعة الاسلامية لا تركن الى السيف الا اذا هدد العقل بعدم الاخذ بما يراه وعلى ذلك كان الجدال بالتي هي أحسن التكأة التي يرتكز عليها الاسلام فلما هوجم عاد الى السيف ليحمي العقل والعقيدة ولم يأخذ السيف مكانه في ميادين القتال الا عند الاعتداء وكانت القاعدة الاساسية في ذلك (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) .


العُدّة

استلزم تشريع القتال استعدادا بالمال والرجال وانواع القوة جميعها من الخيل وأدوات الحرب واعداد الخطط والتبصرة بالامور والدعوة واثارة النخوة والترهيب من العقاب لمن يتخلف والتبشير بالثواب لمن يتقدم ويجاهد ونزلت الآية الكريمة (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين لاتعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون) .

ومثلما استلزم الاستعداد استنفار الرجال ليكونوا على أهبة النزال استلزم أيضا الترغيب في الانفاق وضمان ماينفقه المؤمن بالمنزلة العظمى عند الله والفوز بالرحمة والرضوان والجنات والنعيم المقيم وخلود الذكر في الدنيا والآخرة ولم يستثن نظام الاستنفار أحدا غير اولي الضرر الذين تحول علتهم دون الاستجابة فلا يستطيعون ان يلتحقوا بالجيش ويقاتلوا في سبيل الله وانحى باللوم الشديد على المتخلفين دون عذر في مواقع كثيرة (لا يستوي

القاعدون من المؤمنين غير اولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وانفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وانفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما) •

واستثنى النظام الاعمى والاعرج والمريض ذا العلة الذى لا يستطيع مقاومة العدو (ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج) • ومن نظام القتال ان حذر الرسول المؤمنين وأمرهم باليقظة والاستعداد للعدو واخذ الاهبة للقائه فاذا خرج الجند فيجب ان يكون خروجهم اما على شكل سرايا سرية بعد أخرى واما جماعة كاملة بقلوب متحدة وايمان بالنصر المؤكد ولا يجعلوا للمنافقين المثبطين ثغرة ينحدرون منها اليهم ويحولون دون التقدم واذ لقى المؤمنون عدوا فعليهم ان يتثبتوا من أمره ولا يتعجلوه فاذا القى اليهم السلام وآمن بالله ورسوله فهو مؤمن وآمن وعليهم ان يقبلوا منه ايمانه لانهم لم يخرجوا للغنائم وانما خرجوا للدفاع عن العقيدة واعلاء كلمة الله ومتى سلم الرجل ورضي بالدعوة فيجب عليهم ان لا يقولوا له لست مؤمنا يبغون من وراء ذلك عرض الدنيا والله يريد الآخرة :

(يا ايها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا ان الله كان بما تعملون خبيرا)•

واذا لقي المؤمنون فئة كثيرة وتداولوا في الامر ورأوا السلم أولى من الحرب فليقبلوا مبدأ السلم فان القتال لم يشرع للانتقام وانما شرع دفاعا عن العقيدة وحفاظا عليها • (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم) وان كان المشركون يبتغون خديعة فلا يهتموا لها فان الله يؤيد عباده المؤمنين بنصر من عنده وان الخديعة لا تدوم ومهما طال أمدها فانها ستكشف وان الفة قلوب المؤمنين واتحاد كلمتهم كفيلة ان تحول دون نجاح الخديعة • (وان يريدوا ان يخدعوك فان حسبك الله الذى ايدك بنصره وبالمؤمنين والف بين قلوبهم لو انفقت ما في الارض جميعا

ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم انه عزيز حكيم) •

وحفظا لارواح المجاهدين ان تهلك وتباد رخصت الشريعة المقاتلين ان يقصروا من الصلاة اذا سافروا لـكيلا ينالهم المشركون بمكروه بل لـكيلا يمكنوا العدو من ظهورهم وهم في صلاتهم خاشعون:(واذا ضربتم في الارض فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلاة اذا خفتم ان يفتنكم الذين كفروا ان الكافرين كانوا لـكم عدوا مبينا) •

ورخص التشريع ان يقوم الجند وقائدهم في الصلاة على نمط لا يؤدي أن ينال العدو من ظهور المسلمين شيئا وذلـــك ان يصلي الامام بالمؤمنين المجاهدين صلاة قصر في طائفتين : تصلي طائفة وراء الامام بأسلحتها وتقف طائفة تحمي ظهور المصلين فاذا فرغت الطائفة الاولى جاءت الطائفة الثانية فأقامت الصلاة واقتدت بالامام • فاذا اطمأن المسلمون وعلموا ان لا خطر عليهم فلا بأس من اقامة الصلاة كاملة لانها من أركان الاسلام ونزلت الآية الكريمة بذلك : (واذا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معـك وليأخذوا اسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائـكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا ، فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم واسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وامتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عنكم ان كان بكم اذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا اســـلحتكم وخذوا حذركم ان الله أعد للـكافرين عذابا مهينا • فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ، فاذا اطمأننتم فاقيموا الصلاة ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) •

كانت العقيدة أساس التعبئة وكان الايمان التكأة الاولى التي استند اليها التشريع الاسلامي في اثارة النفوس وتهيئتها للنزال في سبيل الايمان والمؤمنون الصابرون المثابرون هم الفائزون • والمنافقون المثبطون في النار خالدون لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصـــرون • والمؤمنون المتثاقلون معاتبون عتابا شديدا وملومون لوما فيه تقريع ووعيد شديد وعليهم المبادرة الى طاعة الرسول والمتخلفون يخشون الهلاك وهم في خشيتهم واهمون فانه لن

يصيبهم الا ما كتب الله لهم وانهم يخافون الفتنة وهم في الفتنة ساقطون لا يقومون الى الصلاة التي هي رمز الجماعة ووحدة الصف الا وهم كسالى انهم لا ينفقون أموالهم ويخافون على انفسهم هؤلاء منافقون لا تمتد ايديهم بالسخاء والانفاق في سبيل الله انهم يحلو لهم ان يقعدوا مع أولادهم وأهلهم ويديروا أموالهم ولو استطاعوا ان يتواروا عن المؤمنين لا يتأخرون انهم يخافون الحر ويميلون الى الاستبراد ، هؤلاء المنهارون نفسيا عقابهم عندالله ان ينبذهم المجتمع ولا يأبه بهم واذا عادوا وطلبوا الخروج مع الجيوش الظافرة مرة أخرى فلا يلتفت اليهم واذا مات أحدهم فلا يصلى عليه لانهم رضوا ان يتخلفوا عن المؤمنين في وقت الشدة أمثال هؤلاء نزلت بحقهم الآية الكريمة • (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم في الحياة الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ، لو يجدون ملجأ او مغارات أو مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون • فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله وقالوا لاتنفروا في الحر ، قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي ابدا ولن تقاتلوا معي عـــدوا انكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ولا تصل على أحد منهم مات ابدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) •

هذا العقاب الشديد كان حافزا قويا وامتحانا صادقا للمؤمنين وسندا متينا للعقيدة والدفاع عنها بمثابة العقوبة التي تضعها التشريعات الزمنية من حيث اللجوء الى السجون وفرض الغرامة • اما نظام الحكم في عهد النبوة فانه كان يجعل أمر المثوبة والعقاب الى السماء وكان وقعها في المجتمع أشد من وقع عقوبات الدنيا • وكانت المثوبة أجمل وقعا والطف بردا على قلوب المؤمنين من أية مكافأة أو جائزة دنيوية : (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وانفسهم واولئك لهم الخيرات واولئك هم المفلحــون أعد

الله لهم جنات تجرى من تحتها الانها خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) ٠

وبعد ان وضع التشريع الاسلامي هذه المقارنة والموازنة بين المؤمنين المجاهدين والخالفين القاعدين استثنى فئات جاءت تسابق لنصرة دين الله غير ان صعوبة التعبئة حالت دون الاستفادة منهم ٠ هذه الفئات لاجناح عليها وان الله راض عن افرادها لا يكلفهم الا بمالهم به طاقة ٠ (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ولا على الذين اذا ما اتوك لتحملهم قلت لا أجـــد ما أحملـكم عليه تولوا واعينهم تفيض من الدمع حزنا الا يجدوا ما ينفقون) ٠

ليس على هؤلاء تبعة انمـا التبعة على اولئك القادرين على الانفـاق والقادرين على الدفاع عن العقيدة يعتذرون ولكن لا يجدون عذرا مقبولا هؤلاء وأمثالهم ليس لهم حظ في الاسلام وليس لهم مكانة عند الله وعندكم وعقابهم عظيم : (انما السبيل على الذين يستأذنون وهم اغنياء رضوا بان يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ٠ يعتذرون اليكم اذا رجعتم اليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) ٠

وسيقسم هذا الفريق الايمان اليكم بانهم كانوا يريدون الخروج معكم وانهم من انصاركم فلا تثقوا بهم فانهم رجس وان عقابهم في جهنم لـن يصلوا الى درجة المؤمنين الذين باعوا انفسهم لله ولاعـــلاء كلمته والذين ثوابهم عند الله جنات تجري من تحتها الانهار : (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك الفوز العظيم) ٠

كان هذا الدفاع عن العقيدة أمرا محتما لا محيد عنه وكان القتال حدثا طارئا اقتضته هذه الثورة الاسلامية التي أرادت به ان يحفظ وجودها ويهيىء الجو لنموها وانتشارها وكانت التعبئة بهـذا الشكل الضخـم شيئا جديدا

بالنسبة للحروب التي كانت تحدث في الجزيرة فاذا كانت الحروب تحدث لامر مادى ينتهي بتعويضه أو بالاستغناء عنه فان هذا النوع من القتال شرع تشريعا خاصا بحيث لا ينتهي في الجزيرة الا بعد وحدة الصف والفة القلوب واجتثاث الاصنام وعبادة آله واحد وعلى ذلك حرص التشريع الاسلامي على افهام المؤمنين ان الله معهم وانه لا محالة ناصرهم فبشرهم في الجنة والرفعة وانذرهم بالجحيم والعذاب المقيم والذلة في أماكن متعددة ولم يترك القرآن فرصة الا اوضح بان العاقبة ستكون للمؤمنين مهما كانت المقدمات وان الصراع الذي يحدث على الارض هو من طبيعة هذا الوجود فليثبث المؤمن فان النصر بيد الله يؤتيه من يشاء (يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا) .

لقد عالج القرآن دوافع النصر مثلما عالج اسباب الهزيمة وفي كلتا الحالتين كان يؤكد على المؤمنين انهم بشر وان الخصم بشر مثلهم وان تفوقهم وهزيمتهم مرهونان بمقدار ما يبذلونه من الجهد ومقدار ثباتهم على العقيدة وتمسكهم بالايمان بالله وبرسوله ولكنه كان يملأ قلوبهم بالثقة بالله وبالقضاء والقدر ووعد المؤمنين انه سيلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ويثبت اقدام الذين آمنوا ويؤيدهم بالنصر . (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) .

وزاد القرآن على هذه الحكم في التشريع صفة ثانية تتصل بالبشر وهي الثقة بالنفس والايمان بالقضاء والقدر وان المقدر مكتوب فلن ينجى الفرار احدا من الموت اذا كان مقدرا له ان يموت ولن يصيبه شيء اذا قدر لهأن يعيش . وكانت هذهالقاعدة من أجل القواعد التي اندفع بعدها المؤمنون يدافعون عن العقيدة ولقد وثق المؤمنون بالقضاء والقدر ووضعوا دماءهموأموالهم

بين يدي رسول الله في طاعة منقطعة النظير فكان النصر يواتيهم و كانوا يستفتحون فيأتيهم الفتح من عند الله وكانوا اذا أقدموا ملأ الرعب قلوب المشركين خوفا فيستسلمون طوعا أو كرها لقد حبب الاسلام التضحية للمؤمنين مقابل رضاء الله فاحبوا الموت في سبيل الله كما أحب غيرهم الحياة في سبيل الدنيا •

الغِنَاءُ والفَنُّ

قويت شوكة المسلمين واخذت سرايا الجيش الاسلامي تحوم حول المدينة وتقترب من مكة والتحمت القوتان قوة المؤمنين وقوة المشركين وانتصر المسلمون ووقع بأيديهم الاسرى واصابوا الغنائم ، وافاء الله عليهم غنائم أخرى دون أن يقاتلوا أحدا عليها فكان لابد من نظام يبين وضع الفيء وقسمة الغنائم على المقاتلة المجاهدين في سبيل الله فيأخذ كل واحد منهم نصيبه بعد ان تعرض لحد السيف وسنان الرمح وسهم القوس وباع نفسه لله يبغي من وراء ذلك رضاه وثوابه في رياض الجنان مع الصديقين والشهداء في الآخرة ويأمل في الدنيا حسن الاحدوثة ورفعة المكانة بين المؤمنين المدافعين عن حوزة الاسلام .

ونزلت الآية الكريمة : (واعلموا ان ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء

قدير) •

وكان نزولها عى ارجح الاقوال بعد واقعة بدر وبعد انتصار المسلمين انتصارا حاسما في هذه الواقعة ووقوع الغنائم والاسرى في ايديهم وبعد نزول هذه الاحكام الواضحة ابتدأ فرض قسمة الغنائم فكانت خمسا لله ولرسوله ولذوى القربى الادنين من أهل بيت النبوة الذين لا يحق لهم ان يأخذوا نصيبا من الصدقات ولليتامى المحتاجين الذين ليس لهم مال ولا أولياء ينفقون عليهم وللمساكين ذوي الحاجة الملحة ولابناء السبيل الذين تقطعت بهم السبل فلا يستطيعون الوصول أو الرجوع الى مكانهم وليس في ايديهم أموال ينفقون منها على أنفسهم • اما حق الله في هذا الخمس فانه ينفق على مصالح المسلمين العامة كمثل بناء الكعبة واقامة الشعائر وما الى ذلك • وحق الرسول فيه أن يأخذ كفايته ويعطي لذوى القربى ما يصيبهم منه • والاخماس الاربعة الاخرى من حق المقاتلة المجاهدين في سبيل اعلاء كلمة الله للفارس ثلاثة أسهم وللراجل منهم سهم واحد •

وأما أموال الفيء فليس لاحد من المقاتلة حق فيها وهي أموال وقعت بيد المسلمين بلا حرب ولم يسرعوا على ظهور الخيل والابل لاخذها من يد المشركين بالحرب ولم يتعرضوا فيها لسهام العدو فهيأموال خالصة لله ورسوله يضعها الرسول حيث يشاء وقد نزلت في أحكامها الآيات الكريمة : (وما افاء الله على رسوله منهم فما اوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير • ما افاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب) •

وقد اتضح من أحكام هذه الآيات أن أموال الفيء أموال خالصة لله ولرسوله خاصة بهما يضعها الرسول حيث يشاء ويوزعها كيفما يشاء في أعمال المصالحالعامة وعلى ابناء الشعب الذين منهم بعض قرابة النبي ومنهم اليتامى والمساكين وابناء السبيل حفظا لكيان الامة وبناء المجتمع الاسلامي

الجديد الذى كانت فيه فجوات كبيرة بين الاغنياء والفقراء ولكي لا تبقى الحسرة في قلوب الفقراء والثروة في ايدي الاغنياء • كان هذا التشريع الصادق سبيلا للمحبة وتآلف قلوب المؤمنين وتربية نفوسهم على الايثار وقد أوضح القرآن الكريم ان الحكمة في هذه القسمة والتنظيم أن لا تكون الاموال كلها بيد الرؤساء والاغنياء يستأثرون بها لانفسهم ويتداولون بها بينهم والفقراء ينظرون اليهم تتفطر قلوبهم ألماً وحسرة •

وختم القرآن هذه الاحكام بمثل ما يختم به عادة الاحكام الاخرى التي تنظم المجتمع • من التصميم والتنفيذ والطاعة والاذعان وبيان المثوبة والعقوبة في حالتي الطاعة والمخالفة « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب » •

ونزلت آيات أخرى في هذا الشأن وبينت المقصود من الفقراء فكانوا ذوى القربى واليتامى والمساكين وابناء السبيل من فقراء المهاجرين الذين اخرجتهم قريش من ديارهم بمكة وفروا بدينهم وايمانهم الى المدينة جهادا في سبيل الله ونصرة لدينه فالتجأوا الى الانصار يرجون بفرارهم أن يمن الله عليهم بنعمة الامن والاستقرار والعيش الرضي في ظلال الاسلام مع الثواب في الآخرة هؤلاء هم الذين يستحقون الفيء الذي يقع بيد المسلمين بلا حرب ولا نزال : (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون) •

كان هذا التعويض العادل موضع رضاء المهاجرين والانصار وكان حافزا قويا للمؤمنين في سبيل الله كان ينبوعا نفسيا تربت عليه نفوس المسلمين من الايثار والمحبة والالفة وقد أمتدح القرآن فريق المهاجرين الاغنياء وامتدح الانصار الذين ساعدوا هذا الفريق من المهاجرين ونزلت الآيات الكريمة في حق الانصار تشيد بذكرهم وهي على كونها خاصة فانها أحكام عامة للمؤمنين أجمعين : (والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على انفسهم

ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) •

هؤلاء هم الانصار الذين استقبلوا المسلمين المهاجرين من مكة وذويهم لقد استقبل الانصار هذا الفريق بالمحبة والايثار واسكنوهم وشاركوهم في أموالهم واقواتهم بل فضلوهم على انفسهم مع الحاجة الشديدة •

وقد ذكرت اخبار السيرة النبوية والاحاديث الشريفة توضيحا لهذه الآيات الكريمة بما يدل على علو النفس الانسانية التي رباها محمد وعلى النظام الاجتماعي الذى اختطته السماء لهذه الامة فقد ذكرت الاحاديث ان النبي (ص) عندما حصل على الفيء قسمه بين المهاجرين ولم يعط الانصار شيئا الا ثلاثة فقراء منهم محتاجين فلم يظهر الانصار تبرما ولا غيظا فلما رأى النبي (ص) منهم هذه المواقف النبيلة ودعاهـم واثنى عليهـم وحمد مواقفهم للمهاجرين ورأى ما صنع الانصار للمهاجرين في منازلهم ومشاركتهم في أموالهم فقال لهم ان احببتم قسمت ما أفاء الله علينا بينكم وبين المهاجرين وبقوا على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم ومقاسـمة أموالـكم وان أحببتم اعطيتهم الاموال وخرجوا من منازلـكم ، فقال سعد بن عباده سيد الخزرج وسعد بن معاذ سيد الاوس : (بل تقسم بين المهاجرين ويبقون في دورنا كما كانوا ، فنادى جميع الانصار : رضينا وسلمنا يا رسول الله • فقال رسول الله • اللهم ارحم الانصار وابناء الانصار •

هذا مثل رائع من الخـلق العربي الـكريم ومثل رائـع من النظام الاجتماعي الاسلامي الذى اوجده القرآن برسالة محمد وهذا هو السـر العظيم الذي ابتنت عليه حضارة الاسلام فيما بعد•ايثار ومحبة وتداول في الامر دون ضغط وتعويض عادل وقسمة شريفة فيها حفظ كرامة الانسانية وفيها الاعتراف بحقوق الانسان لم يضغط النبي (ص) على الانصار في سـكنى المهاجرين في دورهم ومقاسمتهم أقواتهم واموالهم ولم يحث المهاجرين على هذه السكنى بل كانت ضيافة عربية كريمة فيها منزلة ورفعة في الدنيا وفيها علو همة وحسن احدوثـة وفيها قيمة للخلق العربي الـكريم وفيها رضاء الله ومثوبته في الآخرة حيث يكون المؤمنون المؤثـرون على انفسهم فـي منازل الانبياء والصديقين والشهداء •

ربى محمد (ص) هذه الامة مبتدئا من نقطة واحدة مهمة هي الاعتراف بكرامة الانسان واعتباره أحسن مخلوق على وجه البسيطة وما حوله قد وجد لاجله ولحفظ كرامته ولم يعامل الانسان مادة لا قيمة لها أو سلعة تداول كمثل السلع الاخرى انه يرى في الانسانية طاقات هائلة للوصول الى المثل الاعلى وكلما استمر الانسان في تربيته الصافية استطاع ان يخدم الحضارة البشرية ويسيطر على الكون ويسبر غور الطبيعة وكل نظام في انظمة المجتمع لا ينظر هذه النظرة الى بني الانسان نظام فاشل ان المادية جهة واحدة فقط في تكوين الانسان فاذا نظرت اليها القوانين وحدها وأهملت الجهة الروحية فشلت ولن تنجح . فان الانسان مادة وروح وكل نظام يؤلف بينهما ويحترمهما نظام ناجح والاسلام نظام يجمع بين المادة والروح وعقيدة تعتز بالكرامة .


الخاتمة

عشت أربعين اسبوعا في مهبط الوحي وكلما مضى اسبوع استدعت الذاكرة صورة جديدة لاسبوع آخر • وذكرى مهبط الوحي تتلاحق صورها ومشاهدها مشهد يدعو مشهدا وتتدفق موادها تدفق الماء النمير من العين الصافية ولما بدأ القلم يكتب حروف الخاتمة تمشت بين جوانحي رعدة الرهبة والجلال ، ذلك ان الصور ازدحمت في مخيلتي والمشاهد تجمعت حول ذاكرتي واشرأبت أعناق الامجاد تريد ان تظهر للوجود ليقرأ الناس سر عظمة رسالة محمد (ص) وتريد من القلم ان ينطلق ولا يقف لتشبع رغبات المؤمنين بقرآن محمد تريد ان تظهر متألقة ترسل أشعتها في دجنة هذا الظلام الحالك الذى يلف العالم بالالحاد والافساد تريد ان تبرز الناس صورا حية في قيادة محمد وهدايته وثبات ابي بكر وحزمه وعدل عمر وتنظيمه وكرم عثمان وحلمه وشجاعة علي وزهده تريد أن تظهر في صناديد الاسلام : في خالد والمثنى وابى عبيدة وعمرو بن العاص تريد ان

تبرز في هذه الشريعة الغراء التي نبعت من ينابيع النبوة من القرآن والحديث والادب الجم والخلق الكريم والسلوك المستقيم تريد أن تثبت للوجود ان هذه الامة كانت خير أمة أخرجت للناس : تلك الامجاد لو كان البحر مدادا لفضائلها لنفد البحر قبل ان تنفد خصائصها ولو جئنا بمثله مددا •

في مهبط الوحي كتبت ما سمح لي الزمان به ان أكتب على كثرة العمل ومشاغل الدنيا واطلقت القلم واني أعلم باني أعجز من يوقفه ولكنني عللت نفسي ان هناك من يبدأ حيث انتهيت ومن يصحح حيث اخطأت ومن يغفر اذا زللت ويصفح اذا وقفت فان العمل كثير والموضوع متشعب وخطير والوقت ضيق وقصير •

كانت صور مهبط الوحي واقفة أمام عيني وقوف الشخص في المرايات المتقابلة لا حدود لها ولا نهاية فلقد خلق الاسلام أمة ملأ قلوب بنيها بالايمان ورفع جباهها الى الاعالي ومن ينظر الى الاعالى يسهل عليه نيل المعالي انشأ محمد جيلا في جامعة مكة والمدينة وكانت منابر درسه في منبر الرسالة وكانت محاضراته ينزل بها جبريل من السماء كصلصلة الجرس ترن في الاذن فينصت الايمان اجلالا وتعظيما فتنفتح عن حكم فاصل وارشاد منير وكان العرب الذين تلقوا الوحي في فجره على سمو كعبهم في البلاغة والفصاحة ورفعة مجدهم في الثقافة والمعرفة التلاميذ الاول في جامعة محمد وكثير منهم من عض على قارحة الكمال في بلوغ السن وعلو المنزلة بين قومه وكانوا اذا سمعوا الوحي خروا له سجدا واذا وقفوا أمام محمد عشيت عيونهم من جلال النبوة فاذعنوا لاختيار السماء • في هذا الجو المقدس المحفوف بالروعة والجلال تخرج تلامذته فساروا على منهجه • يا لها جامعة استمرت ثلاثة وعشرين عاما تخرج فيها الخلفاء والقادة وامراء الجيوش وولاة الامصار والقضاة والفقهاء تخرج فيها المحدثون والحافظون والمستنبطون والمشرعون تخرجت فيها أمة كاملة تحب العدل وتكرم الاخوة وترضى بالمساواة وتركن الى الشورى وتمجد الوفاء والكرم وتعتز بالشجاعة والاقدام وتحفظ حقوق العلماء وتعلم الجهلاء وترشد السفهاء

ثلاثة وعشرون عاما والوحي ينزل من السماء ومحمد يبلغ ويحدث فتبليغه وحي وكلامه حديث وفعله قدوة وسلوكه مثل يحتذى به والناس راضون والمجد يحف بالاسلام والاسلام يعلو شأنه يوما بعد يوم ومن هذه المدرسة اندفع الرعيل الاول من العرب والمسلمين الى العالم يحملون قرآن محمد (ص) وأدبه والقدر يخط لهم في اللوح صحائف المجد في الفتوح ونور الاسلام يشع فيضيء الدجنة الحالكة في أرجاء العالم •

لقد اجتمعت على هذا الفتح المبين والنصر المؤثل قوة السماء وهدايتها وارادة العرب وشجاعتهم فهم حملة الرسالة الاول وهم الذين وضعوا في أعناقهم أداءها وهم الذين حملوا الامانة بعد السماء والارض وهم عالمون بثقلها فأدوها خير أداء •

ان صفات العرب في الحلم والكرم والوفاء والصدق والتضحية حملت الامم على الالتفاف حولهم فآمنوا بالله ورسوله وصدقوا بآياته وثقفوا لغة العرب وتفقهوا في الدين الحديث فتبوءوا مناصب العرب والعرب راضون خاضعون لقاعدة علمت الناس كيف يكون العدل وكيف تسود المساواة : انما المؤمنون اخوة) كانت هذه القاعدة روح المجتمع الاسلامي وعقله الذى امتاز بها عن مجتمعات الامم الاخرى • لقد ابتليت قواعد المجتمعات بالظلم والعدوان والعبودية والرق وامتهان كرامة الانسان واختلاف الطبقات علوا وضعة فكانت هذه القاعدة تجديدا محت الفوارق في الجنس واللون وفي الزمان والمكان • كانت مقصا حادا قلم أظافر الغرائز فتآخت على اظهار الحق وتعاونت على دفع الباطل • أشاعت الاخوة الاسلامية والمحبة بين المؤمنين فبرزت بينهم غريزة الايثار والتضحية وشهد العالم لونا جديدا ساميا من الوان البشرية وهبت عليه نسمات الرحمة والشفقة وخضع التاريخ لفضيلة كبرى ما عرفها قبل العرب وسجل على نفسه وفي أروع صفحة من صفحاته تلك العبارة الخالدة : (ما عرف التاريخ فاتحا أرحم من العرب) لقد كانوا في فتحهم رحماء وفي شرعهم فقهاء وفي اقدامهم شجعانا وفي العلم اذكياء ونبهاء أبدعت مدرسة محمد أوائلهم فسلك التابعون مسلك

الاولين وبرزت مواهبهم فبنوا لنا هذه الحضارة التي تعد من أرقى الحضارات لقد برعوا في الفلسفة مثلما برعوا في التشريع وبرعوا في الفلك والرياضيات وبرعـوا في الطب مثلما برعوا في علوم الطبيعة أعان قرآنهم ذكاءهم لان القرآن يحث على الابداع ويحث على التقدم ويحث على التطور ويحض المؤمنين على التفكير في ملكوت السموات والارض وفي النفس الانسانية وفي هذا الحث يعطي القرآن درسا بليغا في وجوب التطور وعدم الوقوف في مكان واحد • ان التفكير في خلق السموات يتطلب النظر في ابعادها وافلاكها والتفكير في خلق الارض يتطلب البحث في اغوارها وانجادها والتفكير فـي النفس المعقدة يبعث الانسان الى الاقدام في البحث في دقائق الخلقة والتعبير عن قدرة القدير • لا رجعية في طبيعة العرب ولا رجعية في سور القرآن وآياته فالعرب أمة طامحة والقرآن ينبوع يتدفق بالامجاد والابداع والعدل والمساواة والمحبة والاخاء •

أترك القلم في مهبط الوحي وعمود من نور يتراءى أمام ناظري صاعدا من غار حراء في جبل النور المطل على البيت العتيق مرتفعا الى عنان السماء واتخيل جبريل يرف بجناحيه هابطا يحمل الوحي بهداية الرحمن ثم تمر أمام ناظري جموع المسلمين تطوف بالبيت العتيق وتسعى بين الصفا والمروة وانتقل بخيالي فأبصر الزحوف المتهادية بين مكة ومنى وعرفات ويمتد بي الخيال فأتذكر صاحب الرسالة واتخيله واقفا على صخرات جبل الرحمة • لقد كان محمد (ص) رائدا والرائد لا يكذب أهله لقد صدق وعده حين قال أيها الناس والله ما كذبتكم ، وطفق في ارشاده وتعليمه وتـكوينه ثلاثـا وعشرين حجة وفي حجة الوداع وقف مبشرا فرحا يرى جموع المسلمين حوله تزهو بقوة الايمان يتلو عليهم آيات السماء : (اليوم أكملت لـكم دينكم واتممت عليكم نعمي ورضيت لـكم الاسلام دينا) •

صدق الله العظيم والى حج قابل إن شاء الله •

* * *

تم الفراغ من تدقيقه في يوم الجمعة السابع من ذى الحجـة لعـام ١٣٨٤هـ الموافق لليوم التاسع من نيسان لعام ١٩٦٥م •

شكر وتقدير

أريد أن اسجل شكري وتقديري للافاضل الذين أيدوني بعملهم في في اخراج هذا الكتاب على هذا النمط الذي يراه القارىء واخص بالذكر منهم صديقي الفاضل الدكتور أحمد ناجي القيسي الاستاذ بكلية الآداب بجامعة بغداد وصديقي الفاضل الدكتور أحمد مطلوب والاستاذ بكلية الآداب بجامعة بغداد •

والصديق السيد مكي الجميل سفيرنا في جده الذي قدم الي التقرير الرسمي في موسم الحج وزودني بمجموعة من الجرائد اليومية التي صدرت اثناء ذلك الموسم •

ولا انسى معونة اولئك العلماء الافاضل الذين اغترفت من مناهلهم العذبة ما اسبغ على الكتاب طابع البحث العلمي والتأريخي اولئك الأعلام الذين خلد ذكرهم فضل عملهم واخص منهم : الطبري ، والمسعودي ، وابن الأثير والبلاذري وابن سعد وابن هشام والبخاري وغيرهم من الافاضل الذين يضيق بهم المقام هنا رضي الله عنهم جميعاً ومن الكتب الحديثة التي استعنت بها : كتاب تاريخ مكة لمؤلفه الفاضل أحمد السباعي جزاه الله خير الجزاء ولا انسى أن أخص بالشكر السيد عبدالحميد العاني صاحب مطبعة العاني الذي نشر الكتاب وداوله بين الناس لجميع هؤلاء أكرر الشكر والثناء وجزاهم الله خير الجزاء •

المؤلف

ثبت الكتاب

مؤلف الـكتاب

مؤلف هـذا الـكتاب الدكتور محمد بديع شريف ينتمي الى اسرة عريقة في بلدة (عنه) معروفة بالتفقه بالشريعة الاسلامية وتعرف باسرة المفتي وقد بقيت وظيفة الافتاء في هذه الأسرة بهذه البلدة عشرات السنين ٠

درس الشريعة في كلية الامام الاعظم وحصل على ليسانس في التربية وتدريس اللغة العربية من دار العلوم بالقاهرة (اجازة التدريس) وتعين مدرسا في دار المعلمين في بغداد ٠ ثم اختارته وزارة المعارف وضمته الى البعثة للدراسة في المانيا عام ١٩٣٦ وبعد دراسة ثلاث سنوات في جامعتي برلـين وبون نقل دراسته الى سويسرا فنال فيهـا شـهادة الدكتوراه في التاريخ الاسلامي والآداب من جامعة (بازل ـ سويسرا) ٠

وفي عام ١٩٤١ ولظروف الحرب التحق بالجامعة نفسها فحصل على الدكتوراه في القانون العام سنة ١٩٤٥ ٠ ثم عاد الى العراق في نهاية عام ١٩٤٥ وعين مفتشا اختصاصيا في ١٦/٢/١٩٤٦ في وزارة المعارف ومن هذا التاريخ تقلب في مناصب الدولة الادارية والعلمية فعين مديرا للتعليم الثانوي ثم مديرا للنشر والترجمة والتأليف ثم سكرتيرا لوزارة المعارف وعين بعد ذلك استاذا مساعدا في دار المعلمين العالية لتدريس الادب العربي ٠ ثم عين بعد ذلـك ملحقا ثقافيا في القاهرة وبعد عمل خمس سنوات في هذه الوظيفة عين مديرا عاما لوزارة المعارف ثم عين استاذاً لكرسي القانـون وعميدا لكلية التجارة ثـم ملحقـا ثقافيا في لندن وفي عام ١٩٥٨ نقـل استاذا في جامعة بغـداد

ومديراً لمعهد الادارة العامة ثم عين مدونا قانونيا في وزارة العدل وبعد عمل ما يزيد على سنتين عين عضوا في مجلس الخدمة العامة • وبعد عمل سنتين في هذه الوظيفة عين رئيسا لديوان رئاسة الجمهورية وهو منصبه الحالي •

الانتاج الفكري :

الف كتابا في نقد الأدب العربي وكتابا في أصول تدريس اللغة العربية وكتابا في الفدرال (الاتحاد السويسري) •

وضع اطروحته التي نال بها الدكتوراه في التاريخ بعنوان حركة الموالي في الخلافة الشرقية باللغة الالمانية ونقلها الى العربية بعنوان (الصراع بين الموالي والعرب) •

ووضع اطروحة في القانون العام (الدستور) باللغة الالمانية •

ترجم عن الالمانية « حوار العباقرة » وكتاب العالم المرح ، حقق لامية العرب وشرحها وآخر كتاب له هذا المؤلف الذي بين يدي القارىء وله مخطوطات تنتظر النشر •

الناشر

الخطأ والصواب

خطأ	صواب	الصفحة	السطر
ماذن	فاذن	٢٢	٢٤
ورائض	فرائص	٢٣	٢٣
بياض	بيض	٢٥	٤
لانقاذ	لانقاذ	٣١	٢
كتف	كنف	٣٦	١
الزنائد	الزناد	٤٣	٢
او سمّه اجتماعياً	او سمّه عدلاً اجتماعياً	٤٩	٣
الخناذيذ	الصناديد	٨٠	٢٥
العكبة	الكعبة	٨٥	٢١
الآلهة	الآله	٩٣	٧
جين	حين	٩٩	١٢
الحامحة	الجامحة	٩٩	٢٤
وانقست	وانقسمت	١٠٣	١٨
الحصىُ	الحصيات	١٣٥	١٩
انهما	انهم	١٤٠	١
واذا	واذ	١٤٤	٢
فاتهم	فاتهم	١٦٠	٩
ويركنوا	ويركنون	١٦٠	١٤
مُنىُ	مِنىُ	١٦٣	—
يستطيعون	يستطيعوا	١٩٤	٢٣
يربدا	يريدا	٢٣٠	١١

من هـذا الكتاب

ما رأت البشرية عهداً من عهود النبوات ولا كتب التأريخ صفحة من صفحات المصلحين مثل هذه الفترة التي مر بها عهد النبوة من مشرق الدعوة الى اكتمال العقـيدة الاسـلامية ٠ لقد أختفى في هذه الفترة سلطان الارض عن رقابة الرعية ومشت أحوال المجتمع رخاء يعرف كل امرىء حقه دون الرجوع الى درجات المحاكم ودوائر الامن ومراكز الشرطة ومعاقل السـجون وكانت السـماء هي الرقيبة على هذه الامة .. وفي هذه الفترة ظهرت شخصية المسلم فكان الصحابى مثال الرجل الكامل نور القرآن يمشي بين يديه وسيرة الرسول ماثلة أمام عينيه وهي سيرة فيها معاني المثل العليا فالمؤمن لا يكـذب والمؤمن لا يغضب بل يعالج امـوره بالحلم والعقل والعـزم والارادة والمؤمن يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة والمؤمن أخو المؤمن وناهيـك بهـذه الاخـوة مـن تضـحية وايثـار .

الناشـر

Date Due